

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

عدد خاص بالتعليم العتيق



السنّة السابعة والخمسون

407

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السابعة والخمسون - العدد 408 - رمضان 1435 هـ / يوليو 2014 م



أسسها

جلالة الملك المفقور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376 هـ / 1957 م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا عمالة العكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد ونغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاء والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المفقور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليو 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الدينية
البريد الإلكتروني: daawatalhak@mh.gov.ma

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mh.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 32 10 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 درهم

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 درهم

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي

قراءة في نواحي المختصات



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد



افتتاحية

تجسد ذكرى عيد العرش المجيد حدثاً هاماً لدى المغاربة فالهبة، وفد مأبوا على الانغراس في شرب خلل التجسيد وتلفوه بالرضا والقبول، واستعانوا على ما هم فيه بما فصرهم الله عليه من التعلق بالدين وتعظيم سنة المصطفى الأمين، ولمن له انتساب لموحة خاتم المرسلين. فاستفرت أحوالهم منذ الابتداء على الغيام بعروض الصاعة ولزوم الجماعة. وأسفر خلل عن خيارات يمكن اعتبارها ثوابت أرست دعائم الشهود الحضاري في هذا البلد الأمين.

ويسعد أسرة مجلة الدعوة الحق أن تنص هذا العهد لمناسبة ذكرى تربع أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده على عرش أسلافه الميامين، وخلل بمشاركة ثلة من العلماء والأساتذة الأجلاء، عملوا على تجلية معاني هذه الذكرى العالية على أمير المؤمنين والمغاربة أجمعين.

رئيس التحرير

ملف العدد

الولاء والبيعة في الصحراء المغربية والسودان الغربي من خلال مجموعة من النصوص التاريخية

ذ. أحمد الأزمي

بما أن جذور المغرب تضرب بأعمقها في القارة الإفريقية، فإن ارتباطه بصحرائه يرجع إلى عهود قديمة من الناحية الزمنية، يصعب تحديدها، لذلك سنكتفي في هذا العرض بالبحث في الصلات السياسية والبشرية منذ قيام الدولة السعدية فقط، ليتم التركيز بشكل أساسي على عهد الدولة العلوية. ولمعالجة هذا الموضوع، قسمناه إلى العناصر الآتية:

- لمحة تاريخية عن عمق المغرب الصحراوي الإفريقي.

- أدلة الولاء والبيعة لإمارة المؤمنين في الصحراء المغربية والسودان الغربي من خلال المصادر العربية والوثائق المخزنية.

- نماذج من نصوص الولاء والبيعة لإمارة المؤمنين في الصحراء والسودان الغربي.

I- لمحة تاريخية عن عمق المغرب الصحراوي الإفريقي:

تمتد الأقاليم الصحراوية في اتجاه الجنوب حتى نهر السنغال، وتشكل بذلك امتدادا طبيعيا للتراب المغربي، وهذا ما يفسر خضوعه للسيادة المغربية منذ قيام الدولة المرابطية على الأقل حتى مطلع القرن العشرين، باستثناء بعض فترات الضعف التي كان يتراجع خلالها نفوذ المغرب مؤقتا على ذلك الجزء من صحرائه. لكن عندما كان يسترجع هيئته ومناعته كان إشعاع حضارته ونفوذه يتعدى إقليم شنقيط ليشمل مناطق موغلة في إفريقيا جنوب الصحراء تتعدى ضفاف نهري النيجر والسنغال، كما حدث في عهد السلطان المنصور السعدي⁽¹⁾، الذي أصبحت فيه تمبكتو عاصمة إقليم

1 - بخصوص هذا الموضوع يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى الدراسات التالية :

- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر - الكويت (د.ت).

- Abitbol (M) ; Tombouctou et les Arma, Maisonneuve et la rose, 1979.

- Dramani Issifou (Z) ; L'Afrique Noire dans les relations Internationales au XVIème siècle (Analyse de la crise entre le Maroc le Sonrhāi), Ed. Karthla, Paris, 1982.

السودان الغربي الخاضع للحكم المغربي. وقد استمرت السيادة المغربية على تلك الأصقاع، وإن اعترها ضعف واضح في القرن 19، لأسباب يطول شرحها، وتتعلق عموما بالهجمة الاستعمارية على كل القارة الإفريقية، إلى أن سقطت تمبكتو في أيدي الاحتلال الفرنسي خلال العقد الأخير من نفس القرن⁽²⁾. ومما يشهد على علاقة الولاء التي كانت تربط بين مدن نهر النيجر الإسلامية والمغرب في هذه الحقبة التاريخية، رسائل شيوخ تمبكتو ومبعوثيهم إلى السلطان الحسن الأول في موضوع طلب النجدة ضد المستعمر الأوربي⁽³⁾. ونفس الشعور بالانتماء إلى المغرب عبر عنه الشناقطة، تأليفا، ومواقف سياسية، وتمازجا بشريا وثقافيا ودينيا، ومقاومة مسلحة ضد العدو المسيحي القادم من أوربا الرأسمالية⁽⁴⁾.

ولم تتقطع الأقاليم الشنقيطية، فيما يسمى حاليا موريطانيا، والنيجيرية (مالي)، من جسد المغرب الأصلي إلا بعد التآمر الأوربي عليه، بعد إجباره بالحيلة أحيانا عن طريق المعاهدات السرية منها والعلنية، وأحيانا أخرى بالقوة، على التخلي على هذا الجزء العزيز من كيانه.

ولا يسع المجال هنا للتعرض لتفاصيل الصراعات السياسية والدبلوماسية والعسكرية بين الدول الطامعة في المغرب، ونخص بالذكر منها فرنسا، إسبانيا، إنجلترا، إيطاليا، ألمانيا، بدءا

2 - Pefontan ; Histoire de Tombouctou, de sa fondation à l'occupation française, dans Bulletin du Comité d'Etudes Historiques et Scientifiques de l'A.O.F., 1922.

- Culture et Civilisation Islamique : le Mali, Publication de l'Organisation Islamique pour l'Education. Les Sciences et la Culture - ISESCO, 1408- 1988, pp. 24- 25.

3 - عبد الله الفاسي، مسلك الصلاح وملهم الرشد والفلاح في قضية انتصار أهل السودان بالسلطان الجليل المقدس مولانا الحسن، المطبعة الحجرية بفاس عام 1325 هـ، يشتمل هذا التأليف على حوالي تسع صفحات تطرق من خلالها صاحبها إلى معالجة الموضوع أعلاه نظما، ويقول مطلع المنظومة:

يقول عبد الله فاسي القلب الفهري الأصل شهير النسب

إلى أن يقول:

وبعد فالقصد فيما أقوله منظما في سلكه أجعله

نصيحة الملك ذي الرأي الحسن أميرنا المنصور مولانا الحسن

بقاطع الدليل والبرهان مما بدا من نصره السودان

ثم انظر أيضا : - محمد إبراهيم الكتاني، مصادر تاريخ إفريقيا من خلال المخطوطات المغربية، مجلة الأكاديمية، عدد 4، نونبر 1987، ص 231 وما بعدها.

4 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، 1958، ص 1 ثم ص 422 وما بعدها.

- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة الرباط، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص 36 على الخصوص، ثم الصفحات: 39- 40- 52- 73- 98- 111- 112- 121- 122 وغيرها كثير في ثنايا هذا الكتاب.

- عبد الوهاب بن منصور، مناقب أهل الصحراء في تشييد صرح الأمة الغراء، المطبعة الملكية، المغرب، 1975.

- محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، تطوان، 1953، ص 33 وما بعدها.

بمفاوضات الكواليس، ووصولاً إلى صيغ التفاهم التي جعلت كل دولة من هذه الدول تنفرد باحتلال جزء من دول شمال إفريقيا الإسلامية، فآل المغرب بموجب ذلك إلى فرنسا التي اضطرت لاقتسامه مع إسبانيا بشكل أرضي الطرفين، فكان لإسبانيا نصيبها في الشمال وفي الجنوب أي في الصحراء المغربية⁽⁵⁾.

وهذه القسمة الفريدة من نوعها في التاريخ الاستعماري، حققت أحلام فرنسا وإسبانيا في المغرب بشكل مدروس، جغرافياً وسياسياً. فإسبانيا التي لا يفصلها عن المغرب سوى مضيق جبل طارق بسطت نفوذها على جزئه الشمالي باستثناء طنجة التي خضعت لاحتلال دولي، وحتى حدود نهر ورغة. أما المجال الواقع جنوب هذا النهر حتى ما وراء نهر درعة، فدخل تحت السيادة الفرنسية، لتصبح فرنسا بعد هذه الغنيمة تبسط نفوذها على بلدان المغرب العربي من المحيط الأطلسي إلى الحدود التونسية الليبية.

كما أن اقتسام الصحراء المغربية روعي فيه خدمة نفس المصالح، عندما وضعت فرنسا يدها على الجزء المتاخم لبلاد السنغال والسودان الفرنسي (مالي الحالية)، لتعزز وجودها بأعالي النيجر والسنغال، اللذين عملت على التوغل داخل القارة انطلاقاً منهما منذ القرن 17 على الأقل⁽⁶⁾.

وبنجاحها في ضم بلاد شنقيط، الجزء الجنوبي من الصحراء المغربية إلى ممتلكاتها بغرب ووسط إفريقيا، تكون فرنسا قد حققت في الواقع هدفين: الأول يتجلى في القضاء على مقاومة الصحراويين الذين كانوا يتلقون العون والسند من السلاطين المغاربة، لكن بعد إسقاط المغرب الذي كانوا يشكلون معه وحدة عضوية، سهل عليهم الإجهاز على ما تبقى من حركة في صفوفهم. أما الهدف الثاني، فهو ربط المستعمرات الفرنسية بشمال الصحراء، وجنوبها، حتى يصير الاتصال مباشراً بين الجزائر والمغرب من جهة الشمال ومالي والسنغال من جهة الجنوب⁽⁷⁾. الجزء الشمالي من الصحراء المغربية، أو ما يسمى بالساقية الحمراء ووادي الذهب، اللذين كانا من نصيب دولة إيبريا الإسبانية،

5 - لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى:

- محمد خير فارس، المسألة المغربية، القاهرة، 196.

- محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939، دمشق، 1972.

6 - Saint Martin (Y), L'Empire toucouleur et la France : un demi siècle de relations diplomatiques (1846-1893), Dakar, 1967, p. 45.

7 - Commandant Breveté (G), La pénétration en Mauritanie, Paris, 1926, pp. 241- 267- 268- 351.

تم التخطيط له من قبل إسبانيا لتخدم مصالحها الإستراتيجية، وأهمها قربها من جزر الخالدات⁽⁸⁾، مما يعني أن هذه المستعمرة على أرض المغرب، كانت تشكل متنفسا ضروريا ومجالا حيويا لإسبان جزر الكناري خاصة وإسبان جزيرة إيبيريا عامة، فضلا عن الشحنة المعنوية التي ساهمت في تدعيم مكانة الدولة الإسبانية بين الدول الأوربية المتكاملة على الاستعمار، وعملت على الرفع من شأنها بين دول العالم بشكل عام.

وما يهمننا من هذا كله هو أن الصحراء المغربية تعرضت للمصادرة والاحتلال، إلا أن رجالها لم يستسلموا إلا بعد أن خضعت حكومة المخزن في شمال البلاد للهيمنة الفرنسية بموجب عقد الحماية الموقع بفاس في 30 مارس 1912، والاحتلال الإسباني بموجب معاهدة 27 نونبر من نفس السنة⁽⁹⁾.

ولعل المقاومة البطولية التي قادها الشيخ ماء العينين بالصحراء المغربية بتنسيق مع الملوك المغاربة ودعمهم له⁽¹⁰⁾، خلال العقد الأخير من القرن 19 ومطلع القرن 20، والمصير المأساوي الذي آل إليه بعض كبار القواد العسكريين الفرنسيين في بلاد شنقيط، وفي مقدمتهم "كوبولاني Coppolani" الذي لقي حتفه في كمين نصبه له المجاهدون هناك خلال سنة 1905⁽¹¹⁾، أوضح دليل على إخلاص رعايا سكان الساقية الحمراء ووادي الذهب للملوك المغاربة في خوض كل أشكال النضال وبذل أعلى التضحيات للمحافظة على الوحدة الوطنية من شمال المغرب إلى أقصى جنوبه، وفاء للبيعة التي في عنقهم للسلطين المغاربة. إن ما يفسر وحدة المغرب العضوية من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر السنغال، ووحدة ساكنته الدينية واللغوية والعرقية والمذهبية والجغرافية، مع الأخذ بعين الاعتبار بعض الاستثناءات القليلة.

فالعنصر العربي السائد في مغرب السهول والجبال شمالا، هو نفسه الذي يشكل أغلبية سكان الصحراء المغربية، أما الإسلام فهو عقيدة كافة الإثنيات في الإقليمين، بل حتى على المستوى المذهبي

8 - من أجل الاطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى:

-Lazrak (R), Le Contentieux territorial entre le Maroc et l'®, Dar El Kitab , Casablanca, 1974.

-Rézette ®, Le Sahara Occidental et les frontières Marocaines, nouvelles éditions latines, Paris, 1975.

9 - محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب، م. س، ص : 53 و 57.

10 - Commandant Breveté (G), op. cité, pp. 11- 12.

11 - Ibid, p. 131.

نجد أن مذهب الإمام مالك الذي اعتمدته دول المغرب العربي على المستوى الفقهي، ومنها المغرب، هو نفسه السائد في الساقية الحمراء وبلاد شنقيط لمعالجة مختلف القضايا الفقهية، كما أن نظام الحكم الملكي الذي اختاره المغاربة أداة سياسية لحكم بلادهم منذ دولة الأدارسة، هو نفسه الذي عاش في ظله أهالي الصحراء المغربية منذ القرن الخامس الهجري، وقد ترتب على كل هذا أن المناهج الدراسية ونظام التعليم، والكتب المدروسة كانت متطابقة في الإقليمين.

هذا التجانس الطبيعي والثقافي والديني والسياسي داخل حدود المغرب الأقصى الكبير، هو الذي سهل عملية التواصل البشري بين مختلف جهاته. ولم تشكل الصحراء قط حاجزا طبيعيا بين شطري المغرب. يمكن الاستدلال على هذا القول، بما حصل من أخذ وعطاء في الميدان الديني والثقافي على الخصوص، كما نقرأ ذلك في مؤلفات الشناقطة أنفسهم مثل محمد الأمين الشنقيطي في كتابه "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"، الذي أورد فيه تراجم لعدد من الطلبة والعلماء والشخصيات الشنقيطية البارزة في مختلف العلوم الإسلامية، شدوا الرحال إلى مدن شمال البلاد كفاس ومكناس ومراكش والرباط، خلال التاريخ الحديث والمعاصر⁽¹²⁾، إما من أجل الدراسة بجامعة القرويين أو قصد زيارة أضرحة الأولياء والتبرك بهم، أو من أجل استكمال المعرفة والبحث عن أمهات الكتب، أو ضمن ركب الحجيج الذي كان يمر بمراكش وسجلماسة⁽¹³⁾، قبل اختراق الصحراء شرقا في اتجاه مصر، بل منهم من كان يشد الرحال إلى الحج عبر طنجة⁽¹⁴⁾، أو بنية الالتقاء بملوك البلاد وأمرأ الأسرة الحاكمة لإطلاعهم على قصيدة مدحية، نظمها بعضهم إشادة بأبجادهم، وتنوينا بمواقفهم السياسية⁽¹⁵⁾. واعتارفا بفضلهم معربين بذلك، في نفس الوقت عن تشبث الشناقطة برموز وحدة البلاد وبمغربيتهن، كما نجد مؤلف كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"⁽¹⁶⁾ نفسه يعتز بمغربيته، ويقدم من الأدلة في كتابه ما يفحم الخصوم، ويجعلهم يقتنعون بمغربية بلاد شنقيط. من الكتب الأخرى التي تحدثت بإسهاب عن التواصل الديني والثقافي والسياسي بين شمال المغرب وجنوبه الصحراوي حتى نهر السينغال، وتعرض أصحابها لذكر أسماء

12 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، 1958، ص: 1 وما بعدها، وكذا ص 30 وما يليها على سبيل المثال فقط.

13 - محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، م.س، ص: 39.

14 - الوثيقة رقم 15 بتاريخ شهر شتنبر 1845، الخزنة الحسنية، الرباط.

15 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، م.س، ص: 1-2.

16 - نفسه، ص: 422 وما يليها.

الأشخاص الذين تنقلوا في هذا الاتجاه أو ذلك، أو لتقديم نماذج من الرسائل التي تبودلت بين الشخصيات من الإقليمين، خصوصا في الفترة التي يتناولها البحث، كتاب "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور"⁽¹⁷⁾ وكتاب "بلاد شنقيط" للخليل النحوي⁽¹⁸⁾ وضالة الأديب "لسيدي عبد الله بن سيدي محمد الصغير بن أنبوجة التيشيتي"⁽¹⁹⁾ و"روض شمائل أهل الحقيقة" لابن حم⁽²⁰⁾.

إن المطلع على ما ورد في هذه الكتب وغيرها، من أخبار، علاوة على ما تقدمه الوثائق المخزنية من مراسلات بين السلطة المركزية والأقاليم الصحراوية، وظهائر التعيين والرضى والتوقيع والاحترام لمختلف الشخصيات الفاعلة من المنطقة، كما سيأتي لا يبقى لديه أي شك في أن الوحدة المغربية من البوغاز إلى نهر السنغال، شكلت حقيقة لا غبار عليها لمدة تناهز الثمانية قرون، وخلال القرن 19، كان أثر هذه الوحدة لازال موجودا، لكن مع مطلع القرن العشرين ضرب المستعمر ضربته فجرد المغرب من صحرائه وعمل بذلك على اغتيال التاريخ، وهو اغتيال للإنسانية ولحقوق الإنسان ما بعده اغتيال.

II - أدلة الولاء والبيعة لإمارة المؤمنين في الصحراء المغربية والسودان الغربي من خلال المصادر المغربية والوثائق المخزنية:

أدلة مغربية كثيرة ومتنوعة، منها ما هو جغرافي ومنها ما هو ثقافي وروحي، ومنها ما هو سياسي وبشري، وسأقدم من هذه الأدلة والحجج ما تزخر به كتبنا التاريخية المغربية، علاوة على الوثائق المخزنية، لما تجسده من مصداقية على حقوقنا التاريخية في هذا الجزء الغالي من بلادنا.

1 - أدلة من المصادر المغربية:

من المعلوم أن الدولة المرابطية شعت أنوارها الأولى من الصحراء، حيث غيرت هذه الدولة مجرى تاريخ الشمال الإفريقي وغرب أوربا، ويمكن أن نسمي هذه الدولة بأنها دولة صحراء، ثم

17 - محمد البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981.

18 - الخليل النحوي، م.س

19 - سيدي عبد الله بن سيدي محمد الصغير بن أنبوجة التيشيتي، ضالة الأديب، تحقيق ودراسة أحمد ولد الحسن، منشورات المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم، إيسيسكو ISESCO 1996.

20 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي (المعروف بابن حم)، روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر الطريقة، مخطوط (بخزانة الباحث).

دولة الأشراف السعديين الذي جيء بجدهم زيدان حفيد فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، برغبة من أهالي درعة استنداراً لبركته، كما التمسست سجلها لاسم البركة والخير من جد الدولة العلوية.

ومعلوم أن المربين كانت بدايتهم قبائل تنتجع الصحراء، حيث يتعلمون الفروسية والصيد في أوقات الشتاء حتى إذا اشتد القيظ هرعوا إلى كرسيف على ضفاف ملوية، ومن هناك أمكنهم الإطلاع على داخلية المغرب، إذ بدأوا يشنون غاراتهم إلى أن نشأت دولتهم، فكانت بداوتهم الصحراوية عوناً لهم على ركوب المهالك واقتحام الصعاب وتجشم الأهوال⁽²¹⁾.

وإذا أردنا أن نجمل هذه المعطيات في بعض الجمل، يمكن أن نقول بدون تردد أن الغالبية العظمى من الأسر الإسلامية التي حكمت المغرب، إن لم تكن كلها انبثقت وانطلقت من الصحراء، وتقوت بفضل تجارة القوافل الصحراوية التي شكلت عبر التاريخ صلة وصل بشري وثقافي وسياسي وروحي بين شمال المغرب وعمقه الصحراوي إلى ما وراء نهر السنغال والنيجر. وإذا كان الكل يشهد للمغرب بالإسهام الكبير الذي قدمه لدخول وانتشار الإسلام في عمق القارة الإفريقية، فبأي حق يراد له أن يكون دولة بدون صحراء؟

إن الانتماء الصحراوي للمغرب، كدولة شعبا وأرضا، يتضح بجلاء منذ قيام الدولة السعدية، باعتبار أن أول عمل قام به السلطان أحمد المنصور السعدي، بعد انتصاره في معركة وادي المخازن هو زيارة الصحراء لإخماد الفتن بها والعمل على استتباب الأمن ونشر الرخاء، وإعادة تعيين القواد والعمال على أقاليمها⁽²²⁾. ومما يدعم هذا الرأي الذي يقول بخضوع الصحراء حتى تخوم نهر السنغال للمغرب منذ العهد السعدي، ما ورد في كتاب "مناهل الصفا" من أخبار تفيد أن السلطان أحمد المنصور السعدي عندما كان يعد العدة لفتح بلاد السودان خلال العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر، احتاج لخدمات القبائل الصحراوية من السوس الأقصى حتى بلاد شنقيط والتخوم السنغالية، لضمان طاعة أكبر عدد ممكن من هذه القبائل، فأمر بإرسال "محلات" وحملات تأديبية ضد القبائل الصحراوية النائية القريبة من نهر السنغال، وهي الحملات التي كان من نتائجها الحصول على بيعة بعض ملوك أطراف السودان المتاخمة للصحراء المغربية. وفي هذا الموضوع يقول صاحب "مناهل الصفا": "لما تم لمولانا الإمام الخليفة المنصور بالله⁽²³⁾، أمير المؤمنين ما أراد من فتح

21 - وزارة الدولة في الإعلام، الصحراء المغربية، نشر وزارة الدولة في الإعلام، مطبعة الأنباء (د.ت)، ص: 202-203.

22 - "أحمد مفدي"، المدرسة المعينية وأثرها في الصحراء الكبرى، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص 5، سنة 1989، ص: 169.

23 - المقصود هنا هو "أحمد المنصور السعدي".

إقليم توات وتيكورارين والاستيلاء على صقعها الطويل المديد، امتدت عينه إلى فتح ما رواءه، من بلاد السودان، وكان الذي جاوره من ملوكها وتاخم بجهة الجنوب ممالك سكية صاحب "كاغو" وما إليها، وبجهة الجوف مما يلي ساحل البحر المحيط ملوك جلفو وفلان فأجمع أيده الله أمره على إغراك الجميع بالعساكر وتجهيز الحركة إلى الجهتين من الغرب" (24).

لقد كانت نتيجة الحملات العسكرية التي نفذت بعد هذه الاستعدادات إيجابية جدا وحقت الأهداف المسطرة لها، كما يفهم من نفس المصدر: "... وارتحلت العساكر من بعد ذلك وسارت تحت راية أمير المؤمنين تخترق ممالك السودان حتى انتهت لخليج النيل" (25) المنبعث من قاصية السودان، وكرعت خيل المنصور في مائه وخفقت رايتها على شطه، وكان في ذلك الفخر الطائر الذكر مع الأيام لمولانا أمير المؤمنين أيده الله، وقفلت العساكر إلى المغرب ظافرة ظاهرة وكان الذي استجاب لهم ودان بالطاعة والانقياد من عرب الفلاة فقط وأممهم الذين ينتجون الكلاً في مجالات الفقر الممتد من ثغور المغرب القبلية إلى ممالك السودان بالجنوب، نيفا وأربعين ألف خيمة كلها من أهل الوبر والكراع المربي على النمل كثرة والجراد انتشارا... (26).

نظرا لهذا الإنجاز الناجح الذي مكن من تأمين الطرق الصحراوية المؤدية إلى السودان الغربي، وخصوصا إلى نهر النيجر، وعلى الأخص إلى دولة سنغاي التي تحكمها أسرة الأسكيا، فإن السلطان أحمد المنصور أصبح قاب قوسين أو أدنى من إعلان الحرب على السنغاليين، كما يعبر عبد العزيز الفشتالي عن ذلك بقوله: "... وهو الآن أيده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين" واقف على قدم الأهبة والاستعداد لذلك (28) توصلا بما ينشأ عن ذلك من اتساع نطاق الملك وامتداد جناح السلطان... (29).

24 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط 1972، ص: 78-79.

25 - المقصود هنا نهر السنغال، لأن الجيش المغربي لم يصل في هذه الجولة من المعارك لجس النبض حتى نهر النيجر الموغل في بلاد السودان الغربي.

26 - عبد العزيز الفشتالي، م.س، ص: 80.

27 - المقصود هنا عام 997 هـ، مع العلم أن فتح مملكة سنغاي بشكل نهائي تم يوم الثلاثاء 16 جمادى الأولى عام 995 هـ الموافق 12 مارس 1891.

انظر: عبد العزيز الفشتالي، م.س، ص: 139، هامش 1.

28 - يقصد الحركة إلى مملكة سنغاي وفتحها.

29 - عبد العزيز الفشتالي، م.س، ص: 81.

وبغض النظر عن فتح أحمد المنصور السعدي للسودان المتجسد في مملكة سنغاي، والذي سارت بأخباره الركبان، فإن الاهتمام السعدي بالمجال الصحراوي الكبير شرقا وجنوبا، مدون في أكثر من مصدر تاريخي مغربي، ونكتفي بالتمثيل لذلك بكتاب "نزهة الحادي" للأفرائي، وكتاب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"⁽³⁰⁾، علاوة على كتاب "مناهل الصفا" الذي يعتبر أصلا ومصدرا لكل ما ورد في النزهة والاستقصا، على ما يبدو.

وإذا كانت المصادر المغربية تثبت بشكل واضح انتماء المجال الصحراوي حتى نهر السنغال للمملكة المغربية في العصر السعدي، وارتباط ساكنته برابطة البيعة للموكة، فإن شهادات هذا الانتماء تزداد تعددا ووضوحا في العصر العلوي، وبخصوص هذا الموضوع تفيدنا بعض المصادر أن السلطان المولى إسماعيل، وبعد سبع سنوات من حكمه، نهض بحملته التأديبية إلى سجلهامة ثم توجه إلى سواحل سوس وانحدر إلى جنوب درعة، فأضاف تلك النواحي إلى إيالته وصاهر كبار رجالاتها. وحول هذا الموضوع يقول أحمد بن خالد الناصري: "... ولما دخلت سنة تسع وثمانين وألف (1089/1678)، فيها غزا السلطان المولى إسماعيل صحراء سوس، فبلغ أقا وطاقا وتيشيت وشنكيط وتخوم السودان، فقدمت عليه وفود العرب هناك من أهل الساحل والقبلة من دليم وبربوش والمغافرة وذوي مطاوع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدوا طاعتهم، وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغفري والد الحرة خنانة أم السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل، فأهدى الشيخ المذكور إلى السلطان ابنته خنانة المذكورة، وكانت ذات جمال وفقه وأدب..."⁽³¹⁾.

ووعيا من السلطان المولى إسماعيل بأهمية الصحراء من الناحية السياسية والاقتصادية والإستراتيجية ودورها البالغ في الحفاظ على عمق المغرب الإفريقي، فقد كلف ابنه المولى المامون خليفته في سجلهامة بإدارة الأقاليم الصحراوية حتى نهر السنغال على أن يعين من قبله موظفين لضبط شؤونها، كما أن المولى إسماعيل زار بنفسه هذه الأقاليم⁽³²⁾، وحتى لا يتهاون الأمير المولى المامون في تدبير أمور الأقاليم الصحراوية أو ينشغل عنها بأمور أخرى، فقد أرسل إليه أبوه مجموعة من الرسائل تذكره بالمهمة الملقة على عاتقه، وبخطورة وحساسية هذا الجزء الغالي من الوطن، وقد أورد محمد الغربي مجموعة منها في كتابه⁽³³⁾. وهي رسائل توجيهية، يتخللها قدر غير قليل من اللوم والوعد والوعيد، حتى يكون المخاطب في مستوى المسؤولية التي أنيطت به.

30 - الجزء الخامس على الخصوص.

31 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1956، ج7، ص: 57-58.

32 - محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، الدار البيضاء، د.ت، الجزء 1، ص: 216.

33 - نفسه.

ومن الشخصيات العلمية الصحراوية البارزة التي دافعت عن مغربية الصحراء يمكن ذكر أحمد بن الأمين الشنقيطي صاحب كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط" المتوفى سنة 1913⁽³⁴⁾، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

فقد قدم في كتابه هذا أدلة متنوعة وقوية على مغربية شنقيط، فقال: "شنقيط من المغرب على ما كنا نعهد، وذلك معروف عند أهل شنقيط وأهل المغرب، وقد أنكر ذلك بعض المشاركة، وادعى أنها من السودان، وذلك أن بعض الشناقطة، كان مقيما بالمدينة، يأخذ من وقف المغاربة العمومي، فتعصب عليه الجزائريون خاصة، وقالوا: إن الشناقطة ليسوا من المغاربة، فمنعوه من أخذ حصته، فلما قدمت إلى المدينة المنورة، سنة سبع عشرة وثلاثمائة وألف (1317هـ)، واجتمعت به، أخبرني بما جرى له، فقلت له: إن سيدي العربي بن السائح، نص في كتابه "البغية" على أنهم أقصى المغرب"⁽³⁵⁾.

كما أن النخبة الأزهرية يضيف نفس المصدر، نصت على أن شنقيط من المغرب، عندما ذكرت أن الأدرار تسكنها قبائل الأزواد وهم مغاربة مسلمون، ومن مدنها شنقيط وتشيت وولاته⁽³⁶⁾.

والواقع أن الكثير من معلومات وإفادات كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"، تؤكد مغربية الصحراء وتشبث سكانها بأهداب عرش الملوك المغاربة، فهذا عبد الله بن محمد بن الطالب، على سبيل المثال، من قبيلة إدّ وعلي، بعد أن نشأ وترعرع وصار عالما ببلاد شنقيط، تآقت نفسه إلى الأعتاب السلطانية، فاتصل بأمر المؤمنين مولاي إسماعيل الذي أحاطه بعناية خاصة، كما تعرف على ابنه الأمير محمد العالم الذي صارت له معه صداقة خاصة، وهكذا كلما زار عبد الله بن محمد بن الطالب مكناسة وعاد إلى بلاده شنقيط، فكر في العودة إلى الحاضرة السلطانية ثانية، فتعددت بذلك زيارته لمكناس، وفي إحدى هذه الزيارات التي صحبه فيها صديق له يدعى "أعل شندورة"، قصد التوسط له في قضاء غرض لدى السلطان، أكرمهما هذا الأخير، بل نجد الأمير سيدي محمد العالم يرحب بهما قائلا:

مكناسة الزيتون فخرا أصبحت تزهو وترفل في ملاء أخضر
فرحا بعبد الله نجل محمد قاضي القضاة ومن دؤابه مغفر⁽³⁷⁾

34 - محمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصر 1985، ص: 10.

35 - نفسه، ص: 422-423.

36 - نفسه، ص: 423.

37 - نفسه، ص: 2.

كما أورد نفس المصدر خبر اتصال العالم لمجيدري بن حبيب الله بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي أكرمه⁽³⁸⁾، وخبر استقبال السلطان المولى عبد الرحمان بن هاشم لعالم آخر من علماء شنقيط وشعرائها، محمد بن سيدي محمد الذي أنشد السلطان قصيدتين، فأكرمه هو ومن معه، وأمده بكل ما يعينه على أداء فريضة الحج، كما سأله قبل ذلك عن رعيته ببلاد شنقيط، لأنه كما يقول المؤلف، كان شديد الاهتمام بأقصى المسلمين من أهل مملكته حتى أنه يعلم أهل الخير من كبار أهلها وأهل الشر⁽³⁹⁾.

ولم يفت الفقيه أحمد بن الأمين الشنقيطي أن يضمن كتابه تردد الشيخ ماء العينين على شمال البلاد وولاءه للسلطين العلويين⁽⁴⁰⁾. ونفس الأهمية أولاهها لأخبار الطريقة التجانية⁽⁴¹⁾ بالصحراء عموما وبلاد شنقيط خصوصا، وما رافق انتشار تعاليمها هناك من صلات روحية وثقافية، ساهمت في تنقل أعداد كبيرة من البشر من الصحراء وإليها في الاتجاهين بين شمال المغرب وأقصى عمقه الصحراوي، ومن الكتاب والدارسين الآخرين الذين ضمنوا كتبهم ما يؤكد مغربية الصحراء، الخليل النحوي⁽⁴²⁾، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ومحمد الأمين الذي ألف كتابا تحت عنوان "الجأش الربيط في نضال مغربية شنقيط" علاوة على كتابه السابق الذكر، ولو تتبعنا كل ما كتب وألف عن مغربية الصحراء من قبل المؤلفين المغاربة على مختلف عصورهم لاحتجنا إلى مجلدات.

2- أدلة من الوثائق المخزنية:

هذه الأدلة يشتمل كتاب السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية⁴³ على عدد مهم منها، ولذلك سنعتمد على هذا الكتاب بالدرجة الأولى في توثيق هذا المحور، بالإضافة إلى مصادر أخرى.

أ- وثائق مخزنية من خلال كتاب محمد بن عزوز حكيم: "السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية".

يضم هذا الكتاب حوالي 309 صفحة في جزئه الأول، وقد قسمه مؤلفه إلى مقدمة وسبعة فصول، وذيله بثلاثة فهارس، واحد للمصادر والمراجع، وثان للأعلام البشرية وثالث للأعلام الجغرافية.

38 - نفسه، ص: 214-215.

39 - نفسه، ص: 47 إلى ص55.

40 - نفسه، ص: 81-365-439.

41 - نفسه، ص: 69-89.

42 - في كتابه، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987.

43 - محمد ابن عزوز حكيم، السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية، الدار البيضاء 1981، الجزء الأول.

خصص الفصل الأول لتحليل الوثائق، وأورد الوثائق المخزنية موزعة على الفصول الستة الباقية وهي كالآتي:

الفصل الثاني: وثائق عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هاشم.

الفصل الثالث: وثائق عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان.

الفصل الرابع: وثائق عهد السلطان مولاي الحسن الأول.

الفصل الخامس: وثائق عهد السلطان مولاي عبد العزيز.

الفصل السادس: وثائق الفترة الانتقالية فيما بين عهدي السلطان مولاي عبد العزيز والسلطان مولاي عبد الحفيظ.

الفصل السابع: عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ.

بما أنه من الطبيعي أن لا يسع المجال هنا لتقديم مضمون كل وثيقة من هذه الوثائق على امتداد جميع فصول الكتاب، فإننا سنعمل على إعطاء فكرة عنها فقط، للقارئ بالنسبة لمجموعة كل فصل، ومن أراد الاطلاع بشكل مفصل ومدقق على كل وثيقة يُمكنه الرجوع إلى تأليف محمد بن عزوز حكيم، المشار إليه.

ب- لمحة عن مضامين بعض الوثائق في عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هاشم (1822-1859م):

يضم هذا الكتاب سبعة عشر وثيقة لها علاقة بعهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هاشم، وهي عبارة عن رسائل إما صادرة عن السلطان أو ابنه إلى عماله ونوابه بالأقاليم الصحراوية، وإما بعث بها هؤلاء العمال أنفسهم إلى نفس السلطان أو إلى بعض وزرائه كالآتي:

- رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان إلى القائد مبارك والد عبيد الله أسالم التكني بتاريخ 2 فبراير 1844⁽⁴⁴⁾. وهذه الرسالة محررة بالإسبانية، يقول محمد بن عزوز حكيم بشأنها، إنه لم يجدها إلا في ترجمتها الإسبانية، وهي بمثابة أقدم ظهير يعين بموجبه حاكم من قبل السلطان على منطقة وادي نون، التي كانت تمتد من ناحية ماسة إلى الرأس الأبيض⁽⁴⁵⁾.

44 - محمد بن عزوز حكيم، م.س، ص: 53.

45 - نفسه، ص: 27.

- رسالة من الوزير محمد بن إدريس العمراني إلى النائب السلطاني في الشؤون الخارجية بوسلهام بن علي أزطوط بتاريخ 16 يونيو 1845⁽⁴⁶⁾. هذه الرسالة المنشورة أيضا بالجزء الثاني من مجلة الوثائق⁽⁴⁷⁾، تدل دلالة قاطعة على مراقبة المغرب لشواطئه الصحراوية واستعداده لإنزال العقاب على كل من سولت له نفسه انتهاك حرمة البلاد سواء كان مغربيا أو أجنبيا.

- رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى نائبه في الشؤون الخارجية بوسلهام بن علي أزطوط وإلى الأمين الحاج الرزيني بتاريخ 6 شتنبر 1845⁽⁴⁸⁾.

وجه السلطان تعليماته من خلال هذه الرسالة إلى من يعينهم الأمر من اجل دفع كل المبالغ المالية لصالح سيدي أحمد الشيخ بن إبراهيم الشنجيطي وتلاميذه من اجل تيسير سفرهم إلى المشرق لأداء فريضة الحج.

- رسالة من القائد إبراهيم التكني إلى السلطان المولى عبد الرحمان بتاريخ 11 أكتوبر 1847⁽⁴⁹⁾.
يخبر إبراهيم التكني القائد بإحدى قبائل تكنة السلطان، بأنه توصل برسالته التي تخبره بوجوب "الحركة"، وبها عدد من الخيل والرماة، وأنه قام بتنفيذ ذلك على ساق الجد.

- رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى العامل محمد بن عبد الرحمان التلموذي بتاريخ 13 يوليوز 1859⁽⁵⁰⁾. يشكر السلطان في هذه الرسالة عامله بالصحراء، على كل ما قام به بخصوص الحرص على ضبط المنطقة وزجر البغاة من التجار، كما يشكره على حرصه الإتيان بالزرافة حية لحضرة السلطان العالية.

◆ نظرة عن مضامين بعض وثائق عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان (1859-1873هـ):

يضم هذا الكتاب أربعة عشرة وثيقة من هذا العصر، لها علاقة بالسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، كلها رسائل من هذا الأخير إلى عماله وقواده على الأقاليم الصحراوية، وفيها يلي نظرة موجزة على بعض هذه الرسائل:

46 - نفسه، ص: 54.

47 - الوثائق، مجموعة دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية، المطبعة الملكية، الرباط 1976، عدد 2، ص: 10-11.

48 - محمد بن عزوز حكيم، م.س، ص: 45-55.

49 - نفسه، ص: 60.

50 - نفسه، ص: 69.

- رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى العامل محمد بن عبد الرحمان التلموذي بتاريخ 1 يوليوز 1860⁽⁵¹⁾: وجه السلطان هذه الرسالة إلى عماله محمد بن عبد الرحمان التلموذي، يخبره فيها أنه ورد على حضرته العالية بالله مولاي علي نائبا في قدومه على البركة الأجل السيد المختار بن الأعمش الجنكي، فعامله، السلطان بما ينبغي وجدد له ظهوره.

- رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى الشيخ سيدي بن المختار بتاريخ 19 أكتوبر 1860⁽⁵²⁾: يخبر السلطان في هذه الرسالة مخاطبه شيخ قبائل شنقيط بأنه توصل ببيعته المباركة، وعلم ما هو عليه من المحبة لجناب السلطان ومواظبة الدعاء الصالح له.

- رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى العامل محمد بن عبد الرحمان التلموذي بتاريخ 22 يناير 1870⁽⁵³⁾: يخبر السلطان عامله هذا على الصحراء بأنه توصل برسالته وأطلعته من خلالها على خلافاة بعض القبائل، وعلى بعض الأمور التجارية.

ج- عهد السلطان مولاي الحسن الأول (1873-1894):

يشتمل الكتاب على خمسة وستين وثيقة، وهي عبارة عن رسائل وظهائر في معظمها موجهة من قبائل السلطان مولاي الحسن الأول إلى عماله بالصحراء المغربية، ويلاحظ أن هذا الفصل من الكتاب يضم أكبر قدر من الوثائق بالنظر لأهمية عصر هذا السلطان وطول مدة حكمه، ومعظم هذه الوثائق، رسائل وظهائر موجهة إلى عمال الحسن الأول على الأقاليم الصحراوية. وفيما يلي بعض النماذج منها:

- ظهير السلطان مولاي الحسن الأول، يسدل به أردية التوقير والاحترام على أصحاب المعيزات من مجاط بالساقية الحمراء بتاريخ 24 يونيو 1875⁽⁵⁴⁾.

- رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول إلى القائد الحبيب بن بيروك الوادوني بتاريخ 13 أبريل 1878⁽⁵⁵⁾: يخبر السلطان مخاطبه في هذه الرسالة، أنه توصل برسالته وعلم ما فيها، كما أخبره بوصول ولده ومن وجه معه، والذين نابوا عنه في المثول بحضرته.

51 - نفسه، ص: 73.

52 - نفسه، ص: 76.

53 - نفسه، ص: 85.

54 - نفسه، ص: 89.

55 - نفسه، ص: 95.

- ظهر السلطان مولاي الحسن الأول، يسدل فيه أردية التوقير والاحترام على الطالب إبراهيم بن مبارك الرزكي بتاريخ 1886/5/28⁽⁵⁶⁾.

- ظهر السلطان مولاي الحسن الأول يرتب فيه أجرة شهرية للشيخ ماء العينين بتاريخ 29 أبريل 1887⁽⁵⁷⁾.

د- عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1894-1908):

تسعة وسبعون وثيقة، هو عدد الرسائل والظواهر الموجهة من السلطان إلى عماله وخدامه بالأقاليم الصحراوية بالإضافة إلى بعض الرسائل المخزنية المختلفة الأخرى.

- ظهر السلطان مولاي عبد العزيز، يولي به حمادي الشباني عاملا بطرفاية بتاريخ 1895/4/30⁽⁵⁸⁾.

- رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى قواد أهل ماسة كافة بتاريخ 16 دجنبر 1899⁽⁵⁹⁾: ومضمون هذه الرسالة هو إخبارهم بتوجيه مركب السلطان السعيد الحربي المسمى بالبشير والذي صنع بإيطاليا، بأمر والده المولى الحسن الأول، وبناء على ذلك يطلب منهم إمداد هذا المركب بما يحتاج إليه وقت تطوفه بالساحل.

- ظهر السلطان مولاي عبد العزيز يكلف بمقتضاه القائد إبراهيم بن مبارك الشوكي التكني بحراسة الشاطئ الممتد من طرفاية إلى رأس بوجدور بتاريخ 20 أبريل 1901⁽⁶⁰⁾.

ه- الفترة الانتقالية بين عهد السلطان مولاي عبد العزيز وعهد السلطان مولاي عبد الحفيظ (1907-1908):

هذه الفترة الانتقالية كما سماها الأستاذ محمد بن عزوز حكيم، ونظرا لقصرها، تشتمل على ثمان وثائق فقط من بينها:

56 - نفسه، ص : 132.

57 - نفسه، ص : 138.

58 - نفسه، ص : 171.

59 - نفسه، ص : 187.

60 - نفسه، ص : 197.

- ظهر السلطان مولاي عبد الحفيظ، يولي بموجبه محمد الأمين قائدا على قبائل أيت احساين وأيت يكو من أولاد تدرارين، ويكوت والمويسات من أيت لحسن من قبائل تكنة بتاريخ 17 شتنبر 1907⁽⁶¹⁾.

- ظهر السلطان مولاي عبد العزيز بتعيين قائد جديد بطرفاية بتاريخ 1 يونيو 1908.

و- عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ (1908-1911):

يضم هذا الفصل سبعة وعشرين وثيقة، بعضها من السلطان إلى عماله بالأقاليم الصحراوية وبعضها من هؤلاء الأخيرين إلى السلطان بالإضافة إلى رسائل مخزنية أخرى، وهذه بعض النماذج منها:

- رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى قواد قبيلة أزركيين من تكنة بتاريخ 3 مارس 1909⁽⁶²⁾: ينبه السلطان في هذه الرسالة قواده على الأقاليم الصحراوية، بضرورة أخذ الحيطة والحذر من المراكب التجارية لبعض الأجناس التي يريد أصحابها البيع والشراء والتطلع على أحوال البلاد، ولذلك فالسلطان يأمرهم بأن يكونوا على بال من ذلك.

- ظهر السلطان مولاي عبد الحفيظ يولي بمقتضاه إبراهيم الخليل بن الحبيب بن بيروك الوادوني قائدا على قبائل أيت موسى وعلى ويكوت وأولاد إدريس والركيات وأولاد تدرارين بتاريخ 5 مايو 1909⁽⁶³⁾.

- رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى قواد تكنة وأولاد تدرارين وإزركيين والعروصيين وأولاد الدليم بتاريخ 18 غشت 1911⁽⁶⁴⁾.

يخبر السلطان مخاطبيه بأنه وصل إلى علمه الشريف ما حدث من تشويش أفكارهم بسبب وصول المركب الأجنبي لمياه أكادير، ولذلك فهو يوصيهم بضرورة التزام السكينة والسير على التزام الطمأنينة.

61 - نفسه، ص: 253.

62 - نفسه، ص: 266.

63 - نفسه، ص: 270.

64 - نفسه، ص: 291.

تلكم كانت نظرة موجزة على الوثائق التي تضمنها كتاب السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية لمؤلفه محمد بن عزوز حكيم، التي تؤكد مغربية الصحراء، ومن أراد الإطلاع على كل الوثائق الموزعة على فصول الكتاب فيمكن الرجوع إلى الكتاب نفسه.

2- وثائق مخزنية من كتب أخرى:

ومن الكتب الأخرى التي تضمنت وثائق مخزنية تثبت مغربية الصحراء يمكن ذكر:

- الساقية الحمراء ووادي الذهب⁽⁶⁵⁾.

- الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني⁽⁶⁶⁾.

- الماضي والحاضر المغربيان للصحراء⁽⁶⁷⁾.

أ- بعض الوثائق من كتاب الساقية الحمراء ووادي الذهب:

يشتمل هذا الكتاب على حوالي عشر وثائق تثبت كلها متانة الروابط بين السلطة المركزية وأقاليم البلاد الصحراوية، وهذه بعض منها:

1- رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان للشيخ الحبيب بن بيروك يأمره بتوجيه أسير إسباني، قبض عليه الصحراويون، إلى تارودانت أو إلى الصويرة، ويلح عليه بوجوب احترام السفن التي تتحطم على سواحل الصحراء، وتوجيه ما يوجد بها إلى سلطات المخزن بالعاصمة وذلك بتاريخ 20 حجة الحرام 1289⁽⁶⁸⁾.

2- رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى القائد بن مبارك الشتوكي التكني، يخبره بأنه أسند إلى محمد بن البلال البوسعيدي، النظر في السواحل الممتدة من طرفاية إلى رأس بوجدور، وأن يكون منها على بال، بتاريخ فاتح محرم 1316⁽⁶⁹⁾.

65 - مؤلفه أحمد الغربي، م.س.

66 - مؤلفه شبيها حمداتي ماء العينين، مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، الرباط 1995.

67 - مؤلفه محمد بوغداد، م.س.

68 - محمد الغربي، م.س، ص: 169.

69 - نفسه، ص: 323.

ب- بعض الوثائق من كتاب: الشيخ ماء العينين وجهاده العلمي والوطني.

يضم هذا الكتاب مجموعة من الرسائل والوثائق التي تثبت متانة العلاقات بين السلاطين العلويين ورعيّتهم بالصحراء، من علماء وشرفاء وأعيان. وفيما يلي بعض النماذج منها:

1- نص رحلة وفد وجهه السلطان مولاي عبد العزيز للشيخ ماء العينين بالسمارة، وذلك قصد مد المجاهدين بالبنادق ذات الطلقات السريعة والذخيرة والمؤن، وذلك بتاريخ 23 صفر 1905/1323⁽⁷⁰⁾.

2- رسالة الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد العزيز، يشعره باستعداد فرنسي للتحرك نحو أدرار بتاريخ فاتح محرم 1318⁽⁷¹⁾.

3- تقرير عن البعثة المغربية التي زارت الصحراء عام 1905/1323⁽⁷²⁾.

ج- وثيقة من كتاب "الماضي والحاضر المغربيان للصحراء":

هذا الكتاب يضم مجموعة كبيرة من الأدلة التاريخية المتنوعة، التي تؤكد مغربية الصحراء، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقد اخترت منه وثيقة واحدة للاستشهاد بها في هذا المحور، وتتعلق بعقد بيعة إبراهيم بن عبد الله بن يوسف الشتوكي من قبيلة إزركين، وجهه إلى ملك المغرب يوم 4 دجنبر 1923⁽⁷³⁾.

كانت هذه باختصار بعض الشهادات والأدلة التي تثبت مغربية الصحراء، وتشبث سكانها بمغربيّتهم وباستعدادهم الدائم للالتفاف حول ملوك الدولة العلوية، خصوصا، لإفشال كل المحاولات التي تريد النيل من وحدة المغرب واستقلاله.

III- نموذجان من بيعات شيوخ السودان الغربي:

كانت لشيوخ الطريقة القادرية المختارية الكتبية علاقات متينة مع ملوك الدولة العلوية، كما تشهد على ذلك عدة رسائل بين الطرفين، أعلن شيوخ السودان الغربي بتمبكتو من خلالها، بيعتهم للعرش العلوي، ونقدم فيما يلي نموذجين لذلك.

70 - شبيها حمداتي ماء العينين، م.س، ص: 123-124.

71 - نفسه، ص: 126.

72 - نفسه، ص: 133.

73 - Mohamed Boughdadi, Le passé et le présent marocains du Sahara, p. 352.

1 - بعض مضامين رسالة الشيخ المختار الصغير الكنتي إلى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام⁽⁷⁴⁾ (ت 1859)⁽⁷⁵⁾:

... إلى نخبة الأخيار وخلاصة الأحرار، سلسلة السادات الأبرار، وخاتمة القادات ذوي الأقدار، منبع الفضل والوجود، وفرع سبب أصل الوجود، من ثبت أصل شجرته وفرعها في السماء وطاب ثمرها ودنت قطفوها للاجتناء، فكان أعرقها عرقا، وأرحبها عذقا... أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الرحمن، ابن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا هشام...

... فهو - لعمرى - الأحرى الأحق، والأولى الأخلق، أن تخلص له المودة، وتوظف بنصره واستقامة أمره أئناء الليل وأطراف النهار - الدعوات المرجوة، وتبذل له النصائح وتهدي له التحايا المتتالية، وأن يفدى بالنفوس ونفائس الضنائن المخبيئات.

هذا: وقد قدم علينا من ناحيتكم الميمونة الفاضل الأديب الفائق الأريب، السلك الناسك، الصادق الذائق: سيدي أحمد بن عبد الرحمن في وفده المبارك غير خزايا ولا ندامى، فآثنوا عليك بما أنت لأهله، ونشروا من فضائلك ما طوى البين...

إلى أن يقول في ختام الرسالة: " ثم لتعلم - سيدي - أن هذا الوفد المبارك قد أبلغونا - من جملة ما أبلغونا عنك من الفضائل والمحامد - شدة تشوفك وتعطشك إلى تآليف الشيخين الوالد والجد، وقد قدمت - بين يدي نجوى كتابي إليك - شرح الشيخ الوالد المدعو بـ: "الروض الخصب على نفح الطيب، في الصلاة على النبي الحبيب" للشيخ الجد الكبير، هدية صغيرة الجرم، كثيرة العلم، قليلة العدد، كثيرة المدد، نافعة مفيدة...

... وإن تفضل سيدنا بأن يبعث إلينا شرح الكلاعي وشرح الإمام ابن حجر على البخاري بتمامه فقد أنعم وتمم، ومن منة هو لها أهل لا ينقضي شكرها، ولا ينفذ ذخرها، إذ لا يوجدان إلا عند مثلك، ولا يسمح بهما غيرك، وهو من باب إيصال الخير إلى الغير، المعدود من أفضل أعمال البر، وإن جعلتهما في يد حامل الكتاب إليك، فكأنهما جعلتهما في يدي.

وأوصيك - سيدنا - بتلامذتنا المنتسبين إلينا الكائنين تحت كنف ولايتك: خيرا وإحسانا، فالله يجازيك من خير خليفة وإمام، خير ما يجازي وليا عن رعيته.

74 - محمد المنوني، بيعات من الصحراء نعتز بها لملوك الدولة العلوية، ضمن ندوة "البيعة والخلافة في الإسلام"، م. س، ص: 533 وما بعدها.

75 - Groupe d'auteurs, Histoire du Maroc, Casablanca, 1967, p. 252.

والسلام على من بالحضرة الشريفة عموما، وخصوصا العلماء ورؤساء الأجناد، وأوصيهم بتقوى الله وطاعة أميرهم ونصحه وتذكيره، وإعانتته بالأنفس والأموال، والرغبة في الجهاد، وإخلاص النية فيه بقصد أن تكون كلمة الله هي العليا، والثقة بوعده الله عليه...

من مخطوطات الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 2114.

2- مقتطفات من رسالة الشيخ أحمد البكاي إلى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام⁽⁷⁶⁾:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله الذي أنزل الكتاب العجيب، ليبين الخطأ والصواب، وشرع الدين اللباب، ليفصل الثواب والعقاب، فهدى بكتابه من وفقه فأمن واستجاب، وأضل عنه من خذل فصد عنه فخاس وخاب.

والصلاة والسلام على عبده سيدنا محمد النبي الأواب، خاتمة أنبيائه وفاتحة أوليائه الأقطاب، مجمع بحري العلم والسيف في بر الحكمة وفصل الخطاب.

وعلى صحبه وخلائفه خير الخلائف والأصحاب، وعلى آله وذريته أكرم آل أولي الألباب، وعلى خليفة عصرنا منهم في الصميم والصيابة: مولانا عبد الرحمن في الطاب من أعراقهم الطاب، في سنام الأحساب منهم وسما سناء الأنساب، بارك الله عليه وعلى بنيه وبنينهم مرور الأحقاب، وأكرمه وإياهم بزلقى عنده وحسن المآب.

وبعد: فالسلام السني، والإكرام الآني الهني: من عبد ربه المنتمي لحبه: أحمد البكاي بن محمد ابن المختار بن أحمد بن أبي بكر: إلى إخواننا أهل الغرب، الظاهرين بالحق من العرب، نعم - عموما - من ثم من الناس، ثم نخص خصوصا أهل فاس ومكناس، مع الأكابر من أهل مراکش الأكياس، بعد رؤساء عامة الأجناس.

هذا: وإني أحمد إليكم الله ربنا الذي لا إله إلا هو الذي أكرمنا بنبيه ذي الكرم، وفضلنا به على جميع الأمم، ثم وفقنا لاتباع سنته وخصنا بتباعدة عترته، فنحن بيعتهم في بيعته، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله جنى ثمرة غرسه، فقر به من حضرة قدسه، وأبعده من رهقه وبخسه، وسلم من تعسه ونحسه.

76 - محمد المنوني، بيعات من الصحراء نعتز بها لملوك الدولة العلوية، ضمن ندوة "البيعة والخلافة في الإسلام"، م. س.

ثم أوصيكم بتقواه، فمن اتقاه وقاه، فإن ترقى فيها رقاها، وبالروح والريحان تلقاه، ثم أعلمكم وأعلمكم، وأفهمكم وأفهمكم، وأذكركم وأذكركم، وأخبركم وأخبركم: أن الله - تعالى - منّ علينا - أهل المغرب عامة، وعليكم خاصة - بنعمتين، يجب علينا وعليكم شكرهما: أولاهما: أنه جعل بقاء الدين فينا، وبشرنا بذلك نبينا بقوله: لا يزال أهل المغرب "وفي رواية" أهل الغرب إلى آخر الحديث المشهور الصحيح.

تلك كانت نظرة إجمالية عن الولاء والبيعة في الصحراء المغربية، سقناها مشفوعة بما يشهد لها من المصادر التاريخية، والوثائق الرسمية، التي انعقدت بموجبه بيعات صحراوية من كافة القبائل الجنوبية، عبر مراحل تاريخية أسفرت عن روابط شرعية بينها وبين الدولة العلوية الشريفة.

خصوصية الملكية المغربية

ذ. الحسن سكنفل

تحتفل كل الأمم والشعوب بأعيادها الوطنية استعراضاً لذكريات مضت ولملاحم تمت ولأفراح حلت. تذكيراً بالذي مضى واستعداداً لما هو آت بنفس عزم الأولين وتطلع الحاضرين.. يأتي الاحتفال بالذكرى، وللتذكر والاعتبار والوفاء للأسلاف.

وعيد العرش هو ما يميز تاريخ بلدنا المعاصر لأنه مناسبة لتجديد البيعة والولاء هذه الذكرى لولي أمرنا. ونحن إذ نحيي ذكرى تولى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين سبط النبي الكريم سليل الدوحة العلوية الشريفة صاحب الجلالة الملك سيدي محمد السادس نصره الله للحكم إنما نؤكد على تمسكنا بنظام حكمنا المتميز ببلدنا وتاريخ بلدنا، ونؤكد في الوقت نفسه على استقلالنا في اختيار نظام حكمنا كما اختاره الأسلاف وتوافق عليه أهل الحل والعقد من العلماء الربانيين ورجال الدولة المخلصين والقادة السياسيين الغيورين.

إن الحديث عن نظام الحكم في المغرب حديث يستلزم من المتحدث استحضار ركائز بدونها يصبح كلامه مجانباً للصواب موغلاً في الضلال.

أولى هذه الركائز التي يجب استحضارها : أن ملك المغرب وارث لمجد تليد وملك عظيم بناه رجال أفذاذ وملوك عظام صدقوا ما عاهدوا الله عليه - نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدا - من المولى إدريس الأول مؤسس أول دولة إسلامية سنية مستقلة في المغرب والمولى إدريس الثاني باني مدينة فاس، ويوسف بن تاشفين باني مدينة مراكش بطل معركة الزلاقة، ويعقوب المنصور الموحي بطل معركة الأرك وباني مدينة الرباط، وأبي يوسف يعقوب المنصور وأبي الحسن وأبي عنان من المرينيين، وعبد الملك السعدي، والمنصور الذهبي بطل معركة وادي المخازن، والمولى الرشيد والمولى إسماعيل باني مدينة مكناس، وسيدي محمد بن عبد الله باني مدينة الصويرة، ومولانا محمد الخامس طيب الله ثراه بطل التحرير والاستقلال إلى مولانا الحسن الثاني برّدد الله مضجعه (موحد البلاد)؛

فملك المغرب اليوم وهو سيدي محمد السادس نصره الله وارث لمجد تليد وملك أصيل له جذوره التاريخية والجغرافية في جل أراضي البلاد المغربية.

ثاني هذه الركائز : أن مُلك المغرب بعد دخول الإسلام ومنذ 14 قرنا توارثته في غالب الأحوال أسرة من سلالة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فملك البلاد اليوم هو سبط النبي الكريم بدون شك فجده الأعلى هو الحسن الداخل الذي جاء به وفد حجاج الريصاني بالجنوب الشرقي المغربي من ينبع النخيل قرب المدينة المنورة وهو سليل الأشراف الحسينيين كما كان المولى إدريس مؤسس دولة الأدارسة سليل الأشراف الحسينيين أيضا، فهو رضي الله عنه وأرضاه إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهذه مزية يختص بها نظام حكمنا بين سائر الدول الإسلامية، وفي هذه الخصيصة حرص من المغاربة على الالتزام بما جاء في الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان".

وهنا خصيصة أخرى للمغاربة وهي أنهم يجمعون بين حبهم لآل البيت متمثلا في حرصهم على اختيار أولياء أمورهم من هذه العثرة الطيبة والسلالة الطاهرة وبين التزامهم بمذهب أهل السنة والجماعة عقيدة ومذهبا فقهيا.

ثالث هذه الركائز : أن نظام الحكم في المغرب قائم على عقد البيعة الشرعي الذي يلزم ولي الأمر (الملك) بالحكم بما أنزل الله والوقوف عند حدود الله والالتزام بمنهج الله، ويلزم الرعية بطاعته فيما لا معصية فيه الله.. والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها : ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾¹ وقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾².

انطلاقا من هذه الركائز الثلاث التي تحمل دلالات عظمية أهمها : الاستقلال والسيادة، فإن كل مغربي حر أبي يرفض أن يملّي عليه أحد كائنا من كان كيفية اختيار نظام حكمه.

الملك عندنا يسود ويحكم، الملك رمز السيادة، والحكم رمز للملك، فلا ملك بدون حكم.. ماذا نعني بالحكم ؟ إنه تنفيذ شرع الله على اعتبار أن السلطان ظل الله في أرضه كما جاء في الحديث

1 - سورة المائدة، الآية 49.

2 - سورة النساء، الآية 59.

الذي رواه أبو هريرة وابن عمر وأبو عبيدة عامر بن الجراح وأنس بن مالك وأبو بكر وعمر وأبو بكر.. إليه يأوي كل مظلوم من عباد الله، وهذا الحديث اعتمده ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية وفتاواه، كما اعتمده ابن رشد الجد القاضي. والمقصود بالظل في الحديث ليس الظل المادي بل هو معنوي كناية عن العدل والرحمة بالرعية.. وهذا المعنى له اتصال بإمارة المؤمنين.. فأمر المؤمنين منصب ولقب الإمارة منصب يناله الأمير بمقتضى البيعة الشرعية وهو لقب للحاكم المسلم إذا كان حكمه مؤسساً على البيعة. وهنا نرد على الذين يتكلمون عن إمارة المؤمنين بالمفهوم الحدائي الذي يريد إفراغ هذا اللقب من محتواه الأساسي وهو الحكم بما أنزل الله (فلا يحلل حراماً، ولا يحرم حلالاً).

إن إمارة المؤمنين مؤسسة شرعية تلزم أمير المؤمنين بتحمل المسؤولية كاملة غير منقوصة والقيام بواجب الإمامة العظمى.

أمير المؤمنين هو حارس الشريعة كما قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : "واعلم أن الشريعة أصل والمُلْك حارس وما لا أصل له فمهذوم وما لا حارس له فضائع"³.

إن مسؤوليات الإمام واختصاصاته التي لا يمكنه التخلي عنها ولا يمكن لأحد كائناً من كان أن يرغمه على ذلك : حفظ الدين، وتنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وتقدير العطايا واستكفاء الأمانة وتقليد النصحاء ومشاركة الأحوال وتصفح الأمور : هذه واجباته. وله حقوق عظيمة جليلة منها :

1 - طاعته فيما لا معصية فيه لله تعالى، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

2- احترامه وتقديره وتقديرًا محلّ الإجلال والتعظيم، فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو حامي حامي الملة والدين، وهو المنافع عن الوطن والمدافع عن المواطنين.. فلا يجوز شرعاً ولا عقلاً ولا خلقاً المساس بشخصه همزاً ولمزاً، وهذا لا يجوز في حق أي مسلم، فكيف بملك البلاد أمير المؤمنين وولي أمرهم ؟ ملك البلاد أمير المؤمنين فوق الرسوم الكاريكاتورية وإن كان هذا جائزاً عند الآخرين فتلك أخلاقهم وذاك دينهم، ونحن لنا ديننا وأخلاقنا.

ملكنا الذي بايعناه ملك يسود ويحكم ولا يتصور في مفهومنا للبيعة أن يسود الملك دون أن يحكم أو أن يحكم دون أن يسود مستندنا في ذلك هو قول الله تعالى لداود عليه السلام ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا

3 - الغزالي (أبو حامد) : إحياء علوم الدين - كتاب العلم - الباب الثاني.

جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ٤.

السيادة والحكم مترابطان متلازمان إذا انعدم أحدهما اندثر الآخر، وهذا ما جعل سيدنا محمداً الخامس طيب الله ثراه يضحي بملك لا يحكم فيه، وجاهد وشعبه حتى عاد الأمر إلى نصابه، وهو ما جعل المولى عبد الحفيظ رحمه الله تعالى يتخلى عن الملك لأخيه المولى يوسف بعد توقيع عقد الحماية لأنه يرفض أن يكون ملكاً بدون حكم. وهو ما جعل المولى يوسف رحمه الله تعالى يرفض توقيع الظهير البربري (الظهير الاستعماري) الذي كان يرمي إلى إحلال العرف محل الشريعة، فقد كان جوابه دائماً: "افعلوا ما تريدونه لكن افعلوه بأنفسكم" وهذا ما جعل مستشار الحكومة الشريفة يكتب إلى الكاتب العام للحماية بتاريخ 15 يونيو 1927/ رسالة تحت رقم 3888 جاء فيها: "لقد ظهر أنه ليس في الإمكان أن يدخل السلطان في هذا السبيل، وقد أعلنت لكم مرات عديدة موقف السلطان في هذه المسائل البربرية، فهو لا يريد بأي شكل من الأشكال أن يتدخل فيها، ولا أن يضع في قانون رسمي قراراً يهدم الشريعة ولا أن يعلن بصفة من الصفات تنازله عما له من الحقوق بصفته إماماً وحارساً للقانون الديني (حارس للشريعة بتعبير الإمام الغزالي)، وهذه عنده مسألة نفوذ أمام رعاياه ومسألة شعور ديني صادق هو متعلق به شديد التعلق".⁴

وما أنفس ما قاله المغفور له مولانا الحسن الثاني برّد الله مضجعه عن رابطة البيعة يقول رحمه الله تعالى: "إن روابط وأسس تعاملنا ليست بالأسس المصطنعة التي خلقها التاريخ صدفة، بل هي قبل كل شيء ترابط وتعامل مبنيان على أعز ما هو في أنفسنا وأقدم ما في أرواحنا وهو الإيمان بالله ورسوله والعمل بكتابه الحكيم"، وقال أيضاً بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري: "واقترضت حكمة الله البالغة أن يضع على عاتق خلفاء المسلمين وأمرائهم أمانة أخلاقية في الأرض، فجعل بذلك على رأس مهامهم مسؤولية الذود عن الشريعة والحفاظ على الدين، وحماية المجتمع من كل زيف أو ضلال مبین، وقد امتاز المغرب الإسلامي بتعاقب ملوك بررة جعلوا الحفاظ على الإسلام والدفاع عنه فيما وراء البحار ونشره فيما جاوره من الأقطار مهمتهم الأولى وتثبيت تعاليمه في النفوس غايتهم المثلى".

4 - سورة "ص"، الآية 26.

5 - د/ محمد خرويات: الأبعاد النقدية والإيديولوجية الفرنكوفونية بالمغرب.

مجلة البيان - العدد 177 (جمادى الأولى 1423 هـ/ الموافق يوليو/ غشت 2002 م ص 48.. نقلا عن كتاب: فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى) ص 155 عبارة عن تقارير مقدمة إلى المؤتمر الإسلامي العام.. من تجميع وطبع وتقديم: المرحوم الشيخ محمد المكي الناصري.

إن نظام حكمنا الذي اختاره أسلافنا واعتمدناه عند اختيار ولي أمرنا ليس نظاما تيوقراطيا دينيا متحجرا مؤسسا على نظرية الحق الإلهي، كما أنه لا يمكن أن يكون تقليدا لأنظمة أخرى. بل هو نظام مدني له أسس شرعية، ونظام متطور مساير للعصر وفق القواعد الدستورية التي تألفت عليها الأمة من خلال دستورها الذي هو القانون الأسمى للدولة، والذي يؤكد على التعددية السياسية المعبرة عن توجهات المجتمع.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين سيدنا محمد السادس نصره الله في استجواب له مع صحيفة الفيجارو بتاريخ 04 شتنبر 2001م، يقول حفظه الله تعالى في معرض جوابه عن سؤال حول التعريف السياسي الذي تعطونه للملكية لا تريد أن تكون لا مطلقة ولا برلمانية : "إنه مقارنة مع وجود الفارق، فعلى سبيل المثال دأب الكثيرون على مقارنة شخصي بشخص الملك خوان كارلوس، ومع أنني أحترم العاهل الإسباني وأعزه كثيرا فليس هناك وجه للشبه بين النظامين الملكيين الإسباني والمغربي، فالمغاربة لم يتشبهوا بهم إنهم يريدون ملكية قوية وديمقراطية وتنفيذية، فملكيتنا ملكية دستورية يحكمها قانون أساسي يعود إلى 1962م تم إعداده بتشاور وثيق مع التشكيلات السياسية التي كانت موجودة آنذاك. غير أن الملك عندنا لا يكتفي بأن يسود. إنني أمارس الحكم وأشتغل مع حكومتي في إطار دستوري واضح يحدد مسؤولية كل طرف ولا أجد أي لبس أو غضاضة في ما أقوله لكم، فمنذ 13 قرنا من وجود النظام الملكي بالمغرب ونحن سائرون على هذا النهج وهو النهج الذي يريده المغاربة".

إن الأيام قد أثبتت لكل متتبع حصيف أن النظام الملكي الدستوري هو أحسن الأنظمة وأقلها احتكارا للسلطة مقارنة ببلاد عربية وإسلامية خرجت من الاستعمار الغربي لتدخل في دوامة إرهاب الحزب الواحد..

ونحن حينما نحتفل بذكرى جلوس أمير المؤمنين سبط النبي الكريم سليل الدوحة العلوية الشريفة سيدي محمد السادس نصره الله على عرش أسلافه المنعمين فإننا بذلك نجدد له الولاء والبيعة عن اختيار ورضا وقناعة ويقين، ونحن معه ننصره وندعو له بعيداً عن التمجيد الزائف والمديح الأجوف الفارغ، ولاؤنا وولايتنا لله ولرسوله ثم لأمر المؤمنين الذي هو أهل لذلك بصفاته الخلقية والخلقية نصره ملكا سيداً سلطاناً حاكماً ظلاً لله في أرضه ينشر العدل ويحقق الأمن ويرد الحقوق ويقف ضد الطغاة نذوذ عنه بالنفس والنفيس وندعو له من القلب شهادة وغيا أن ينصره وينصر به ويهديه ويهدي به ويرزقه الحاشية الصالحة التي تعينه على قول الحق وفعل الخير ويجنبه

بطانة السوء وأن يحفظه في ولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير مولاي الحسن ويشد أزره بأخيه الرشيد المولى الرشيد ويجعل أمرهما رشدا لما فيه خير البلاد والعباد ويتغمد برحمته الواسعة فقيدي الأمة مولانا محمد الخامس ومولانا الحسن الثاني ويجزيهما عن بلدهما وعن أمتها وعن شعبها خير ما جازى به ملكاً عن بلده وأمته وشعبه إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه وهو نعم المولى ونعم النصير. والله الأمر من قبل ومن بعد، هو الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون..

إمارة المؤمنين والمذهب المالكي

ذ. الحسن إد سعيد

إمارة المؤمنين ضرورة شرعية

الحمد لله حق حمده، نحمده كما هو أهل لذلك، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، لقد اتفقت الشرائع السماوية والفطر السليمة على أن التجمع البشري لا بد له من إمام وقائد يسلس إليه قياده ويلقي إليه مقاليد الأمور، لأن الإنسان مدني بطبعه، يعيش في كنف التآلف والتآزر والتعاون، كما يقول ابن خلدون: "إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدني بالطبع" أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهذه إلى التماسه بفطرته، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله. إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه".

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أمير يسوسه ويجمع أمره وإلا عاش في الفوضى، فتنخرم المصالح وتنشعب المفاسد كما قال الشاعر:

لا يصلحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سِراةَ هُمْ ﷺ ولا سِراةَ إِذَا جُفَّاهُمْ سَادُوا

فتبين من ذلك أن أمر الناس لا يصلح بدون إمارة وهذا ما أكدته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكان الإجماع عليه من قبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد التحاقه بالرفيق الأعلى.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾²، وإنما أوجب الله تعالى طاعة أولي الأمر، لأن الأمة لا تنفك عن اتخاذ الإمام وتنصيبه أميراً عليها، كما لا تنفك عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فعلم بذلك أن الإمارة واجبة لإقامة دين الله في الأرض، وتمكينه فيه، وذلك لا يكون إلا بتنصيب الأمير من طرف أهل الحل والعقد والبيعة له على الطاعة في المنشط والمكره، والجهاد تحت رايته، وأن ذلك من الدين؛ حيث جاءت طاعته مقرونة بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله، ووقع الإجماع عليه كما قال الماوردي:

"الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقد لها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شدد عنهم الأصم، واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعونهم من التظلم ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولو لا الولاة لكانوا فوضى مهملين، وهمجاً مضاعين"³.

وبهذا ندرك أن إمارة المؤمنين ضرورة شرعية لإقامة الدين وحمايته، وسياسة الدنيا وحراستها، تقوم على أساس البيعة الشرعية من أهل الحل والعقد وعموم المسلمين حسب الوسائل التي تتم بها، المبنية على الطاعة في المنشط والمكره، والوفاء لها بالنصح وعدم شق عصا الطاعة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَن يَكْفُرْ لِي بِهِ جَزَاءً عَظِيمًا﴾⁴ وقوله صلى الله عليه وسلم:

"كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرُونَ. قالوا فما تأمرنا قال فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم"⁵. وفي الحديث دليل على أن المهمة وظيفة الأنبياء عليهم السلام، ورثها عنهم أولياء أمور المسلمين، وأن الوفاء بالبيعة واجب لهم. والأحاديث في الباب كثيرة.

2 - سورة النساء 59.

3 - الأحكام السلطانية 3/1.

4 - سورة الفتح 10.

5 - صحيح البخاري كتاب الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل (168/12).

ولهذا نجد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما التحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، بادروا إلى بيعته أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ وذلك حتى لا تمضي على المسلمين ليلة بدون بيعته ورثاسته.

إمارة المؤمنين وواقعية الإسلام

بما تقدم من بيان حقيقة الإمامة ورسالتها في الإسلام ندرك إدراكا تاما أن هذه الإمارة يجب أن تتسم بما اتسم به الإسلام نفسه، ألا وهو الواقعية، ونعني بالواقعية أموراً منها :

1 - أن تسوس الناس كما هم، فلا ننتظر أن يكون أهل الأرض كلهم مسلمين مؤمنين على إيمان أبي بكر وعمر لتقوم الإمارة، وإنما يساس الناس على اختلافهم وتفاوت درجاتهم، فيؤخذ بيد الضعيف ليلحق بالقوي ويبد الفقير ليلحق بالغني ويبد الجاهل ليلحق بالمتقف والعالم.

فليست الإمارة لطبقة من هؤلاء دون طبقة، أو لطائفة دون أخرى أو لأهل دين دون أهل أديان أخرى، المنضوية تحت رعاية الدولة الإسلامية.

فعن أبي برزة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في مغزى له فأفاء الله عليه فقال لأصحابه "هل تفقدون من أحد؟". قالوا نعم فلاناً وفلاناً وفلاناً. ثم قال "هل تفقدون من أحد؟". قالوا لا. قال "لكنني أفقد جليبيبا فاطلبوه". فطلب في القتلى فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فوقف عليه فقال "قتل سبعة ثم قتلوه هذا مني وأنا منه هذا مني وأنا منه". قال فوضعه على ساعديه ليس له إلا ساعدا النبي صلى الله عليه وسلم. قال فحفر له ووضع في قبره.

وجليبيب هذا صحابي جليل كان ذميم الخلقة ضعيفا متضعفا لا يملك من الدنيا شيئا، أحس النبي صلى الله عليه وسلم بفقدانه.

واستمد الصحابة هذا السلوك وهذه الرعاية لكل أفراد المجتمع المسلم مهما كانت هوياتهم وديانتهم، وراعوا في إيالاتهم وولاياتهم كل شاذة وفاذة حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "لو عثرت شاة على شاطئ الفرات لخفت أن يسألني الله عنها لم لم تمهد لها الطريق".

6 - صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل جليبيب. رقم الحديث : 4519.

وقال رضي الله عنه كذلك : "يا أيها الناس فُؤا بذمة محمد صلى الله عليه"⁷، يعني اليهود الذين عاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويذكر علماء السيرة أن من حكمة رعي الغنم بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم الحلم عليها والصبر على طيش شاردتها والرحمة بضعيفها.

2 - النظر في حال الناس ومآلهم وما يترتب عن سياستهم بالعزم أو بالعفو، فكثير من الأمور يحتاج إلى العزم ليستقيم، وكثير منها يحتاج إلى العفو ليستديم، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسير خلفائه الراشدين مليئة بالنماذج المتنوعة للحالين معا، فيحسم الأمر في لحظة بردم مهاوي الخلاف ورفعها، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية من قبول الصلح والعزم على التحلل من العمرة في الحديبية نفسها، وذلك منه صلى الله عليه وسلم لما يراه من شغوف الفتح في المستقبل، بينما الصحابة لا يودون الرجوع من عمرتهم تلك حتى يطوفوا بالبيت العتيق.

وكذلك فعل أبو بكر وعمر يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث بادروا إلى البيعة وعقدها قبل أن يستشري الخلاف في صفوف المهاجرين والأنصار ويصعب لُمُ ثنات الأمر عندئذ، ولذلك ورد عن بعضهم أن بيعة أبي بكر كانت فلتة أي أنه حسم فيها الأمر بسرعة لم يدعوا فيها مجالا للأخذ والرد، وذلك ما جعلها ناجحة أيما نجاح، كما قال عمر رضي الله عنه : "وإنما كانت فلتة ولكن الله وقى شرها، لا خلافة إلا عن مشورة"⁸.

أما من جهة العفو فقد كان المنافقون يودون رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه وعرضه وأهله، وعلم الصحابة بذلك فاستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في قتل من قال منهم ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "دُعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"⁹.

فهذا البعد الاستبصاري عند الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على سياسة حكيمة، وهي أن هؤلاء المنافقين المحسوسين عليه، وإن كانوا لا يؤمنون به حق الإيمان ينبغي أن يحسن معاملتهم، حتى

7 - السنن الكبرى للبيهقي - (201/9).

8 - مصنف ابن أبي شيبة 570/8.

9 - صحيح البخاري كتاب التفسير رقم الحديث : 4525.

لا يكونوا المادة الخام لأعداء الدولة الإسلامية، وليس هناك طريق أسهل على أعداء الدولة أي دولة من بعض أبنائها المتظلمين، فيتدخلون كالمقتصرين لهم، ويشوشون عليها من الداخل، وقد وجد ملك غسان فرصة ذهبية في عزل الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فكتب إلى كعب بن مالك يستلحقه بالشام.

قال كعب رضي الله عنه : "فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه :

أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء. فتممت بها التور فسجرت بها"¹⁰.

ووجه الاستشهاد بهذه القصة هو أن العدو يريد أن يخلخل المجتمع المسلم من الداخل، إذ لا شيء أشد عليهم من تلاحم المسلمين فيما بينهم وحبهم لقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومواقف الخلفاء الراشدين من أهل الذمة ورعاية حقوقهم وإعفائهم من الجزية عند الحاجة وغير ذلك من مواقف مضيئة في تاريخ الإسلام لا يزال المؤرخون من المسلمين والمنصفون من غيرهم يتناقلونها.

3 - مراعاة أحوال الناس في ثقافتهم وأعرافهم ولغاتهم وغير ذلك؛ فالإسلام لما جاء كان واقعياً بحيث لم يمح على وجه الأرض ثقافة ما، أو لغة ما، أو عرفاً لا يتناقض مع مبادئه وأسسِهِ، وإنما استوعبها فأعطاه صبغة إسلامية تعترف بتلك الثقافات واللغات والأعراف كجزء من صميم رسالته، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾¹¹.

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم عن الفرس والروم أموراً لم تكن تعرفها العرب، وأخذ عمر رضي الله عنه بعض قوانين الحكم كاتخاذ الدواوين وشبه ذلك من الفرس، وكذلك فعل بنو أمية من بعده، وضربوا النقود، ولم يقل أحد : هذا شيء لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم.

10 - صحيح البخاري حديث كعب بن مالك. رقم الحديث : 4066.

11 - سورة الروم 22.

ومن هنا اعتبر الأصوليون العرف والاستحسان والمصلحة المرسلّة من أصول الفقه الإسلامي، وبنوا عليها كثيرا من الأحكام.

وكان المذهب المالكي من أوسع المذاهب في هذا الباب، وسار عليه علماء المذهب، فأغنوا وأثروا فقه النوازل كما سنذكر إن شاء الله.

وإمارة المؤمنين في مغربنا الحبيب معنية بهذا الغنى والخصب الفقهي والمذهبي عبر تاريخها أيما عناية، وخصوصا في عهد الأشراف العلويين الذين جمع الله بهم الكلمة، وقوى بهم الأمة، وحمى به الملة.

فاستمدوا من قوانين غير المسلمين ما لا يتناقض مع الشرع، وإنما يثري الحياة وينظمها ويجعلها قابلة للاستمرار والعطاء وقابلة لحياة الرخاء والازدهار تحت أي ظرف أو مناخ. ولم توقع الأمة في حرج التضيق والتشديد، ولا حجرت واسعا مما جاءت به الشريعة من رعاية مصالح العباد في الدين والدنيا والآخرة.

إمارة المؤمنين والوسطية والاعتدال

نخلص مما تقدم إلى منهج الوسطية والاعتدال الذي هو منهج سليم في جميع مناحي حياة الناس، وأولى الناس اهتماما بهذا المنهج أمير المؤمنين ؛ ليحمل عليه الناس، ويرد بهم إلى جادته من ذات اليمين وذات الشمال، أسوة منه برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يرفض من الناس طرفي الغلو والجفاء والإفراط والتفريط وكان بين ذلك قواما، ويأمر عماله بالتسيير وعدم التعسير، والتبشير لا التنفير، والمطاوعة لا المخالفة.

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث مُعَاذًا وأبا مُوسَى إلى اليمن قال "يسرا ولا تُعسرا، وبشرا ولا تُنقرا، وتطاوعا ولا تُخْتَلِفَا"¹².

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى أحدا بالغ في التعبد لدرجة الإحراج يغلظ فيه مقالا، ويقول: "أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ اللَّهَ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"¹³.

12 - صحيح البخاري كتاب الجهاد رقم الحديث : 2811.

13 - البخاري. كتاب النكاح رقم الحديث 4675.

واستلهم الخلفاء الراشدون هذا المنهج من الرسول صلى الله عليه وسلم وساروا عليه ووقفوا عند حدوده، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان رجلاً قويا شديداً البأس على المشركين، هاجر الناس خفية، وهاجر هو علانية وناقش الرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ليقاتلوا حتى النهاية، وأشار بقتل أسرى بدر بلا استثناء.

فلما آل إليه الأمر، وأصبح أميراً للمؤمنين سار فيهم سيرة الإمام العادل مشفقاً عليهم، رحباً بهم، ساهراً على راحتهم، مراعيًا لظروفهم وأحوالهم، لم يقطع يد السارق في عام الرمادة لما كان عليه الناس من المجاعة وغير ذلك، مما يدل على أن ذلك العمر الشديد البأس أصبح عمر آخر بعد توليه إمارة المؤمنين.

وكذلك عمر بن عبد العزيز كان شديد النقد لأعماله في عدم حمل الناس على الجد في الشاذة والفادة، وهم يلاطفونه ويعلمون له مواقفهم لما رأوا فيه من العلم والنصح والأمانة.

فلما آل إليه الأمر اعتدل في مواقفه، وقبل من الناس ما تيسر، وترك ما تعسر، فعابه عليه ولده عبد الملك، وقد صار فتى يافعا عالما بعناية أبيه، قائلاً له يا أبتى إنه لم تخرج عما كنت تعيب عليه الخلفاء السابقين بني عمومك. فقال له ما معناه : "يا بني إن الناس لا يصلحهم إلا الرفق، فلو أردت أن تحملهم على الحق بالمرّة لتركوه بالمرّة.

فظهر بهذا أن ما كانت عليه إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية هو الحق في حملها رسالة الاعتدال والوسطية وحمل الناس على ما يطيقون مما يديم المسيرة، ولا يرهق السائرين.

وما تتمتع به كذلك من العطف والحنان على شعبها وما تشمله به من الصفح والعفو وعدم المؤاخذه، والأمثلة في هذا الباب كثيرة، وخصوصاً في عهد ملوك الدولة العلوية المنيقة، وبالأخص في عهد أمير المؤمنين سيدي ومولاي جلالة الملك محمد السادس، حفظه الله ونصره، وأعز أمره، الذي بذل كل ما في وسعه من أجل الوصول إلى مختلف فئات شعبه لمواساتها والاستماع إلى همومها وقضاء حاجاتها، إنه خلق عظيم موصول بخلق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول : "لكنني أفقد جليبيبا"¹⁴، وبخلق عمر رضي الله عنه الذي يقول : "لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أسأل عنها"¹⁵،

14 - سبق تخريجه.

15 - شعب الإيمان فصل في نصيحة الولاة ووعظهم. رقم الحديث : 7415. 31/6.

وبخلق أبيه الكريمين الملكين الراحلين جلالة الملك محمد الخامس وجلالة الملك الحسن الثاني، طيب الله ثراهما وأكرم مثواههما، الذين قادا سفينة المغرب بأمانة حتى أوصلوها إلى بر الأمان، في ظروف هبت فيها رياح هَوَجَاء غيرت مجرى التاريخ في كثير من البلدان، وقطعت صلة ماضيهم بحاضرهم، غير المملكة المغربية الحبيبة التي منّ الله تعالى عليها بهذين البطلين الكبارين، وحماها بهما، فاستفادا بحنكتهما من معطيات التاريخ الحديث بدون الذوبان والاضمحلال وبدون المساس بالأسس والمقومات الدينية والوطنية، فجزاها الله خير ما جزى به محسنا عن إحسانه، وحفظ بما حفظ به الذكر الحكيم ولي عهدهما وسر نصحهما سيدنا ومولانا جلالة الملك محمد السادس أدام الله عزه ونصره.

المذهب المالكي والأثر النبوي

مما لا نطيل به ولا نسود به الصفحات لكونه معروفا مشتهرا اشتهار الشمس في أفق السماء الحديث عن الإمام مالك، وأنه إمام الأئمة، وأنه إمام المدينة المنورة، حيث تنزل الوحي وتلقى الناس تعاليم الدين من معينها الصافي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهدوا هناك الوقائع والأحداث؛ وصاغوها بأحداثهم، كل هذا وغيره معروف ومتداول.

وإنما نلفت هنا الانتباه إلى أمر عظيم الشأن هو علاقة المذهب المالكي بالأثر النبوي المأثور عن الصحابة والتابعين وتلقاه الإمام مالك رحمه الله بأدب جم، وعلم عزيز، وفهم ثاقب.

ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عاش بعد الهجرة في المدينة المنورة، وتنزلت عليه فيها الشريعة، فحملها عنه الصحابة رضي الله عنهم قولا وعملا، وطبقوها بحضرة صلى الله عليه وسلم فوق عليها الإقرار.

ثم حملها عنهم التابعون في صورة عمل مأثور متكامل مشتهر اشتهارا له حكم المتواتر؛ لكونه منقولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحرا به ومنبره ومقيله ومثواه، نقلته ألوف عن ألوف مما لا يدع الشك في نسبته للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الصحابة رضي الله عنه، يعرفون هذا ويوصون به وكذلك التابعون، وجاء أتباع التابعين وعلى رأسهم الإمام مالك رحمه الله، فأخذوا هذا العلم المأثور كما أخذه سلفهم من الصحابة والتابعين

فاعتبروه إجماعاً خاصاً، لا يجوز لأحد خلافه وهو المسمى ب (عمل أهل المدينة)، الذي يعتبره الإمام مالك أصلاً من أصوله التي يعتمد عليها في تقرير الأحكام، ورد مجموعة من أخبار الآحاد التي تخالف عمل أهل المدينة البالغ في شهرته وانتشاره حد التواتر، ولكون تلك الأخبار عرضة للنسخ والتأويل وقضية عين، وغير ذلك مما ليس هذا محل تفصيله.

والذي يهمننا في موضوعنا في الإشارة إلى هذه النقطة هو كون المذهب المالكي مذهباً عملياً قابلاً للتنفيذ، ولا يتناقض بوجود نصين مختلفين أو تأويلين مختلفين، بل أسهم العمل المذكور في إزالة إشكال كثير من النصوص وزاوج بين بعضها في العمل بهما باعتبارين مختلفين، ولا يوجد هذا المزج بين النصوص المختلفة في مذهب غيره، والأمثلة كثيرة.

بينما نجد في المذاهب الأخرى قطيعة مع بعض النصوص انتصاراً منها لنصوص أخرى، وردا لكثير من السنن المنقولة عملياً لكون هذه المذاهب نشأت بنقل النصوص وتركيب بعضها إلى بعض في صياغة المذهب، مغيبة العمل المنقول بالتواتر القريب العهد من صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، ففتج عن ذلك تعارض بعض النصوص.

فلجأوا إلى الترجيح، فتم التخلص من كثير من النصوص التي لو نظرنا العمل كيف كان معها لوجدنا لها مواقع تسع هذه وتلك.

هذه الميزة جعلت المذهب المالكي قابلاً للتطبيق والاستمرار ؛ لأنه عملي معيش تراعى على أساسه أحوال الناس ومستجداتهم.

المذهب المالكي وفقه الخلفاء الراشدين

إذا جاوزنا بالمذهب المالكي السنن والآثار النبوية نجده مستلهماً كذلك فقه الخلفاء الراشدين ومتوقفاً عنده، وذلك لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من الوصية بالأخذ بسنتهم في قوله صلى الله عليه وسلم :

"أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبِشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بِعِدِّي فَيَسِيرُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"¹⁶.

16 - سنن أبي داود كتاب السنة رقم الحديث : 3991.

ولما دل عليه عملهم من حسم الخلاف في كثير من القضايا الفقهية والمعاملاتية والسياسية. ولذلك نجد في الفقه مثل قولهم : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم يكن أحد منهم يفعلعه، أو فلم يكن أحد منهم يتركه.

والذي يقول مثل هذا الكلام يقصد أن الأمر المذكور لم يطرأ عليه تغيير ما دام الخلفاء فعلوه بعد صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلة ذلك قول مالك بعدم البسملة في الصلاة، وتقديم تشهد عمر الذي علمه الناس على المنبر على غيره من صيغ التشهد الموجود عند غيره من الصحابة، وقوله بمندوبية القنوت في الصبح، وقوله بأن من يطعن في الصحابة لا نصيب له في الفئ؛ لما رأى عمر رضي الله عنه في معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾¹⁷.

على أن الواو للعطف، فمشى مالك على ذلك واستنبط منه أن الذين يطعنون في الصحابة غير الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ورتب عليه حرمانه من فيئ المسلمين، وهذا فهم عميق، فيه تفصيل أكثر لا نطيل به.

وكذلك يفعل الإمام مالك رحمه الله مع الخلفاء الآخرين، وخصوصا عمر بن عبد العزيز حيث يأخذ اجتهاداته وأحكامه باعتبارها أدلة اجتهادية صادرة عن الحاكم الذي يرفع حكمه الخلاف، ومن أمثلة ذلك القضاء باليمين مع الشاهد ويروي في ذلك عن أبي الزناد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو عامل على الكوفة أن اقض باليمين مع الشاهد.

وفرع الإمام مالك رحمه الله عن هذه المسألة مسائل كثيرة وبين المواطن التي يكفي فيها اليمين مع الشاهد، والتي لا يكفي فيها.

وكتابه الموطأ ملئ بالأمثلة من فقه هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن هنا نقول إن الإمام مالكا رحمه الله اتسع نظره في الفقه واعتبر عمل الخلفاء الراشدين مدرجا في سلم السنن التي مضى بها العمل، وكانت بها الفتوى، مما يجعله مذهباً استوعب حياة الناس في العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك والنظم والسياسات.

ولذلك استأذنه الخليفة العباسي هارون الرشيد على أن يحمل الناس على ما في الموطأ من العلم والفقه في الدين، وكتاب الموطأ حري بذلك لما فيه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والتابعين واجتهاداته الفقهية مع حرصه على مراعاة فتاوى الخلفاء وأقضيتهم وأحكامهم.

بيد أن الإمام مالكا رحمه الله امتنع عن ذلك واعتذر لما سنراه في المبحث الآتي :

المذهب المالكي ومراعاة الوقائع والأحداث

كان المذهب المالكي متميزا بمراعاة الواقع المعيش، والأحداث التي تتجدت عملا بقول عمر بن عبد العزيز : "تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوه من الفجور"¹⁸.

ولذلك لم ير حمل الناس على الموطأ في سائر أقطار الدولة الإسلامية ؛ لما في ذلك من اختلاف البيئات والأعراف والبداءة والحضارة والثقافات المتنوعة، إضافة إلى ما ذكر الإمام مالك رحمه الله، من تفرق الصحابة في البلدان وإفتاء كل واحد منهم بما لديه من العلم.

فكان العراق في زمن الإمام مالك رحمه الله، وهو مركز الخلافة، يعرف حركة دؤوبة في الصادر والوارد من الناس، ونتج عن ذلك وقوع الأحداث الكثيرة في الفقه والمعاملات ؛ مما يحتاج إلى الاجتهاد المتجدد فكثرت الفتاوى الافتراضية وافتراض الوقائع التي لم تقع بعد.

كما عرف كثيرا من الثقافات التي حملت معها أعرافا كثيرة ومتنوعة، بينما الحجاز كان هادئا شيئا ما، وبطيئا في التغير، وأعرافه هذبها الشرع من قبل وأدجمها في النصوص.

ولعل الإمام مالكا رحمه الله اعتبر مصر امتدادا للحجاز بطبيعتها وأعرافها وبعدها عما يعترى العراق من التحول والتغير، فلم يجز لفقيهاها الليث بن سعد الخروج على ما كان عليه أهل المدينة من الآثار والسنن، كما هو واضح في رسالته التي بعثها إليه في ذلك حيث قال :

"فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحل الحلال، وحرم الحرام ؛ إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله، واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

18 - في الموطأ برواية محمد بن الحسن : وقال مالك : كان يقال : تحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور. باب الصلح في الشرب. 275/3.

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته، ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهداهم وحدائهم عهدهم، وإن خالفهم مخالف أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى، ترك قوله وعمل بغيره، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أر لأحد خلافه للذين في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم¹⁹.

يرى الإمام مالك رحمه الله، - حمل الناس على عمل أهل المدينة - للعلماء لا للخلفاء؛ إذ حكم الخلفاء ربما يحسم الخلاف ويلغي أعراف بيئة لحساب بيئة أخرى وهو باب يغني المجتمع الإسلامي ويثريه، لا ينبغي سده بالمرّة.

وهذا البعد العميق في حمل الناس على مذهب معين وهو مذهب أهل المدينة، مع مراعاة اختلاف وتنوع الثقافات، هو الذي استلهمه المغاربة عبر التاريخ، وسار عليه سلاطينهم وخلفاؤهم وأمراؤهم، فنجد ما يعرف عندنا بالعمل الفاسي والعمل السوسي وشبه ذلك، من الفقه الذي فيه مراعاة لأحوال الناس وأعرافهم، مع توحيد الأصول المعتمدة والمذهب الجامع.

الخلاصة :

من خلال ما تقدم يتبين لنا لماذا أثنى كثير من الخلفاء في الشرق الإسلامي وغربه على الإمام مالك وفقهه، ورأوه مناسبا لسياسة الناس به، لما فيه من العمق في الفهم والنظر المقاصدي لمآلات الأمور وسعة أصوله لمستجدات الأحداث، ولما فيه من الوراثة النبوية المنقولة عمليا إلى الأجيال، لم يعثره التغير ولا التبدل الذي يأتي من تجدد النظر في الأخبار، وتعسف التأويل للعبارات والألفاظ، والاختلاف في النقلة ترجيحاً وتعديلاً، كل ذلك سلم منه مذهب مالك وجعله حجة قوية على العالمين كما قال غير واحد من العلماء.

ولا غرو إذاً أن يقع عليه اختيار الخلفاء والملوك في المغرب والأندلس منذ حياة الإمام مالك نفسه إلى يوم الناس هذا، وإن كانت محاولات كثيرة لنشر غيره من المذاهب فإنها لم تصمد أمام قوته العلمية وصموده الواقعي، فعاشه الناس علما وعملا حتى أصبح ثقافة لهم، لا يعرفون غيره من المذاهب.

فكان من اللازم لحفظ جماعتهم وتوحيد كلمتهم وصيانة أمنهم الروحي أن لا يلتفتوا إلى غيره، وألا يشيعوا فرقة بين أتباعه؛ لما لذلك من السلبية على واقع الأمة وحياتها اليومية، إذ الوحدة رحمة والفرقة عذاب والعاقل من اتعظ بغيره، والشواهد على سلبية إثارة الخلاف وتشويش الناس في أمور دينهم، عقيدة وعبادة ومعاملات وسلوكا، كثيرة في ماضي وحاضر الأمة الإسلامية.

ولذا لا نرى لأحد الخروج على الثوابت الدينية والوطنية التي أجمع عليها ملوك وعلماء وصالحوا الأمة المغربية منذ قرون خلت، والتي ضمنت لها توحدا والتحاما فيما بينها، ونسجت علاقاتها على الود والمحبة والطاعة في المنشط والمكره، والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

إمارة المؤمنين وفكرة الجهوية الموسعة

ذ. عبد المجيد بوكير

مقدمة

غني عن البيان أن مؤسسة "إمارة المؤمنين" في النموذج المغربي - والتي تنبثق أساسا عن موجبات البيعة - تقوم من حيث الممارسة والتطبيق على المساهمة في بناء الدولة المدنية الحديثة القائمة على مرجعية الأمة في تدبير شؤونها العامة، وعلى ضمان الحقوق الأساسية للأفراد والمساواة بينهم بصرف النظر عن جنسهم أو لونهم أو عرقهم أو عقيدتهم؛ بل إن الدستور المغربي لسنة 2011 الذي تميز بترسيخ مؤسسات الدولة الحديثة وتكريس ثقافة حقوق الإنسان وحمايتها، كرس صياغة جديدة لمؤسسة "إمارة المؤمنين" بما يجعلها، وفي أي وقت من الأوقات، رافدا من روافد قيام الدولة الحديثة بكل أشكالها القانونية المستجدة.

وفي هذا السياق بالذات نتساءل عن الحد الذي تستطيع فيه مؤسسة إمارة المؤمنين - كما اختط حدودها دستور المملكة الجديد - مواكبة التغيرات القانونية التي ما فتئت تلحق جسم الدولة؟ وهل بإمكانها استيعاب المظاهر التجديدية التي جاء بها مفهوم الجهوية الموسعة الذي تقترحه المملكة المغربية حلا للنزاع المفتعل حول الصحراء، مع ما يفيد ذلك من تنازل عن بعض الصلاحيات والاختصاصات المركزية لفائدة الجهة؟ وهل الأمر مجرد تفويت لبعض السلطات المركزية كما كانت العادة في كل إصلاح إداري يعتمد على المغرب، أم أن المسألة هذه المرة ربما تراحم وتناقض ما يتوجب لأمير المؤمنين من حقي الطاعة والنصرة المترتبة لمنزلته بموجب وثاق البيعة الشرعية؟ وهل المسألة فعلا تقتضي هذا المسار لضرورة ملجئة قوامها الخروج بقضية الوحدة الترابية من الضيق إلى السعة ومن الحظر إلى الإباحة أم أن في المسألة فعلا مساس بمقومات نظامنا السياسي؟.

في ضوء هذه الأسئلة وشبهها مما سيثار أثناء الدراسة ارتأيت البحث في موضوع: "إمارة المؤمنين وفكرة الجهورية الموسعة" بما يسهم في استشارة هذه الإشكالية الفقهية/القانونية/السياسية من منظور فهم إسلامي دستوري صرف، مع الإشارة سلفاً إلى أن أهل الفن من الباحثين في العلوم الإدارية إنما يميزون بين اصطلاح الجهورية والحكم الذاتي، وبالتالي فإنه لم تترسخ لديهم أية حدود واضحة لمسمى الجهورية الموسعة الذي سار على الألسن أخيراً حتى برز كأكثر الكلمات الملفوظة من لدن الفاعلين السياسيين في البلاد رغم الغموض الذي ينطوي عليه.

ولأجل تجلية الموقف من فكرة الجهورية الموصوفة بالموسعة ومحلها من مؤسسة إمارة المؤمنين، فإنه يجدر بنا بسط التطبيق المغربي المعاصر لطرق إسناد السلطة على مستوى رأس هرم نظامنا السياسي حتى يسهل بعده حصر الاختصاصات التي تؤول للملك أمير المؤمنين شرعاً وقانوناً، ومنه تبين الحدود التي معها تحافظ الجهورية المنادى بها حلاً لمشكل الصحراء المفتعل على ما يحق للملك من طاعة ونصرة بموجب زمام عقد البيعة الشرعية.

في ضوء كل ما مر معنا ترسم أمامنا خطة الدراسة وفق المقترح المنهجي ثنائي المحور كما يلي:

المحور الأول : طرق إسناد السلطة العليا في النظام الدستوري المغربي.

المحور الثاني : الجهورية الموسعة وإشكالية تفويض اختصاصات مؤسسة إمارة المؤمنين.

المحور الأول : طرق إسناد السلطة العليا في النظام الدستوري المغربي.

عرف المغرب تطبيق أول دستور ينظم أجهزة الحكم سنة 1962م، وقبل هذا التاريخ كانت التقاليد السياسية الإسلامية والأعراف السلطانية المغربية هي الضابط الأساس للعلاقة بين الحكام والأمة المغربية، وقد عرف مسار تحول النظام السياسي المغربي عن المرجعية الدينية إلى المرجعية الوضعية عدة محطات، أدى فيها تسرب الضعف والوهن للدولة المغربية وتخلف الاجتهاد الفقهي عن مسايرة تطور الأحوال السياسية للمغاربة، وشيوع التقليد واختلاف الآراء المذهبية مع ما واكب ذلك من تدخلات استعمارية أفضت إلى استبدال مبدأ استقلال الفقه الإسلامي بضبط شؤون السلطة والحكم بقاعدة الاحتكام لقوانين وضعية تمتح من مرجعية المغاربة ولكنها تنهل أيضا من مناهل عصرية¹ وما طورته الأمم الأخرى من نظريات سياسية معتبرة.

وبخصوص تطبيق المغاربة لنظرية ولاية العهد قبل المرحلة الدستورية نستطيع أن نميز بين صيغتين أساسيتين: أولاهما هي التي امتد تطبيقها منذ قيام دولة الأدارسة وإلى غاية سنة 1908م حين ظهر أول اقتراح لوثيقة دستورية مغربية مكتوبة بمعناها الاصطلاحي المضبوط، والأخرى هي التي طبقت منذ الحماية وإلى غاية الدستور الأول لسنة 1962م. إلا أن التنظيم والتععيد الدستوري لمؤسسة ولاية العهد لن يكون إلا مع وضع أول دستور مكتوب للمغرب سنة 1962م على عهد الراحل الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه وفاءً بالعهد الملكي لتاريخ 8 ماي 1958م والذي التزم فيه الملك الراحل محمد الخامس أكرم الله مثواه بإقامة المؤسسات الديمقراطية المنتخبة وكفالة الحقوق والحريات العامة وسيادة الأمة.

إذن الحديث هنا سيكون في الفقرتين التاليتين:

الفقرة الأولى: إسناد السلطة بالبيعة في النظام السياسي المغربي.

الفقرة الثانية: إسناد السلطة بولاية العهد في النظام السياسي المغربي.

1 - للمزيد يراجع: د. عبد الإله فوتير، العمل التشريعي بالمغرب: أصوله التاريخية ومرجعياته الدستورية دراسة تأصيلية تطبيقية، سلسلة دراسات وأبحاث جامعية (2)، ط 1/2002م، مطبعة المعارف، الرباط، ج 1/ص: 62 وما بعدها.

الفقرة الأولى: إسناد السلطة بالبيعة في النظام السياسي المغربي.

من المعلوم أن عقد البيعة تاريخيا في المغرب كان يأتي غداة وفاة أو خلع أو تنازل ملك - أو سلطان أو أمير أو حاكم أو ما شئت من الألقاب - عن الحكم لعدم قدرته على الوفاء بالتزاماته، فيقوم أهل الاختيار من كبار رجالات الدولة وأعيان الأمة ووجوهها باختيار من هو أهل لتولي السلطة حسب المعايير المبسوطة في مظانها من كتب الفقه الإسلامي المختصة، وعندما يقع اتفاقهم على الشخص الذي يرتضى للمسؤولية تتم بيعته، أما عندما يكون المرشح لخلافة الملك كمعهود له بالأمر معيننا مسبقا والملك على قيد الحياة، فإن عقد البيعة في هذه الحالة يأتي لتكريس واقع قائم وتعزيز استمرارية واستقرار الدولة.

وبالرجوع للنص الدستوري الذي أشرف الملك الراحل الحسن الثاني على وضعه سنة 1962م نجده يدرج لانطلاق مرحلة عصرية في الحياة السياسية المغربية، وبعد موافقة الشعب عليه من خلال الاستفتاء اعتبره الملك الراحل تجديدا لعلاقات البيعة وأواصرها بين العرش والشعب، فيما اعتبرته الطبقة المثقفة والنخبة السياسية تصويتا رسميا لصالح الوثيقة الدستورية التي حلت محل القواعد الفقهية - المدونة والمتناثرة في مظان ومؤلفات الفقه الإسلامي - والأعراف السلطانية التي كانت تنظم فيما مضى العلاقات بين "الملك" المباع والأمة المغربية.

ورغم أن بعض الفقه الدستوري المغربي يرى في تقنين قواعد الاستخلاف وضبطها دستوريا بالشكل الذي حدده الفصل العشرون من دستور 1962م وباقي الدساتير الموالية ما يسقط عن البيعة التي يأخذها الملك بعيد وفاة سلفه الطابع التشاركي الذي اتصفت به عبر التاريخ المديد، حتى أصبحت مجرد مرسوم صوري يشهر الخضوع الرسمي للسلطة الجديدة خاصة بعد أن لم تتم الإشارة إليها كمقتضى في الدساتير المغربية لا من قريب ولا من بعيد²؛ فإن الرأي عندي أن عدم التنصيص بصريح العبارة على البيعة كمقتضى دستوري لا يعني بحال أنها مجرد تزييد وتحصيل حاصل، بل على العكس من ذلك تبقى الركن الأساس للشرعية في بنائنا الدستوري.

وفي هذا السياق بالضبط نفهم قول بعض الفقه الدستوري أن نظام الحكم في المغرب يخضع لما هو منصوص عليه في الدستور مثلما يخضع لما جرى عليه العمل من غير انقطاع في سياق ما يسمى

2 - د. عبد العالي حامي الدين، الدستور المغربي ورهان موازين القوى، سلسلة دفاتر وجهة نظر (7)، ط 1/2005م، ص: 39.

بالعرف الدستوري المكمل والمتمتع بنفس قوة النص الدستوري، وعليه فالفصل واحد وأربعون³ من الدستور الجديد لا يفهم فهما راشداً إلا من خلال ربطه بالعرف الدستوري المكمل الذي هو البيعة فتكون النتيجة المتحصلة أن انتقال الحكم بالشكل المقعد دستورياً في هذا الفصل لا يتم إلا مقروناً ببيعة أهل الحل والعقد في الدولة المختوم برضا الأمة⁴.

ثم إن البيعة وإن لم يرد النص عليها حرفياً في الوثيقة الدستورية فالفصل واحد وأربعون نفسه - الذي كان يقابله الفصل التاسع عشر⁵ في كل الدساتير المغربية السابقة - أحال على مؤسسة إمارة المؤمنين ذات الأدوار الدينية والسياسية الطلائعية، وهي مؤسسة شديدة الاتصال بنظام البيعة؛ إذ هي قرينتها بل وثمرتها، فالبيعة بهذا الاعتبار تبقى الركن الأساس لاكتمال شرعية الملك في النظام الدستوري المغربي بصفته أميراً للمؤمنين وإن لم يقع التنصيب عليها بالاسم في الوثيقة الدستورية خاصة وأنه لم يثبت تاريخياً أن تخلى سلطان مغربي عن مرسوم البيعة ولو كانت صورية بعيداً عن طابعها التعاقدي الفعلي.

لذلك فالتطبيق الدستوري المغربي لنظرية البيعة يقترب من الفهم الإسلامي المحمود لهذه المؤسسة، ما يعني أن الخلفية الإسلامية لهذا الترتيب الدستوري ما تزال تلهم المغاربة كما ظلت تفعل ذلك في كل العصور، حتى لو وقع تجاهل التنصيب عليها كمقتضى ضمن وثيقة الدستور المكتوب، لذلك فقد وجدنا الملك يبادر لأخذ البيعة مباشرة بعد وفاة سلفه بل وحتى قبل دفنه كما كان الشأن عند وفاة الراحل الحسن الثاني رغم عدم التنصيب عليها كتابة كمؤسسة دستورية مثل ما الحال بالنسبة لمؤسسة الاستخلاف أو ولاية العهد.

3 - يقول الفصل 41 من دستور 2011م: "الملك أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية. يرأس الملك، أمير المؤمنين، المجلس العلمي الأعلى الذي يتولى دراسة القضايا التي يعرضها عليه. ويعتبر المجلس الجهة الوحيدة المؤهلة لإصدار الفتاوى التي تعتمد رسمياً في شأن المسائل المحالة إليه، استناداً إلى مبادئ وأحكام الدين الإسلامي الحنيف ومقاصده السمحة. تحدد اختصاصات المجلس وتأليفه وكيفية سيره بظهير. يمارس الملك الصلاحيات الدينية المتعلقة بإمارة المؤمنين، والمخولة له حصرياً بمقتضى هذا الفصل، بواسطة ظهائر".

4 - د. حميد أبكريم، إمارة المؤمنين بين التأصيل الشرعي والدستوري، أطروحة لنيل الدكتوراه في الحقوق، وحدة القانون الدستوري وعلم السياسة، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس، أكادال، الرباط، السنة الجامعية 2003-2004م، رسالة مرقونة، ص: 130، ناقلاً عن: د. مصطفى قلوش، قراءة جديدة لاختصاصات وصلاحيات المؤسسة الملكية على ضوء الفصل 19، جريدة النهار، العدد 18، بتاريخ 28 مارس 2003م.

5 - يقول الفصل 19 من دستور 1996م: "الملك أمير المؤمنين والممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها وضامن دوام الدولة واستمرارها، وهو حامي حمى الدين والساھر على احترام الدستور، وله صيانة حقوق وحريات المواطنين والجماعات والهيئات. وهو الضامن لاستقلال البلاد وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة".

الفقرة الثانية: إسناد السلطة بولاية العهد في النظام السياسي المغربي.

من المعلوم أن الفصل العشرين⁶ من دستور 1962م هو الذي تصدى لتنظيم مؤسسة الاستخلاف حين جعل عرش المغرب وحقوقه الدستورية تنتقل بالوراثة إلى الولد الذكر الأكبر سنا من سلالة الملك الحسن الثاني، وقد لحقت هذا الفصل تعديلات بموجب دستور 1970م⁷ فتحت المجال لإمكانية عهد الملك في حياته لابن ذكر من أبنائه غير الأكبر سنا، وهي الصيغة المحتفظ بها في دساتير 1972 و 1992 و 1996 و 2011م اللاحقة، وفي كلتي الحالتين نحن أمام مرحلة تكرر فيها الضبط القانوني لمؤسسة الاستخلاف ووقع تجاهل مؤسسة البيعة بعد أن بقي النظام السياسي المغربي يخضعها لقرون خلت لأحكام الفقه الدستوري الإسلامي والأعراف السلطانية المغربية المتوارثة.

ويعتقد الباحثون الدستوريون أن مسألة تولية العهد في النظام السياسي المغربي المعاصر هي الفعل الحقيقي الذي تسند بواسطته السلطة⁸، وبالرجوع للفصل 20 من دستور 1962م نجده واضحا وصارما ودقيقا في ضبط وراثة العرش المغربي، فهو يكرس مبدئيا تولي الابن الذكر الأكبر من ذرية الملك الحسن الثاني ثم ابنه الذكر الأكبر سنا وهكذا في العقب، فإن لم يكن للملك ولد ذكر انتقل العرش إلى أقربائه من إخوته وأبنائهم وإلا فالأعمام وبنينهم الأقرب فالأقرب، وبذلك فقد أصبح الملك ينتقل آليا طبقا للمعايير السابقة مع إعمال الاستثناء المنصوص عليه في الفصل العشرين المذكور.

6 - يقول الفصل 20 من دستور 1962م: "إن عرش المغرب وحقوقه الدستورية تنتقل بالوراثة إلى الولد الذكر الأكبر سنا من سلالة جلالة الملك الحسن الثاني، ثم إلى ابنه الأكبر سنا، ثم إلى ابنه الأكبر وهكذا ما تعاقبوا. فإن لم يكن ولد ذكر من سلالة جلالة الملك الحسن الثاني، فالملك ينتقل إلى أقرب الذكور من إخوته ثم إلى ابنه طبق الترتيب والشروط السابقة الذكر، فإن لم يكن فينتقل إلى الأعمام بنفس الترتيب والشروط".

7 - يقول الفصل 20 من دستور 1970م: "إن عرش المغرب وحقوقه الدستورية تنتقل بالوراثة إلى الولد الذكر الأكبر سنا من ذرية جلالة الملك الحسن الثاني، ثم إلى ابنه الأكبر سنا وهكذا ما تعاقبوا، ماعدا إذا عين الملك قيد حياته خلفا له ولدا آخر من أبنائه غير الولد الأكبر سنا، فإن لم يكن ولد ذكر من ذرية الملك فالملك ينتقل إلى أقرب أقربائه من جهة الذكور ثم إلى ابنه طبق الترتيب والشروط السابقة الذكر".

8 - لذلك فتعيين صاحب السمو الملكي الأمير مولاي الحسن وليا للعهد من لدن صاحب الجلالة الملك محمد الخامس سنة 1957م والذي أصبح فيما بعد الملك الحسن الثاني سنة 1961م، وكذلك صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد حين عين ملكا بعد وفاة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني في يوليو 1999م. لمزيد من الاطلاع يرجع للموقعين الإلكترونيين:

<http://www.habous.gov.ma/ar/detail.aspx?ID=1912&z=19&p=6>

<http://www.islam-maroc.gov.ma/ar/detail.aspx?ID=1915&z=19&p=6>

وفي كل الأحوال فدستور 1962م والفصل العشرون منه على الخصوص شكل قطيعة تاريخية مع استقلال الضبط الفقهي الإسلامي المقرون ببعض الأعراف السلطانية لولاية العهد في المغرب، وأعلن تدشين عهد التنظيم القانوني لهذه المؤسسة الدستورية، وهو ما تكرر واقعا غداة ازدياد الأمير سيدي محمد بتاريخ 21 غشت 1963م حيث نودي به مباشرة بعد ميلاده وليا للعهد الأمر الذي سيستمر مع مضامين الدساتير المغربية الموالية.

أما بالنسبة للدساتير المغربية لسنوات 1970م، و1972م (وفق ما جرى تعديله)، و1992م، و1996م، ثم أخيرا 2011م، فقد حافظت على الخطوط العريضة للتنظيم الذي ارتآه المشرع الدستوري سنة 1962م لولاية العهد حاشا بعض التعديلات التي لحقت ببعض الاصطلاحات وخاصة استبدال مصطلح السلالة بالذرية، غير أن التعديل الجوهرى الذي يمكن تسجيله هنا هو تحويل الملك إمكانية التصرف في حياته بتعيين ولي العهد من أولاده الذكور غير الابن الأكبر سنا منهم.

كما وقع إعادة تنظيم مؤسسة مجلس الوصاية - الذي كان محكوما في ظل دستور 1962م بمقتضيات الفصل الحادي والعشرين⁹ - في اتجاه عدم المبادرة إلى تعديل الدستور.

وهكذا وطبقا للفصل الرابع والأربعين¹⁰ من دستور 2011م وتناغما مع ما كان راسخا في دساتير سنوات 1962 و 1970 و 1972 و 1992م فالملك يُتِم سن الرشد بمجرد إتمام الثامنة عشرة من عمره خلافا لمقتضيات الفصل الواحد وعشرين من دستور 1996م¹¹ الذي كان يحدد رشد الملك في

9 - يقول الفصل 21 من دستور 1962م: "يعتبر الملك غير بالغ سن الرشد قبل نهاية السنة الثامنة عشرة من عمره، وقبل بلوغه سن الرشد يمارس اختصاصات العرش وحقوقه الدستورية مجلس وصاية. يرأس مجلس الوصاية أقرب الأقارب إلى الملك من جهة الأعمام وأكبرهم سنا بشرط أن يكون بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة كاملة. ويتركب مجلس الوصاية بالإضافة إلى الرئيس من رئيس المجلس الأعلى وقيدوم عمداء الجامعات ورئيسي مجلسي النواب والمستشارين. لا يمكن الجمع بين مهام العضوية بمجلس الوصاية والمهام الوزارية. قواعد سير مجلس الوصاية تحدد بقانون تنظيمي".

10 - يقول الفصل 44 من دستور 2011م: "يعتبر الملك غير بالغ سن الرشد قبل نهاية السنة الثامنة عشرة من عمره. وإلى أن يبلغ سن الرشد، يمارس مجلس الوصاية اختصاصات العرش وحقوقه الدستورية، باستثناء ما يتعلق منها بمراجعة الدستور. ويعمل مجلس الوصاية كهيئة استشارية بجانب الملك حتى يدرك تمام السنة العشرين من عمره. يرأس مجلس الوصاية رئيس المحكمة الدستورية، ويتركب، بالإضافة إلى رئيسه، من رئيس الحكومة، ورئيس مجلس النواب، ورئيس مجلس المستشارين، والرئيس المنتدب للمجلس الأعلى للسلطة القضائية، والأمين العام للمجلس العلمي الأعلى، وعشر شخصيات يعينهم الملك بمحض اختياره. قواعد سير مجلس الوصاية تحدد بقانون تنظيمي".

11 - يقول الفصل 21 من دستور 1996م: "يعتبر الملك غير بالغ سن الرشد قبل نهاية السنة السادسة عشرة من عمره، وإلى أن يبلغ سن الرشد يمارس مجلس الوصاية اختصاصات العرش وحقوقه الدستورية باستثناء ما يتعلق منها بمراجعة الدستور، ويعمل مجلس الوصاية كهيئة استشارية بجانب الملك حتى يدرك تمام السنة العشرين من عمره. يرأس مجلس الوصاية الرئيس الأول للمجلس الأعلى ويتركب، بالإضافة إلى رئيسه، من رئيس مجلس النواب ورئيس مجلس المستشارين ورئيس المجلس العلمي الإقليمي لمدينتي الرباط. وسلا وعشر شخصيات يعينهم الملك بمحض اختياره. قواعد سير مجلس الوصاية تحدد بقانون تنظيمي".

بلوغه سن السادسة عشرة من عمره فقط، اعتبارا من المشرع الدستوري وقتذاك لخطورة طول مدة الوصاية على الملك وتأثيراتها على مصالح الدولة الحيوية، وهي المصلحة التي عدل عن اعتبارها في الدستور الحالي.

وبإمعان النظر في أحكام الفصل الرابع والأربعين من الدستور الجديد لسنة 2011م نجد أن الملك المعهود له يخضع لمرحلتين من الوصاية¹² في النظام الدستوري المغربي كلما قل سنه عن العشرين سنة كما يلي:

المرحلة الأولى: ويكون الملك فيها قاصرا قبل إتمامه سن الثامنة عشر سنة شمسية كاملة، حيث يتولى مجلس الوصاية أثناءها ممارسة كل الاختصاصات الملكية وحقوقه الدستورية ما عدا صلاحية مراجعة الدستور، وذلك حفاظا على السير العادي للمؤسسات الدستورية.

المرحلة الثانية: وتمتد من بلوغ الملك سن الرشد أي الثامنة عشر سنة شمسية وإلى غاية إتمامه سن العشرين من عمره، وخلال هذه المرحلة يكون دور مجلس الوصاية استشاريا فقط.

أما بخصوص تركيبة مجلس الوصاية فقد صار مؤلفا من ستة عشر عضوا وهم: رئيس المحكمة الدستورية بصفته رئيسا للمجلس، بالإضافة إلى رئيس الحكومة، ورئيس مجلس النواب، ورئيس مجلس المستشارين، والرئيس المنتدب للمجلس الأعلى للسلطة القضائية، والأمين العام للمجلس العلمي الأعلى، وعشر شخصيات يعينهم الملك بمحض اختياره¹³.

وعليه فالتطبيق المغربي لنظرية ولاية العهد عبر تاريخه - القديم منه والحديث - اقترب في لحظات كثيرة من الفهم الإسلامي المحمود لهذه الولاية حسب ما اعتبره الواضع الدستوري من مقتضيات الضرورة.

المحور الثاني: الجهورية الموسعة وإشكالية تفويض اختصاصات مؤسسة إمارة المؤمنين.

بالرجوع للفقهاء السياسي الإسلامي نجده يعدد مهام الخليفة إلى مسؤوليات دينية وأخرى سياسية؛ فبالنسبة للاختصاصات الدينية للخليفة فقد حددها العلماء في أمور أربعة وهي حفظ الدين، وإقامة فرض الجهاد ثم نشر الدعوة وتحصيل الزكاة والخراج، أما بالنسبة للوظائف السياسية

12- د. عبد الهادي بوطالب، النظم السياسية المعاصرة، نماذج مختارة من: النظام الرأسمالي، العالم الاشتراكي، العالم الثالث، ط1/ 1981م، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص: 206. آلية انتقال الحكم نموذج: المغرب والبحرين وسوريا، دة. زينب النميلي، مرجع سابق، ص: 80.

13 - يلاحظ أن إعطاء الملك صلاحية تعيين عشرة أعضاء بمحض اختياره يوسع عليه الحرية في تشكيل مجلس وصاية متعاون معه ولا يستغل المؤسسة الملكية لأغراض خاصة.

التي يشغلها الخليفة فذكر منها الفقهاء المحافظة على النظام العام للدولة وتقليد الحكومة وتعيين الولاة وأمرء الأقاليم وتنصيب القضاة ثم اختصاصات مالية.

ولا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة لصنيع الدستور المغربي حيث نصّ فصله الواحد والأربعون على المهام الدينية للملك التي يمارسها بصفته أميرا للمؤمنين وحاميا لحمى الملة والدين، بينما تولت الفصول الموالية حصر اختصاصات المؤسسة الملكية التي يأتيها الملك بصفته رئيسا للدولة.

وسوف نتولى بحث اختصاصات رئيس الدولة من منظور الفقه السياسي الإسلامي مع المقارنة بما عليه الأمر في الدستور المغربي في فقرة أولى على أن نفصل في فقرة أخرى علاقة الجهورية الموصوفة بالموسعة بما اصطلح عليه الفقه السياسي الإسلامي بولاية الاستكفاء.

الفقرة الأولى: اختصاصات رئيس الدولة من منظور الفقه السياسي الإسلامي والمقارن.

تنقسم مهام الخليفة في النظام السياسي الإسلامي إلى مسؤوليات دينية وأخرى سياسية وهو التنوع الذي أجاد في تكريسه دستور المملكة المغربية لسنة 2011م.

أولا: المهام الدينية.

حدد العلماء من ضمن وظائف الإمام الدينية أمورا أساسية وهي حفظ الدين، وإقامة فرض الدفاع عن حوزة بلاد الإسلام ونشر دعوته وتحصيل الزكاة والخراج.

1- حفظ الدين.

يضطلع الخليفة بمهمة صيانة الدين بالمحافظة على حرمة وإقامة أحكامه ودفع الشبه عنه، إذ الخليفة بصفته أميرا للمؤمنين ورئيسا عاما للمسلمين، من صلاحياته حفظ العقائد والقيم الإسلامية كما أجمع عليها سلف الأمة ومُجتهدوها باعتماد الوسائل العلمية في الرد على المبتدعين والمخالفين، فإن لم تثمر وسيلة الإقناع وإقامة الحجة هاته، أمكن للخليفة أخذ المخالفين بالعقوبات والتعزيرات المناسبة¹⁴. ومن مهام الخليفة أيضا في هذا الباب، الإشراف على شعائر الدين بإقامة

14 - أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (دون تاريخ)، ص: 18. أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط 1403 هـ 1983م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 27. أبو محمد علي ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة المثنى، بغداد ومؤسسة الخانجي بمصر، ط 1317 هـ، ج 149/4 وما بعدها. محمد بن علي الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ط 1405/1 هـ 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 518-517/4. أحمد بن يحيى بن المرتضي (ت 840 هـ)، البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، ط 1394 هـ 1975م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج 390/6. الصنعاني، التاج المذهب، 11366 هـ 1947م، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، ج 417/4.

الصلاة، والأذان والجمع، والأعياد، والحج، وبناء المساجد وإعمارها، وغير هذه من مجالات خدمة العقيدة والشرعية.

2 - الدفاع عن حوزة البلاد ونشر الدعوة.

يجعل الفقهاء على عاتق الإمام واجب إقامة فرض الجهاد دفاعا عن حوزة البلاد لإظهار الإسلام ونشر دعوته إلى الهداية¹⁵ حتى يأمن الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، وقد أصبح دفاع الدول عن نفسها حقا مقدسا محميا بنصوص القانون الدولي العام المعاصر.

ويتوجب على الدولة الإسلامية الاضطلاع بمهمة نشر الدعوة والإكثار من البعثات الدينية والمؤسسات الدعوية إلى بلاد غير المسلمين، وتأهيل الدعاة ومدّهم بالدعم لخدمة العقيدة بالحجة والمناظرة والحوار والإقناع، مع الاستفادة من النهضة التي ما فتئ العالم يعرفها في ميدان الاتصالات والإعلاميات التي راحت أكثر فاعلية في إيصال رسالة الإسلام وتعريف الآخر بها.

3 - تحصيل الزكاة والخراج.

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، وفرض ديني في مال الغني لصالح الفقير، وهي أيضا ضريبة تكافل وتضامن اجتماعي سنّها الإسلام لتقوية لحمة المجتمع الإسلامي وبث وشائج الرحمة فيه. وقد مرّ تحصيل الزكاة بطورين مختلفين تبعا لاختلاف مراحل تطور مؤسسة الدولة؛ ففي مرحلة أولى تولت الدولة في النظام السياسي الإسلامي جمع الزكاة من المستحقة عليهم قصد إعادة توزيعها على مستحقيها الذين جمعهم قول الله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾¹⁶، ومن رفض أداءها أكره على ذلك وإلا عدّ باغيا وجب قتاله على حد سواء مع المرتدين، كما وقع في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وفي مراحل أخرى تخلت الدولة عن هذا الواجب ليتولى المستحقة عليهم المبادرة بدفعها لمن يستحقونها دون وساطة الدولة.

نكتفي هنا بملاحظة أساسية مؤداها أن مجمل هذه الاختصاصات هي ما عبر عنه الفصل 41 من دستور المملكة لسنة 2011 بقوله "الملك أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية

15 - الأحكام السلطانية، الماوردي، ص: 18. الأحكام السلطانية، الفراء، ص: 27. السيل الجرار، الشوكاني، ج 4/518-519.

التاج المذهب، العنسي، ج 4/419. البحر الزخار، ابن المرتضى، ج 6/390 وما بعدها.

16 - سورة التوبة مدنية 9/ الآية 60.

ممارسة الشؤون الدينية ... يمارس الملك الصلاحيات الدينية المتعلقة بإمارة المؤمنين، والمخولة له حصريا بمقتضى هذا الفصل، بواسطة ظهائر".

ثانيا: وظائف الإمام السياسية.

يجمع الخليفة في النظام السياسي الإسلامي بين الوظائف الدينية كما سبقت الإشارة إليها وبين المسؤوليات السياسية التي يمكن إجمالها فيما يلي:

1- المحافظة على النظام العام للدولة.

يتوجب على الإمام المحافظة على النظام العام داخل الدولة الإسلامية ببسط الأمن ومحاربة البغي والإجرام، والسهر على تطبيق القانون، حتى يأمن الناس في السبل والديار على أموالهم وأنفسهم¹⁷، وهذه الوظيفة تسند حاليا لإدارة الشرطة.

كما يتوجب عليه تحصين الدولة في مواجهة أي عدوان خارجي بإعداد القوات والجيوش وتدريبها وتمنيع الثغور وعقد المصالحات والمعاهدات وغيرها، وتضطلع بمهمة الدفاع الوطني في الدول المعاصرة وزارات مختصة في الدفاع تكون في غالب الأحيان تابعة لرئيس الدولة.

2 - تقليد الحكومة.

أغلب مهام الخليفة تدخل في نطاق ما يعرف في الفقه الدستوري الحديث بالسلطة التنفيذية، حيث يعتبر الخليفة من هذه الناحية الرئيس الفعلي للوزراء الذين يعينهم ويأمرهم وتنصيبهم.

ويمكن ملاحظة الطابع الرئاسي للنظام الإسلامي في هذه الناحية، حيث إن الخليفة هو من يشكل الحكومة ويعين الوزراء والمعاونين لهم، وهو من يعفيهم أيضا من مناصبهم، وهم لا يشكلون مجلس وزراء كما هو حال النظم البرلمانية المعاصرة، بل يخضعون له خضوعا تاما، وينفذون سياسته العامة التي قام بوضعها، ويسألون أمامه عن أعمالهم، ولا سلطة لهم أمامه إذ هو رئيس الدولة والحكومة معا.

والوزارة في الفقه السياسي الإسلامي التأسيسي تنقسم إلى نوعين: وزارة تفويض ووزارة تنفيذ؛ فوزارة التفويض تتم حين يختار الخليفة وزيرا ويفوض له سلطاته بطريقة تعطي هذا الوزير

17 - الأحكام السلطانية، الماوردي، ص: 18. منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، كشف القناع عن متن الإقناع، تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، السعودية (بدون)، ج 6/161. د. مصطفى الحت و د. مصطفى البغاو. ذ. علي الشريجي، الفقه المنهجي على مذهب الشافعي، ط 1408/1 هـ - 1989 م، دار القلم، دمشق، ج 8/270.

سلطة تصريف الشأن العام للدولة بمقتضى نظره وسياسته وتقديره. ويشترط في الوزير من هذا القبيل شروط الترشيح للخلافة حاشا شرط النسب، بل يشترط شرط زائد عن مواصفات الإمام وهو أن يكون وزير التفويض من أهل الكفاية فيما وكل إليه حتى يباشر صلاحياته ويستتنب غيرهِ فيها إذا اقتضاه الأمر¹⁸.

أما وزارة التنفيذ فيكون الوزير فيها منفذا لسياسة الإمام فقط وفق إذنه وأوامره¹⁹؛ فالنظام السياسي الإسلامي من حيث كونه يقر نظام وزارة التفويض يقترب كثيرا من النظم البرلمانية التي تتحمل الوزارة مسئوليتها في وضع السياسات العامة للبلاد، ومن حيث كونه يقر نظام وزارة التنفيذ فهو يقترب بذلك من النظام الرئاسي.

3 - تعيين الولاة وأمرء الأقاليم.

يتولى الخليفة تعيين ولاة الأقاليم وأمرء الجهات الذين يقومون محله بتصريف شؤون الإدارة المحلية وتنظيم الحياة العامة في هذه المناطق، والولاية على الأقاليم إما عامة وإما خاصة: فالولاية العامة هي التي يتمتع صاحبها باختصاصات كبيرة وموسعة تفرض فيه التوفر على شروط خاصة وفق ما تولى كتاب السياسة الشرعية والأحكام السلطانية بسطها في المراجع والمظان المختصة مما لا يسمح الحيز التطرق إليه تفصيلا.

وأما الإمارة الخاصة فتكون على إقليم معين وتعطي لصاحبها سلطة مقصورة على بعض الصلاحيات التي تتعين في التولية بحيث لا يتمتع بأي تدخل في شؤون القضاء أو استخلاص الزكاة والخراج²⁰ وشبهه.

4 - تنصيب القضاة.

كان الخليفة في بدايات الدولة الإسلامية يضطلع بمهام القضاء والفصل في النزاعات بنفسه، لكن تراكم المسؤوليات اقتضت منه غالبا تعيين من يتولى إدارة العدالة والاضطلاع بمهامها، وقد قرر الفقهاء أن القضاة يتولون مهامهم نيابة عن الأمة وبناء على تولية الخليفة²¹.

18 - الأحكام السلطانية، الماوردي، مرجع سابق، ص: 25.

19 - الأحكام السلطانية، الماوردي، مرجع سابق، ص: 25.

20 - الأحكام السلطانية، الماوردي، مرجع سابق، ص: 26 وما بعدها.

21 - د. عبد المجيد بوكير، السلطة السياسية ونظام الحكم في الفقه الدستوري الإسلامي دراسة في الأصول والممارسة، مرجع سابق، ص: 243 وما يليها.

فرغم أن الخليفة أو من يفوضه هم من يعينون القضاة ويعزلونهم، فإن هذا الإجراء بقي في نظر الفقهاء المسلمين مجرد مرسوم شكلي من باب تحصيل الحاصل بدليل أن القاضي يصير مستقلا في أداء مهامه بعد التنصيب مباشرة، لا يتقيد بأوامر الأمراء، ولا الوزراء ولا غيرهم من القائمين على السلطة التنفيذية²²؛ بل إن الفقهاء قرروا أن القاضي يستمد ولايته من الأمة، وأن الخليفة عندما يعينه إنما يكون وكيلا عن الأمة وممثلا لها في مباشرة عقد التعيين، وقد رتبوا على هذا أن وفاة الإمام لا تنهي ولاية القضاة، قال ابن شاس: "وإذا مات الإمام الأعظم، فلا بأس أن ينظر قضاته وحكامه حتى يعلموا رأي من بعده"²³، وقال ابن الحاجب المالكي: "وإذا مات المستخلف لم ينزل مستخلفه ولو كان الخليفة"²⁴، وقال الإمام القرافي من المالكية: "إذا مات الإمام الأعظم نظر قضاته وحكامه حتى يعلموا رأي من بعده ... لأن الولاية فيهم حق للمسلمين لا تبطل بموته"²⁵، ووافقهم الخطيب الشربيني من الشافعية حين قال: "لا ينزل القاضي بموت الإمام لشدة الضرر في تعطيل الحوادث، ولأن الإمام إنما يستنب القضاة في حقوق المسلمين"²⁶، وهو رأي الإمام ابن عابدين الحنفي أيضا من "أن السلطان عامل للمسلمين، فلا ينزل بموته القاضي الذي ولاه هو، أو ولاه القاضي بإذنه"²⁷.

إذا ثبت هذا التوجيه المنهجي وجب التنبيه على أن علاقة القاضي بالسلطة التنفيذية في إطار النظريات السياسية الإسلامية اتسمت دائما بالاستقلال في العمل وإن كانت سلطة التنفيذ هي من يعين ويعزل ويقيد مجال الاختصاص والنظر، مما يجعلنا نقرر بلا هوادة أن هناك نوعا من الاتصال بين الجهتين لا يقل عن انفصال إحدهما عن الأخرى وهذا حديث آخر بطبيعة الحال.

22 - أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور، ط/1405هـ 1985م، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ص: 225. - سليمان محمد الطماوي، السلطات الثلاث في الدساتير العربية وفي الفكر الإسلامي، ط. 3/1974م، دار الفكر العربي، ص: 604. عبدالرزاق أحمد السنهوري، فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، ترجمة: دة. نادية عبد الرزاق السنهوري والدكتور توفيق الشاوي، ط/1989م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: 168 وما بعدها.

23 - نجم الدين عبد الله بن نجم بن شاس، عقد الجواهر الثمينة في فقه عالم المدينة، تحقيق: محمد أبو الأجفان وعبد الحفيظ منصور، مراجعة: محمد الحبيب ابن الخوجة والدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، ط/1415هـ 1995م، دار الغرب الإسلامي، ج 3/106.

24 - ابن الحاجب، جامع الأمهات، ص: 463، تحقيق: أبو عبد الرحمن الأخضر الأخضر، ط. 2/1421هـ 2000م، دار اليمامة، دمشق-بيروت.

25 - شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ 1285م)، الذخيرة، تحقيق: ذ. سعيد أعراب، ط/1994م، دار الغرب الإسلامي، ج 10/129.

26 - الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني، دار الفكر (بدون)، ج 383/4.

27 - محمد أمين الشهير بابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين)، مرجع سابق، ج 77/8.

5 - الاختصاصات المالية للخليفة.

يتولى الخليفة ضبط مالية الدولة الإسلامية وتنظيم المصاريف والمداخل إذ هو الأمين على المال العام والمسئول عنه كالولي والوصي مع مال الغير. وبالإضافة إلى هذه يشرف الخليفة على سياسة الاقتصاد الإسلامي وفق المعهود من الأحكام الشرعية والمرعي من القواعد الفقهية المنظمة لهذا الباب، حيث يسهر على جريان المعاملات المالية وفق المنظور الإسلامي وفي نطاقه كما يعمل على مراقبة الأسواق وضبطها حتى لا يغير مغير أو يحدث محدث.

وإذا حاولنا مقارنة هذه الاختصاصات السياسية للخليفة المارة بنا في إطار النظريات السياسية الإسلامية بما كرسه الدستور المغربي من صلاحيات واسعة يأتيها الملك بصفته رئيس الدولة ومثلها الأسمى ورمز وحدة الأمة، وضامن دوام الدولة واستقلالها واستمرارها والحكم الأسمى بين مؤسساتها والساھر على حسن سيرها دستوريا، والكفيل لحقوق وحرّيات المواطنين والصائن للاختيارات الديمقراطية للمملكة المغربية، وجدناها لا تخرج عما ذكر أعلاه خاصة إذا ما استحضرنا التطورات المتسارعة التي ما فتئت تعرفها الحياة السياسية في عالم النظم المعاصرة.

وفي هذا السياق فقط نذكر أن الملك هو من يعين رئيس الحكومة من الحزب المتصدر لنتائج الانتخابات النيابية طبقا للفصل 47 من الدستور، ويرأس المجلس الوزاري طبقا للفصل 48 منه، ويصدر الأمر بتنفيذ القانون وفق ما رسخه الفصل 50، وله حق حل مجلسي البرلمان طبقا للفصل 51، وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية (الفصل 53)، الذي يرأس المجلس الأعلى للأمن (الفصل 54)، ويعتمد السفراء ويوقع المعاهدات (الفصل 55)، ويرأس المجلس الأعلى للسلطة القضائية طبقا للفصل 56 فيوافق على تعيين القضاة (الفصل 57) ويمارس حق العفو (الفصل 58)، كما يعلن حالة الاستثناء عند الاقتضاء (الفصل 59) وشبه هذا من الصلاحيات.

والملاحظ أن إمارة المؤمنين كما عرفها الفقه السياسي الإسلامي تاريخيا كانت تشمل بحمولتها الدينية كل تصرفات الحاكم المشخص لحقيقة الدولة، فكانت في المغرب مثلا العلاقة بين مصطلحي السلطان وأمير المؤمنين علاقة تمازج واندماج تقريبا وتنفيذا، غير أن إدراج مؤسسة إمارة المؤمنين ضمن مقتضيات الدساتير المغربية المتعاقبة، بدءا من دستور 1962 وانتهاء بدستور 2011م سيفضي إلى التمييز بين مهام الملك الراجعة إلى رئاسة الدولة وبين المهام العائدة إلى إمارة المؤمنين، وهذا ما يبرر اختصاص الفصل 41 من الدستور بضبط صلاحيات "أمير المؤمنين"، وانتظام الفصل 42 منه أيضا لبيان المهام التي يمارسها الملك بصفته رئيسا للدولة.

ومن وجهة نظر الفقه السياسي الإسلامي فإنه وبعد أن تحقق الحكومة الإسلامية هذه الأمور وتأتيها على الوجه الشرعي المطلوب، ينشأ لها على الأمة الإسلامية حقان أساسيان هما: حق الطاعة وحق النصرة؛ إذ بهما تتم المؤازرة ويتحقق الخير للإسلام والمسلمين، وهذان الحقان يتوجبان على الأمة إلى أن تنتهي ولاية الخليفة.

الفقرة الثانية: من ولاية الاستكفاء إلى الجهورية "الموسعة": أية علاقة؟.

لقد سبق معنا القول إن الخليفة بصفته رأس السلطة العامة في النظام السياسي الإسلامي هو من يقوم بتعيين عمال الأقاليم وولاة الجهات الذين ينتصبون محله ويضطلعون بالنيابة عنه في تصريف شؤون الإدارة المحلية وتنظيم الحياة العامة في هذه المناطق باسمه. كما وسبق لنا أن سطرنا أعلاه أن الولاية على الأقاليم إما أن تكون ولاية عامة وإما أن تكون ولاية خاصة؛ فأما الولاية الخاصة فتكون على إقليم معين وتعطي لصاحبها سلطة مقصورة على بعض الصلاحيات التي تتعين في قرار التولية بحيث لا يتمتع صاحبها بأي تدخل في شؤون القضاء أو استخلاص الزكاة والخراج²⁸.

وأما الولاية العامة فيتمتع صاحبها باختصاصات كبيرة وموسعة، وهي إما أن تكون عن اختيار كامل من الخليفة الناهض بشؤون الحكم وهذه تسمى ولاية استكفاء، أو أن تكون عن اضطرار موجب وتسمى ولاية استيلاء²⁹؛ وهي في حقيقتها تعبير صريح عن مدى حرص الفقهاء على وضع الترتيبات القانونية والضوابط الفقهية والشرعية التي تروم تأطير الواقع المفروض إكراها حتى لا تنفلت الأمور من زمام السيطرة والضبط، وحتى يُخَرَّج هذا الواقع من الخطر إلى الإباحة ومن الفساد إلى الصحة.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن ما يقصده المنادون بتمتع أقاليم الصحراء المغربية بنوع من الاستقلال الإداري في تدبير شؤونهم الخاصة تحت مسمى الجهورية "الموسعة" إنما هو تنازل السلطات المركزية عن مجموعة من الصلاحيات التي تعود في الأصل لها كإدارة الاقتصاد والتعليم والأمن المحلي وغيره، مع بقاء كل ما يتعلق بالأمور السيادية موحدا على الصعيد الوطني ويتولاه المركز من قبيل الشؤون الخارجية ومتعلقات الدفاع الوطني والعملية ورموز العلم الوطني ومرفق

28 - الأحكام السلطانية، الماوردي، مرجع سابق، ص: 26 وما بعدها.

29 - الأحكام السلطانية، الماوردي، مرجع سابق، ص: 26 وما بعدها.

القضاء وشبهه، فإن مثل هذا الأمر يصح توصيفه بأنه نوع أو صورة من صور ولاية الاستكفاء العامة المارة بنا والتي عرفها الفقه الإداري الإسلامي من زمن بعيد وخبر العمل بها، وبالتالي فمثل هذه الدعوة لا تمس هيكل النظام السياسي من وجهة نظر فقهية خالصة، ولا يثير أي محذور على هذا الصعيد؛ بل فيها من منافع تجاوز الصراع والخلاف ما لا يخفى.

وحتى إذا ما كيفنا فكرة الجهورية الموسعة بالشكل الموصوف آنفا على أساس أنها ضرب من ضروب ولاية/إمارة الاستيلاء التي قرر الفقهاء الإذعان لموجباتها تحقيقا للصالح العام في حقن الدماء والخروج بالواقع من الفساد إلى الصحة ومن الحظر إلى الإباحة، فإن ذلك لا يثير أي استشكل على الأقل من الناحية النظرية الصرفة، لما فيها من فائدة عظيمة مؤداها قطع دابر الصراع المفتعل حول شرعية سلطة الإمام على الصحراء ورفع مادة الخلاف حول نفوذ حكمه هناك.

بقي أن نوضح أن تمتيع منطقة الصحراء بوضع الجهورية المتقدمة ليس فيه أي مساس بالحقوق المتوجبة على الأمة لفائدة أمير المؤمنين بمقتضى البيعة الشرعية وأخص بالذكر هنا حقي الطاعة والنصرة، لما عرفنا أن تفويت النظر في بعض الاختصاصات المركزية لفائدة إقليم معين لا ينطوي على نقضه الطاعة ما دام هذا الإقليم يستمر في الخضوع لسيادة الدولة وتنفذ فيه سلطة أمير المؤمنين رئيس الدولة، آية ما نقول بقاء الإقليم معتدا بالرموز السيادية للسلطة المركزية خاصة في ما يتعلق بالشؤون الخارجية والعلاقات الدولية للمغرب وأمور الدفاع الوطني والعملية والعلم الوطني وسلطة القضاء وما إليه.

الخاتمة.

إن للجهورية الموصوفة في خطاب الفاعل السياسي المغربي بالموسعة أو المتقدمة مستقبلا معتبرا لما بيناه أعلاه من عدم وجود أي تناقض بينها كفكرة تليق أن تؤسس لحل دائم وعادل وشامل للقضية المفتعلة حول الصحراء، وبين مؤسسة إمارة المؤمنين التي صاغها دستور المملكة استشفافا من مبادئ ونظريات الفقه السياسي الإسلامي مع توضيب اقتضاه الأخذ بالأعراف السلطانية التي رسخها المغاربة عبر تاريخهم الإسلامي المجيد، الشيء الذي أسهم في أن تتبلور هذه المؤسسة الدستورية مرنة قابلة للتطور في اتجاه استيعاب تمرين التكيف مع القضايا المستجدة.

عناية أمير المؤمنين بالتصوف السني رسالته إلى لقاء سيدي شيكر نموذجاً

د. عبد الوهاب الفيلاي

أسهم المنهج الصوفي المستمد من الكتاب والسنة في تشييد صرح المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي.

انطلاقاً من هذه الحقيقة، ووعياً بالخصوصية الصوفية في المغرب، وتأسيساً على كون التصوف السني أحد ثوابت الهوية المغربية الإسلامية وعناصر وحدتها إلى جانب المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية وإمارة المؤمنين المتعاقبة كلها فيما بينها تعالق تفاعل بنّاء للإنسان والمجتمع، نفهم رسوخ عناية مؤسسة إمارة المؤمنين بالتصوف ومكوناته؛ أقطاباً ومريدين، رباطات وطرقاً وزوايا، علماً وسلوكاً، وأعلاماً وأماكن، منذ القديم إلى اليوم، إذ في ذلك مظهر من مظاهر التعالق التفاعلي المشار إليه. وهما هو ذا أمير المؤمنين محمد السادس حفظه الله يتوج في عصرنا الآتي هذه العناية وذلك التعالق بين ثوابت الأمة برعاية دؤوبة ودقيقة لكل مواطن السلوك الديني، جامعاً في ذلك بين الجانبين المادي والروحي، ومتواصلاً مع كل المراكز الدينية الصوفية تواصل اهتمام بهذا الموروث وتوجيهها إلى تطويره والإفادة منه في مختلف مناحي الحياة، انطلاقاً من الوعي بقيمة التربية الدينية الصوفية الإسلامية في بناء الإنسان الصالح لنفسه ولمجتمعه.

في هذا السياق العام، تغدو كل خطوات أمير المؤمنين في هذا المجال رموزاً لتلك العناية الدؤوبة، وتكون رسالاته الملكية السامية إلى مختلف الملتقيات الدينية والصوفية نماذج لا يمكن إلا الالتفات إليها بما يجب من الاهتمام، ووزن فحواها بميزان العقل والحكمة والتأمل، مراعاة للمسار التاريخي لمؤسسة إمارة المؤمنين، وعياً بإصرار أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله على الاستمرار المتبصر والمتزن في الحفاظ على سلامة السلوك والأخلاق في المجتمع مشروطة بالتزام حدود الشرع

1 - وجهت هذه الرسالة إلى الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شيكر للمنتسبين للتصوف يوم الجمعة 19 شتنبر 2008.

الإسلامي في هويته الوسطية المعتدلة ذات القدم الراسخ في كيان المجتمع المغربي عبر تاريخه الإسلامي، باعتبار الوسطية منزعا استخلافا، وأساسا كونيا، وضابطا أخلاقيا وحضاريا في حياة المسلمين، ولأنها السبيل إلى كل خير روحي ومادي...²، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾³ وقوله عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾⁴.

هكذا، تكون الرسالة الملكية السامية إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شيكر للمتسبين للتصوف أحد تلك الرموز الدالة على سهر أمير المؤمنين رعاه الله على سلامة الحياة الدينية والروحية الصوفية في بعدها الوسطي المعتدل. وقد جاءت هذه الرسالة مليئة بحمولة دلالية إشارية منطلقها ارتباط الملتقى بمكان صوفي جوهر هو الرباط، وبشخصية ذات قيمة في تاريخ الإسلام هي سيدي شيكر؛ واحد من أصحاب الفاتح عقبة بن نافع الفهري، وبخصوصية هذا الملتقى الوطني باعتباره موطن اجتماع أتباع كل الطرق الصوفية من كل أنحاء المغرب قصد التعارف والتواصل الروحي والعلمي والتربوي، وإقامة حلقات الذكر والوعظ، وقراءة القرآن ودراسته، وذلك استنادا إلى مفهوم التصوف السني النقي الخالي من الشوائب والمفيد لدلالة التحلي بالخلق السني والتخلي عن كل خلق دني، ورعاية الأحوال والأقوال والأفعال في ظل منهاج الشرع قولاً وعملاً ونية، علماً أن لا قول بلا عمل، ولا قول ولا عمل بلا نية، وجميعها لا يتم إلا بموافقة السنة وعناية من الله سبحانه لعباده⁵.

نعم، ألح أمير المؤمنين في رسالته إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شيكر على هذا الفهم النقي للتصوف وتجربته، بل جعله محور مبنائها ومعناها، وأساس لغتها ودلالاتها، اقتفاء لأثر السلف الصالح والمنهج النبوي المحمدي النافع في رسم معالم الطريق والالتزام بها،

2 - التصوف السني في تاريخ المغرب نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، تقديم وإشراف إبراهيم القادري بوتشيش، سلسلة شرفات: 27، منشورات الزمن: 2010، ص 21

3 - سورة البقرة آية 143 برواية ورش عن نافع.

4 - سورة النساء آية 171.

5 - محمد بن علي الشطبي "عيون الناظرين في شرح منازل السائرين" لأبي إسماعيل الهروي، دراسة وتحقيق "محمد أمين الغويلي"، منشورات مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة - الرابطة المحمدية للعلماء - المغرب، ط 1:

1433 - 2012، ص 83

مصدقا لقوله تعالى: (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما)⁶.

بعد هذا الرسم لموضوع الرسالة الملكية وسياقها العام والخاص نلاحظ أنها احتكمت إلى مستويين متكاملين ومتفاعلين من الخطاب؛ المستوى الإخباري التوكيدي، ركز فيه أمير المؤمنين على التذكير بحقائق تخص الهوية الصوفية في المغرب وبعدها الوطني، ومدى قيمة رباط سيدي شيكر وملتقاه ضمن ذلك. والمستوى الإنشائي التوجيهي وأساسه الأمر والتوجيه إلى العمل، وتوظيف الطاقة الصوفية في الفعل التنموي الإصلاحي... داخل المحيط الوطني، دينيا وروحيا واجتماعيا...

ارتباطا بالمستوى الأول، ذكر أمير المؤمنين أهل الملتقى، ومن خلاهم كل المغاربة وغيرهم، بهوية سيدي شيكر وقيمة رباطه عبر التاريخ المغربي، من حيث السلوك الديني والصوفي والتربوي والعلمي. وأكد أنه رمز لوحدة الصف الصوفي الروحي في المغرب من خلال قوله نصره الله: «ولا شك أن كل الزوايا الصوفية التي قامت في مختلف المدن والقرى، على توالي القرون، إنما استلهمت هذا النموذج، وتطيت بنفحاته الزكية العطرة»⁷، حيث أورد المدينة والقرية بصيغة الجمع مع العطف مما أفاد التعميم، ونص على هذا الأخير كذلك من خلال لفظ: "كل الزوايا الصوفية" المفيد لشمول كل الفضاء المكاني المغربي، وأقر ملتقى سيدي شيكر رمزا مشيرا لحقيقة الحضور الصوفي في المغرب عبر مختلف العصور والقرون.

أما المستوى الإنشائي التوجيهي، فيحسه القارئ من خلال لغة الأمر والتوجيه إلى الفعل، وعبارات الوجوب الدالة على قيمة التصوف في مشروع التنمية والإصلاح....، مما يكشف واحدا من أصول مؤسسة إمارة المؤمنين؛ أصل النصح والرعاية الدال من خلال سلطانه داخل نص الرسالة على وعي أمير المؤمنين جلاله الملك محمد السادس حفظه الله بذلك وسهره المتهادي من أجله، تحقيقا للأمن الروحي والديني وحفاظا عليه في المغرب.

في هذا السياق التوجيهي للمجتمعين في لقاء سيدي شيكر، ومن خلاله كل الملتقيات الصوفية، دعا أمير المؤمنين إلى الالتزام بضرورات منها:

6 - سورة الفتح، الآية: 10.

7 - من نص رسالة أمير المؤمنين إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شيكر للمتتبعين للتصوف، الموجهة يوم الجمعة 19 شتنبر 2008.

1 - ضرورة الالتزام بمنهاج الصفاء ونشدان الجوهر الرباني.

2 - ضرورة الالتزام بمبدأ الوحدة بين كل أهل التصوف، وإن تعددت الطرق وتنوعت الزوايا وكثر المريدون...، ما دام الأساس هو المشاركة في خدمة الدين والوطن. أما خدمة الدين فقد حدد أمير المؤمنين أصولها وآلياتها في الاعتصام بالكتاب والسنة، ونشر العلم، وتربية النفس وتزكيتها. وأما خدمة الوطن فبالامتثال للإمامة العظمى في شخص إمارة المؤمنين، والدفاع عن وحدة البلاد، وصيانة الهوية الثقافية المغربية من كل دخيل مخل.

3 - ضرورة ربط جسور التواصل بين هويتنا التراثية وهوية المعاصرة ليتأتى الاستمرار والإحياء المتزنان، وذلك - كما قال أمير المؤمنين في رسالته - «بنقل القيم التي قام عليها التصوف إلى الأجيال الجديدة، بالأسلوب الذي يجعلهم يستوعبونها ولا يتنكرون لها»، مما يفيد أن من مهام أهل التصوف ولقاءاتهم المعاصرة مشاركتهم في بناء المجتمع المسلم السليم؛ المحترم لتراثه والملتزم بأصوله والمسترشد بالصالح من ماضيه، مجددا له في حاضره، ومتسلحا به في مستقبله، بعيدا عن رعونات الطمع وكدر الأهواء.

4 - ضرورة الوعي بخصوصية المغرب الصوفية وتقديرها حق قدرها علما وعملا؛ ذلك أن التصوف، كما يفهم من رسالة أمير المؤمنين، وكما خلص إليه البحث في الفكر المغربي وتاريخه، يعد واحدا من أهم عناصر هويتنا المغربية ومقومات ثقافتنا وحضارتنا⁸.

ارتباطا بالمستويين الخطابيين المذكورين: الإخباري التوكيدي والإنشائي التوجيهي، وما اتصل بهما من عناصر موضوعية، وردت ورود تذكير توكيدي أو توجيه إلزامي والتزامي، سوغ لنا أسلوب فقرات الرسالة ومضمونها استخلاص مجموعة من الثوابت أو القناعات الصادرة من أمير المؤمنين محمد السادس أيده الله تجاه التصوف وأهله، تفيد دلالة الاقتناع والاطمئنان للتصوف وكفاءاته في خدمة الدين والوطن، نذكر منها تمثيلا ليس غير:

1 - هوية الرسوخ والصيانة، والمقصود رسوخ وصيانة الثوابت العقديّة والمذهبية، وثوابت الولاء لإمارة المؤمنين، ورسوخ التصوف السني واحدا من مكونات الهوية السلوكية الروحية والخلقية في المغرب.

8 - ينظر - تمثيلا لا حصرا - بعض كتابات عبد الله العروي، مثل les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912). F. Maspéro, Paris : 1977. وبعض كتابات محمد عابر الجابري، مثل: "المغرب المعاصر، الخصوصية والهوية... الحداثة والتنمية". مؤسسة بنشرة - الدار البيضاء، ط 1، 1988.

2 - هوية الحياة والحيوية، المتجلية في قدرة الإرث الصوفي على الاستمرار مع التجديد محليا وعالميا، وكيف أن المتصوفة أهل نفع وخير في المسار التنموي، إذ هم كما صرح أمير المؤمنين فأفاد: «أبناء وقتهم»⁹.

3 - هوية العمل مع الاجتهاد، وذلك بالفعل الصالح نشدانا للأصلح دنيا وأخرى، دينا وتربية ووطنية.

ولما كان المقصد هو خير الدين والبلاد والعباد، انطلاقا من مسؤولية الراعي تجاه الرعية، والتزام الرعية برباط الوفاء والولاء للراعي أمير المؤمنين، جاءت نهاية الرسالة مرتبطة بثلاثية : إخبار التذكير والتوكيد، وإنشاء التوجيه والإرشاد، وركيزة القناعة والاقتناع، وبد الالتزام بكل ذلك في مستقبل المسار الصوفي استنادا إلى ماضي هذا المسار وكفايات تجاوبه مع الحاضر والمستقبل. كل ذلك من خلال الانفتاح على دلالات الإيمان والاطمئنان والصلاح في الهوية والعمل، في الآن والمآل، مصداقا لقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾¹⁰.

تلکم كانت محاولة متواضعة لقراءة مختصرة لنص رسالة أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده التي توجه بها إلى المشاركين في لقاء سيدي شيكر في دورته الوطنية الأولى، رمنا من خلالها مجرد الإشارة إلى عناية أمير المؤمنين بالتصوف ورجالاته، وعمق وعيه نصره الله بقيمته علما وعملا وموهبة في كيان الذات المغربية قديما وحديثا ومستقبلا.

نعم، إن هذه القراءة مجرد محاولة بسيطة لمجموعة من الاعتبارات، منها:

1 - عمق الأفكار المطروقة في الرسالة، وتجدرها في المغرب إنسانا وزمانا ومكانا، تجدر تأصيل وتعميم يتجاوز حدود مناسبة ملتقى سيدي شيكر وفضاءه المكاني إلى كل المناسبات المماثلة، وكل المغرب وخارجه المرتبط به وبالإسلام والسلام.

2 - قوة التعلق بالأصول الشرعية والثواب العقديّة والمذهبية، والتنصيب المستمر على ذلك والعمل به في ظل منظومة الوسطية والاعتدال مفهوما وسلوكا، وعلما وعملا.

9 - رسالة أمير المؤمنين إلى ملتقى سيدي شيكر 2008.

10 - الرعد، الآيتان: 28-29.

3 - قيمة التصوف وتجربته في مسار الحياة الدينية عامة وفي المغرب خاصة، ومدى نجاعته في التربية الروحية والاجتماعية، وفي عموم مشروع التنمية البشرية المنطلق منذ سنوات بأمر من أمير المؤمنين وتوجيهه.

4 - خصوصية الطرح المنهجي للأفكار في رقعة الرسالة، وتميز نسجها داخل سياقها التداولي التركيبي.

بناء على هذه الاعتبارات وغيرها مما يماثلها أو يتفاعل معها، ويمكن أن يستشفه المتفحص لنص الرسالة، وارتباطا بما خلصت إليه القراءة المنجزة، تتأكد دلالة الانفتاح التي تميز هذه الرسالة إلى جانب رسوخ الثوابت التي تحكم هذا الانفتاح، والكل يزيد قيمة النص وصدقه وضوحا، وأصالته وشموليته مع الدقة بروزا.

إن ما ينبغي أن يستخلصه متلقي هذه الرسالة هو أن التصوف الإسلامي في جوهره وتفاعله مع باقي ثوابت الأمة؛ عقيدة ومذهبا وإمارة مؤمنين، بناء متزن للإنسان والإنسانية، نهجه أهل المغرب ومازالوا، في أفق تنموي وحضاري طموح ومتطلع ومنفتح، لا ولم يخصهم وحدهم بقدر ما سعوا دائما إلى نفع غيرهم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا تحت إمرة أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والمحصن لهذا الغنى الروحي الصوفي المميز للمغرب وأهله وكل من ارتبط ويرتبط بهم. ولا ريب أن التواصل في المبنى والمعنى الحاصل بين مختلف رسائل أمير المؤمنين محمد السادس وكلماته المتعلقة بموضوع ثابت السلوك والأخلاق الصوفية السنية هو رمز من رموز قوة هذا الثابت وعلامة من علامات دلالاته الانفتاحية انطلاقا من المغرب تجاه غيره من البلدان، ولنا أن نستشهد على ذلك ببعض قوله حفظه الله من رسالته إلى المشاركين في الاجتماع العام للطريقة التيجانية المنعقد في فاس سنة 2007 ليكون ختما لهذه القراءة ومدعاة في الآن نفسه لمزيد من التأمل والتدبر في هذا الثابت الروحي الصوفي، وفي قيمته التنموية في علاقته بباقي الثوابت الأخرى المشكلة للهوية المغربية الوسطية المعتدلة عقيدة ومذهبا وسلوكا وتديرا، تشكيل وحدة قوية يمتد إشعاعها داخلا وخارجا؛ يقول أمير المؤمنين محمد السادس حماء الله ونصره: «وإن المغرب، الذي يستقبل اليوم، فيكم حضرات السادة المشايخ والمريدين التيجانيين، من كل حذب وصوب، شموعا مضئية على درب التقوى والصلاح، والهداية الربانية إلى كل خير وفلاح، لعازم على أن يبقى وفيا لتراثه الروحي الحضاري، حريصا على أن يظل هذا البلد الأمين قطبا للطريقة التيجانية، مدعما ومساندا لكم في

العمل على مد إشعاعها، خدمة للتضامن الإسلامي المغربي الإفريقي، جاعلا منها أحد أعمدة الوحدة الإفريقية وآلياتها التربوية.

وإننا لنستحضر في هذا السياق ، انعقاد الدورة الأولى للطريقة التيجانية، منذ أكثر من عشرين عاما، بهذه المدينة بالذات في عهد والدنا المنعم، جلالة المغفور له الحسن الثاني قدس الله روحه، الذي أحى سنة أسلافه المنعمين، في رعاية مشايخ هذه الطريقة على أفضل مثال.

وبوصفنا أمير المؤمنين، وحاميا لحمى الملة والدين، فإننا متمسكون بالحفاظ على هذه الرعاية لكم، والارتقاء بها إلى ما تستحقه من سابغ العناية، حريصين على ترسيخ الروابط الروحية والأخوية بين بلدانكم الشقيقة، وقيادتها الحكيمة، وبين المغرب، لا نبتغي من ذلك سوى تحصين الإسلام السني السمح، النقي من البدع الضالة، ومن التطرف الأعمى، والتسييس المغرض.

... كما أننا سنواصل رعايتكم، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من خدمة المملكة المغربية للتضامن الإسلامي. وهي الأمانة التي نتقلدها، بكل صدق والتزام، بوصفنا أمير المؤمنين، متمسكين بها خلفا عن سلف، منطلقين من دعم الوشائج التاريخية القوية الجامعة بين المغرب وأشقائه، ولا سيما البلدان الإفريقية.

وإننا لتنتطلع في نفس الوقت ، إلى دعم كل أسباب التقارب بين المسلمين، في المشرق والمغرب، وتوحيد كلمتهم، واسترجاع رسالتهم الحضارية، عن طريق تقوية الأخلاق الإسلامية، التي هي الرصيد الذي لا ينفد، لكل تقدم وازدهار ونهضة واستقرار.

ولن يتحقق ذلك إلا بتفعيل قيم الإسلام المثلى في مجالات العمل المنتج والتعاون الموصول والإخاء الصادق، والانخراط الفاعل في جميع أورش التنمية البشرية، بكل ديار الإسلام، للقضاء على الفقر والخصاصة والتهميش وتحقيق العيش الكريم اللائق بالإنسان المسلم، بل وبكل إنسان حيثما كان، رجالا ونساء وأطفالا...»¹¹.

11 - من نص الرسالة السامية لأمير المؤمنين صاحب الجلالة محمد السادس نصره الله الموجهة إلى الاجتماع العام للطريقة التيجانية، المحررة في يوم الإثنين 9 جمادى الثانية 1482هـ، الموافق 25 يونيو 2007م.

ملحق

نص الرسالة السامية لأمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، الموجهة
إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شيكر للمنتسبين للتصوف:
الجمعة 19 شتنبر 2008م.

"الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه. أصحاب الفضيلة،
حضرات السيدات والسادة، يطيب لنا أن نتوجه بهذا الخطاب، إلى السيدات والسادة الأفاضل،
المشاركين في هذا الملتقى الديني الكبير، الذي أضفينا عليه، رعايتنا السامية، تجسيدا لما نوليه، كأمر
للمؤمنين وحام لحمى الملة والدين، للتوجه الصوفي السني، الذي تنتسبون إليه، من موصول عنايتنا؛
باعتباره من مكونات الهوية الروحية والأخلاقية، للشعب المغربي، في نطاق السنة المطهرة، والشريعة
الإسلامية السمحة، التي أكرمنا الله بها.

ونود الإشادة بالتثام هذا الملتقى المبارك، والتنويه بالجهود الخيرة، التي بذلت من أجل
إنجاحه؛ وتحقيق الغايات النبيلة من إقامته.

وحيثما أضفينا سابغ رعايتنا السامية على اللقاء الأول، من لقاءات سيدي شيكر العالمية،
للمنتسبين إلى التصوف، فقد أبينا إلا أن نؤكد حرص جلالتنا الشريفة، على صيانة القيم السامية،
والمثل العليا، التي التزم بها سلفنا الصالح، في هذا البلد الأمين، والنهوض بها طوقنا الله به، من أمانة
إمارة المؤمنين، القائمة على رعاية شؤون الدين.

وحتى نضفي على رعايتنا مضمونا ملموسا، وبعدا مستداما للقاء الوطني الأول من هذه
اللقاءات المباركة. فقد أذنا لوزيرنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية، بأن يتم تنظيم هذه اللقاءات،
في صيغتها العالمية، كل عامين، في فصل الربيع. كما أمرناه بإقامة لقاء وطني منتظم، حتى يتاح
لفعاليات مختلف الطرق والزوايا، المكونة للنسيج الصوفي بمملكتنا الشريفة، المشاركة، على الوجه
المرضي، كما وكيفا، في كل ما من شأنه دعم القيم الروحية، والفضائل الربانية، والتأطير الأخلاقي
للمجتمع. وهو ما اضطلعت بها طرق التصوف وزواياه في بلدنا، على امتداد العصور.

ولئن كانت الصيغة الدولية لهذه اللقاءات، ستحفظ لنا وشائج التواصل، والتعارف والتشاور
مع المهتمين بهذا المشرب، الناهلين من عذب زلاله، ولا سيما ذوي الأسانيد المتأصلة في المغرب،

باعتباره منبعاً زاهراً للعطاء المتميز، والريادة النموذجية في هذا المجال؛ فإن الصيغة الوطنية التي تدشنونها اليوم، تبررها ضرورة العناية بأحوال هذا التوجه الروحي من الداخل، حتى تتبين الوسائل والطرائق، الكفيلة باستثمار طاقاته في التنمية البشرية الخَلُقية، على أساس تفعيل دور التصوف، في التربية والتزكية، وتهذيب النفوس، والدفع بها إلى طلب السمو والاكتمال.

إنكم باجتماعكم هذا تحيون سُنَّة تاريخية طيبة، لأن لقاء سيدي شيكر مثل أحد المواسم الدينية الأولى التي ابتكرها المغاربة، في بدايات تاريخهم الإسلامي، بقصد الإرشاد والتنوير في شؤون الدين. ويعد الرباط الذي أقيم حول مسجده، مدرسة للجهد الأكبر، الذي هو إشاعة العلم الشرعي، وبناء الشخصية المسؤولة الفاضلة، التي تقوم على محاسبة النفس وامتلاك زمامها، وكبح جماحها أمام نزوات الهوى، والانحراف والضلال.

ولا عجب، فإن لقاءات سيدي شيكر الأولى، كانت تجمعات يُحج إليها العلماء والصالحون، ويحضرها آلاف الرجال والنساء، من كل جهات المغرب، لتلاوة القرآن الكريم، واستحضار السنة النبوية المطهرة، والإصغاء للموعظة الحسنة. وقد كان موعدها هو شهر رمضان المبارك. ولا شك أن كل الزوايا الصوفية، التي قامت في مختلف المدن والقرى، على توالي القرون، إنما استلهمت هذا النموذج، وتطيّبت بنفحاته الزكية العطرة.

أصحاب الفضيلة، حضرات السادة والسيدات، إن رعايتنا لأحوال الزوايا، على غرار سنن أجدادنا الميامين، تقدير عميق من جلالتنا، لإسهام الطرق الصوفية المغربية في الإرشاد الروحي، ونشر العلم والتنمية، والدفاع عن حوزة الوطن ووحدته، وتماسك المجتمع، وتشبث الهوية الدينية للمغاربة.

والتصوف، وإن كان مداره على التربية وترقية النفس في مدارج السلوك، فإن له تجليات على المجتمع. ومن هذه التجليات ما يظهر في أعمال التضامن والتكافل، وحب الخير للغير، والحلم والتسامح ومخاطبة الوجدان والقلوب، بما ينفعها ويقومها.

ومما يجب التنبيه إليه في هذا المقام، ضرورة التزام جميع الزوايا الصوفية بمنهاج الصفاء، الذي أسست عليه. وتنزيهاها عن الأعراض، والسمو بأهلها عن كل ما لا يليق بهم، من ابتغاء العاجل وترك الآجل.

إنكم في لقاءكم هذا كطائفة واحدة، مشربكم واحد وقصدكم واحد: خدمة الدين والوطن. أما خدمة الدين، فمنهجكم القويم فيها، يتمثل أساسا في الاعتصام بالكتاب والسنة، وإشاعة العلم، وتهذيب النفس بالإكثار من الذكر. يضاف إلى هذا عمل المعروف، وإغاثة الملهوف، وكل أنواع البر. وأما خدمة الوطن، فتمثل أساسا في القيام بالواجب نحو الإمامة العظمى، التي تمثلها إمارة المؤمنين، والحرص على خصوصيات المغرب الثقافية، حتى لا تضمحل تحت تأثير كل المشوشات الدخيلة. وبذلك تحفظ كل المقومات التي تتيح الطمأنينة والسكينة والأمن.

إن الحكمة المستمدة من التراث الذي هو وديعة لديكم، كفيلة بأن تجعلكم من كبار المسهمين الفعالين في الاندماج في كل ما تقتضيه سيرورة الإصلاح الشامل الذي نقوده.

ولاسيما بنقل القيم التي قام عليها التصوف إلى الأجيال الجديدة، بالأسلوب الذي يجعلهم يستوعبونها ولا يتنكرون لها. إنه الإحياء المطلوب من المنتسبين إلى التصوف. إحياء يسترشد بنماذج الصلاح في الماضي، ويعرف كيف يجددها في الحاضر، وينافس بها في المستقبل. ذلك لأن على المغرب، الذي يعتبره العارفون في العالم، منبت قيم الصلاح، المبني على فكرة التصوف بشكل استثنائي، عليه مسؤولية كبرى في هذا المقام، ندعوكم إلى تدبر أبعادها، وتقديرها حق قدرها.

إننا على يقين أن الرصيد الحي، الذي ورثه كل المنتسبين إلى التصوف، يتضمن القدرة على الاستمرارية والتجديد في آن واحد. الاستمرارية في صيانة الثوابت، في العقيدة والمذهب، والولاء لإمارة المؤمنين. والتجديد في المبادرات والسلوكات التي جعلت من أبناء الزوايا وأتباعها، أبناء وقتهم، ونماذج في القدوة وفي المسارعة إلى النفع، على النمط الذي أكسب هذه المؤسسة هبة وقدسية وتبجيلا، ومصدرا للخير العميم. فهو مورد كَرَعْنَا منه بالأمس، فما أحوجنا إلى النهل من معينه، في الحاضر والمستقبل، على ما عُهد في أصحابه من التجرد الذي لا تشوبه شائبة من الأطماع، ولا تكدره نوازع الأهواء.

فعسى أن يكون هذا اللقاء الأول، الذي نرحب بكل ضيوفه الكرام، من الفقهاء والصلحاء والمريدين؛ فاتحة عهد جديد، في حياة المنتسبين إلى التصوف في بلدنا، حتى إذا اجتمعوا بحول الله وقوته، في اللقاء الذي يليه، استعرضوا ما وفقهم الله إليه من ثمرات الاجتهاد، وتجديد العهد، والإقبال على طريق الحق. تحققا بوحدانية الله تعالى في منازل السائرين، ومدارج العابدين.

"الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب". صدق الله العظيم. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته".

رعاية شباب العالم القروي في الخطاب الملكية السامية

د. حسن عزوزي

مما لا شك فيه أن العرش بالنسبة للشعب المغربي يعتبر صمام أمنه ومجدد حياته ومحقق آماله، ولذلك فإن الاحتفال بعيد العرش المجيد يعتبر فرصة للتعبير القوي عن العواطف الجياشة التي يكتنزها صدر كل مغربي اعتزازا بملكه ومجدد نهضته.

إن ذكرى عيد العرش المجيد تعتبر محطة للتأمل والتفكير فيما يمكن أن يقدمه طموح ملك شاب وهمة عاهل فذ من منجزات وعطاءات لوطنه وشعبه. وقد أبانت السنوات المباركة من حكم جلالة الملك محمد السادس حفظه الله عن قيادة فريدة في تاريخ العرش المغربي تميزت بتجديد ساطع وتحديث رائع وتغيير واسع في مختلف المجالات والأصعدة. وهو ما يدعو إلى التأكيد على أن معالم التجديد والتحديث المنجزة ما كان لها أن تتحقق إلا على يد من حباه الله بذكاء متقد وحكمة بالغة وبعد نظر واسع وقوة في الرأي سديدة وفريدة.

ولعل من أبرز القضايا المجتمعية التي يوليها جلالتة عنايته الفائقة قضية الشباب التي تعتبر واحدة من أبرز القضايا التي تؤرق الدول والحكومات لأنها شرط من شروط تأمين المستقبل وتحصين الحاضر ضد مختلف الآفات وتوطيد أركان التنمية الشاملة، لأنه لا شيء يمكن أن يبنى بدون الشباب ولا يمكن لأمتنا أن تتفاعل تفاعلا إيجابيا مع متغيرات عصرها إلا بشبابها وليس بمقدورها أيضا أن تستشرف مستقبلها استشرافا موفقا إلا بشبابها.

لقد كان هم "المسألة الشبابية" ببلادنا حاضرا بقوة في خطاب جلالة الملك محمد السادس، حيث دعا حفظه الله في أول خطاب له بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب إلى إيجاد الحلول لمعضلة الشباب المغربي الذي يجد صعوبة في الحصول على منصب شغل يلائم طموحاته وتطلعاته؛ يقول حفظه الله: "... وكيف يراد إدراك التقدم العلمي ومواكبة العالم، وأفواج من شبابنا المتعلم والمؤهل عاطلة عن العمل تلقى الأبواب مغلقة أمامها دون كسب الرزق، بعيدا عن تكوين مناسب يفضي إلى

إظهار المواهب والكفاءات، وتمكينها من العلم الذي أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يكون نافعا مؤديا للعمل...".

وها نحن اليوم بعد خمسة عشر عاما نجد ذكرى عيد العرش المجيد تتجدد معها آمال الشباب وطموحاتهم التي تنسجم أتم الانسجام مع وعود جلالته بتحقيق ظروف أفضل وإمكانات أوسع وآفاق أرحب لشباب المغرب الطموح، الذي يسعى من خلال بحثه عن حياة أنسب وعيش أكرم إلى بناء وطن الغد وتحقيق تقدمه وازدهاره بالتشبيد والعطاء والتجديد.

إن الاهتمام الملكي بالمسألة الشبابية ينسجم مع نسبة الشباب في بلادنا، ولا شك أن إحدى المعطيات السوسولوجية الدالة التي تميز المجتمع المغربي المعاصر هو أنه مجتمع شباب في أغلبية سكانه، فأحدث الإحصاءات الرسمية تؤكد أن عدد المغاربة الذين لا تتجاوز أعمارهم خمسا وثلاثين سنة يشكلون أكثر من 60% من مجموع السكان، إلا أن هذه الفئة رغم حجمها وقوتها تبقى - في معظمها - بعيدة عن فرص المشاركة والإبداع والفعل الإيجابي.

ويعتبر شباب العالم القروي أكثر تأثرا بمختلف الآفات والمشاكل التي تعترض سبيل الشباب بصفة عامة، فهم أكثر حرمانا من فرص المشاركة، وأكثر عرضة لمشاكل البطالة والتهميش والهجرة العشوائية والمراوحة اليائسة في الحلقات المفرغة. ولذلك نجد الملك محمد السادس حفظه الله - وعيا منه بهذه المشاكل - يدعو دائما إلى تحقيق فرص المشاركة لشباب متفائل غير يائس من الحياة يحذوه أمل الحصول على ما يتمناه ويرضيه في العمل والحياة الرغيدة.

ولا شك أن دراسة واستيعاب واقع المجال القروي والمواقف الاجتماعية التي يعيشها شباب العالم القروي هو الأساس الذي يجب الانطلاق منه لفهم قضايا الشباب القروي، وكل محاولة لفصلها عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للبيئة القروية لن تؤدي إلى ما هو منشود في سياق البحث عن حلول لمشاكل شباب العالم القروي، لذلك فإن تنمية البادية المغربية على جميع المستويات والعمل على معالجة مواطن الخلل والعجز التي يعاني منها المواطنون القرويون، كل ذلك يسهم بقوة في إتاحة الفرص الممكنة للشباب القروي لكي يسهم في تنمية بلاده.

وهذا ما دعا إليه جلالة الملك حفظه الله مباشرة بعد توليه عرش أسلافه المنعمين حيث قال في رسالته الملكية السامية الموجهة إلى المشاركين في الدورة الثامنة للمجلس الوطني للشباب والمستقبل: "... إلا أننا بقدر ما نولي اهتماما للجوانب الاقتصادية لتنمية مناطقنا القروية فإننا نضع تكوين

الإنسان القروي في صدارة انشغالاتنا، فاستدراك العجز الذي يعانيه عالمنا القروي في شتى الميادين مرهون بمدد مواطنينا في هذا الجزء من التراب الوطني بالمعارف والمهارات التي تجعلهم خاصة الشباب والمرأة منهم قادرين على إنجاز التغيير الذي تقتضيه التنمية القروية".¹

وهكذا فإذا كان الشاب القروي يعتبر وليد بيئته النفسية والاجتماعية ويكتسب كثيرا من خصائصه وصفاته واتجاهاته عن طريق التفاعل مع البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، فإن تنميته تتوقف على مدى تنمية العالم القروي الذي يعيش فيه. فالاهتمام بالشباب دون الاهتمام بالوسط الذي يعيشون فيه والبيئة التي يتفاعلون معها فيه مضيعة لكثير من الجهد الذي يبذل بهذا الصدد.

ومن سبل تحقيق التغيير المطلوب لشباب العالم القروي كما دعا إلى ذلك جلالته الاهتمام بإدماج الشباب، ذلك أن مسألة الاندماج لدى شباب العالم القروي في حدتها ترتبط بوضعية المجتمع المحيط من جهة وبمدى قدرة الشباب وقابليتهم لتمثيل القيم السائدة والتفاعل معها بما يقتضيه التكيف والتلاؤم من جهة والفاعلية الابتكارية والمجددة لدى الشباب من جهة أخرى، وهذا ما رمى إليه جلالة الملك حفظه الله وهو يتحدث عن قضايا التنمية الشاملة في رسالته السامية الموجهة إلى الوزير الأول حول المخطط الخماسي²؛ حيث قال:

"... وعلى هذا الأساس يتعين تصور استراتيجية تنموية مندمجة بهدف تنفيذها إلى تقوية بنيات المجتمع وإدماج مختلف مكوناته وتمتين نسيج وحدته، ويتعلق الأمر أساسا بما يلي:

أولا: النهوض بالمناطق المعوزة وإلحاقها بدينامية التنمية وبصفة خاصة تدارك التأخر الذي يعانيه العالم القروي في مجال التجهيزات الاقتصادية والاجتماعية ومعالجة تدني مستوى الدخل وانتشار الأمية ونقص الخدمات الاجتماعية.

ثانيا: إدماج الشباب وفي مقدمته الشباب المتعلم في مسلسل الإنتاج سعيا لاستثمار طاقاته المتميزة والاستفادة من مؤهلاته العالية في خدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد يحفزها على الإبداع والابتكار والاعتماد على الذات..."

وبذلك فالشباب، ومنهم شباب العالم القروي، يعتبرون رمزا للقوة والعطاء، وهم في حاجة إلى التوجيه الكافي ليصرفوا قوتهم وعطاءهم فيما ينفع الوطن والأمة ويخدم التنمية الاقتصادية

1 - يوم الثلاثاء 18 يناير 2000.

2 - يوم 16 دجنبر 1999.

والاجتماعية للبلاد، ولذلك كان الإعداد لرعاية الشباب يحتاج إلى مخططات ومشاريع ترسم معالم الطريق القويم أمامهم لكي يستمدوا منه ما يدفعهم - كما قال جلالتة - إلى الإبداع والابتكار والاعتماد على الذات.

ولما كانت المهنة من أهم محددات الوضع الاجتماعي للفرد في المجتمعات المعاصرة، فإن الإدماج المهني لشباب العالم القروي يرتبط بتكوين وتبلور الميول والاهتمامات المحددة والمناسبة التي يؤسس عليها الشباب اختياره المهني المستقبلي، وهو يعد دعامة مفصلية ورافعة قوية في عملية بناء مشروع حياة الإنسان القروي بشكل عام.

إن معضلة بطالة شباب العالم القروي ولاسيما المتعلمين منهم وما تطرحه من مشكلات تتعلق بإدماجهم المهني والاجتماعي توضح لنا أن هذه المعضلة قد أنتجها سياق تربوي واجتماعي واقتصادي صعب يفرزه المجتمع القروي الذي يعاني عموما من الفقر والأمية والهشاشة، ومهما كانت هناك تحولات كبيرة على مستوى اعتناق كثير من البوادي المغربية من واقعها الصعب حيث أضحى كثير من شبابنا أكثر حركية وأبعد اقتحاما للمجال العمومي وأكثر تبنيًا لأنماط الشغل وأساليب العيش الحضرية إلا أنها تبقى بحاجة إلى الرعاية والتطوير، وهو ما دعا إليه جلالة الملك محمد السادس حفظه الله في كثير من خطبه الداعية إلى وضع استراتيجيات وسياسات تربوية وتكوينية وتشغيلية تستهدف شباب العالم القروي وفي مقدمتهم الشباب المتعلم وهو ما أفرز إنشاء العديد من المجالس الوطنية التي تتكامل ضمنها كل الأطراف المعنية بقطاعات التربية والتكوين والتشغيل، يقول جلالتة حفظه الله في خطابه أثناء افتتاح أشغال المجلس الأعلى للانعاش الوطني والتخطيط³، "... إن النهوض بالمناطق المعوزة والحد من الفوارق الاجتماعية وتنمية العالم القروي ومحاربة الفقر والتمهيش وإشراك المرأة في التنمية وتمكينها من ممارسة جميع حقوقها وإصلاح النظام التربوي والتعليمي، وتأهيل الموارد البشرية والاعتناء بالتشغيل وإدماج الشباب وفي مقدمتهم الشباب المتعلم في المسلسل الإنتاجي تكون من الأولويات الرئيسية التي يجب أن ينكب عليها عملنا المستقبلي في إطار مقاربة عقلانية كفيلة بتحقيق الإدماج المنشود".

من جهة أخرى إذا كانت العناية بالشباب عموما تتناول في الغالب مشاكل الشباب المتعلم كما جاء في الخطاب الملكي فإنه في العالم القروي لا بد من العناية بالشباب العامل في مختلف القطاعات وبخاصة تلك المرتبطة بالمجال الفلاحي الذي يكثُر اشتغال أبناء البادية في إطاره.

ولا شك أن حسن الرعاية لهذه الفئة من الشباب تعتبر ضرورة تحتّمها مصلحة المجتمع كما تحتّمها مصلحة التنمية الشاملة التي تتطلب طاقات بشرية في مختلف المجالات. إن مثل هذه الرعاية المطلوبة من شأنها أن تساعد شباب العالم القروي المسهم في تنمية بلدته على كشف وتنمية إمكاناته وميوله وقدراته الجسمية والعقلية والاجتماعية وعلى الإعداد للدور المتوقع منه في المساهمة في تنمية مجتمعه، إنها ضرورة إنمائية لأنه لا يمكن تحقيق تنمية اجتماعية واقتصادية بدون أن يكون وراءها ويشدها ويدفع إليها ويشارك فيها بقوة وفاعلية جيل من الشباب المسلم الواعي لمشكلات مجتمعه ولتطلبات عصره والقادر على الإبداع واستخدام وسائل الإنتاج.

وبهذا يمكن التأكيد على أن رعاية الشباب في المجتمع المغربي ينبغي أن تكون شاملة لجميع عناصر الشباب فيها بحيث تشمل شباب المناطق الحضرية والقروية على السواء. فهذه الرعاية الشاملة يمكن تحقيق نهضة اجتماعية شاملة، وإن الإيمان بمبدأ الشمول لجميع عناصر وفئات الشباب المغربي في خطط وبرامج وجهود رعايتهم كما جاءت معالمها في التوجيهات الملكية السامية يجبر قطعاً إلى الوقوف عند أهمية الاعتناء بالفتاة القروية، على اعتبار كونها تعيش ظروفًا اجتماعية واقتصادية وثقافية أكثر صعوبة. ولذلك جاء التوجيه الملكي قويا في هذا الاتجاه حيث نجد مقتطفات كثيرة في الخطب الملكية تدعو إلى الاهتمام بالفتاة القروية والعمل على النهوض بظروفها الاجتماعية وتوفير متطلبات الرعاية والحماية لها؛ يقول جلالة الملك حفظه الله في رسالته السامية إلى المشاركين في الندوة الإسلامية الدولية حول موضوع: "المرأة المسلمة والعلوم"⁴: "... لا بد من إشراك المرأة في تنمية المجتمع علميا وعمليا بإتاحة أكبر الفرص أمامها ليس فقط لنيل قسط من التعليم مهما يكن هذا القسط كبيرا ووافرا مع الحاجة إلى تعميمه حتى يكون للفتاة القروية حظ مناسب منه ولكن كذلك لإظهار تفوقها العلمي وكذا لتطوير مهاراتها وترقية ملكاتها ثم للممارسة دورها في صياغة المستقبل على أفضل الوجوه".

وإذا كان الشباب يشتركون ذكورا وإناثا في الحاجات الأساسية المتعلقة بالحق في التعليم والتثقيف فإنهم يختلفون في درجة ذلك تبعا لتباين مستويات إشباع هذه الحاجات، ومن مظاهر هذا الاختلاف نقص الفرص المتاحة أمام الفتاة القروية التي غالبا ما تعيش ظروفًا عائلية واجتماعية نابعة من الاتجاهات التربوية والاجتماعية المحافظة في مجال رعاية الفتيات، كما نجد تباينا في فرص التعليم

التي ينبنى عليها النضج الفكري للشباب كما تدل على ذلك تقديرات نسبة التمدرس، حيث إن فرص تعلم الفتاة القروية قليلة جدا، كما أن فرص العمل التي تستفيد منها تعتبر أقل بكثير مما يستفيدة الذكور، وبذلك تتباين فرص المساهمة في الحياة الاجتماعية والانتماء إلى الجمعيات الثقافية والاجتماعية التي تسهم في إكساب الشابة القروية النضج الاجتماعي المنشود.

إن العمل على توفير نسبة أكبر لتمدرس الفتاة القروية كفيل بإصلاح أوضاع الأسرة القروية وتحقيق التنمية المطلوبة من خلال اعتماد مقاربات وبرامج وطنية نموذجية. يقول جلالة الملك محمد السادس حفظه الله في حديث خص به مجلة La Médina⁵: "...إننا واعون بأن تمدرس الأطفال هو محور تنمية العالم القروي بل إنه لهذا السبب انصب اهتمامنا في المقام الأول على الفتاة في العالم القروي حيث أكبر نسبة من انعدام التمدرس. لقد شيدت مؤسسة محمد الخامس للتضامن في مختلف مناطق المغرب العديد من مراكز الإيواء التي ستمكن المئات من الفتيات من متابعة تعليمهن الأساسي وما بعده، إننا نسجل بارتياح التأثير الإيجابي لهذا البرنامج الذي أصبح مثالا يحتذى به فاعلون اجتماعيون آخرون..."

وإذا كانت رعاية الشباب إنما تتم عبر قنوات تنموية محددة ومن خلال توفير خطط وبرامج عمل اجتماعية واقتصادية وثقافية فإن جانب التوجيه الديني بما يسهم به من تعزيز القيم والمبادئ المثلى يبقى له دوره الأساس في حماية الشباب ورعايتهم بما يضمن أمنهم الروحي وتمسكهم بالثوابت الدينية والوطنية. يقول جلالة الملك حفظه الله في خطابه السامي في افتتاح الدورة الأولى لأعمال المجلس العلمي الأعلى⁶: "وقد أبينّا إلا أن نشرّك في هذا اللقاء علاوة على أعضاء المجالس العلمية الأعلى منها والمحلية نخبة من العالمات والعلماء الأفاضل اعتبارا منا لإسهامهم الفاعل في النهوض بالدور المنوط بهم تأطيرا وتوجيها وإرشادا وتنويرا مع الإصغاء عن قرب للمواطنين في مشاغلهم الدينية ولا سيما الشباب منهم".

وإذا كان شباب العالم القروي يعتبرون الفئة الأكثر تعطشا وتشوفا إلى برامج التوجيه الديني الهادف، فإن استهداف المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية هؤلاء بالتأطير والتوجيه يأتي ضمن أولويات عمل المؤسسة العلمية وتدخلها، وذلك بناء على التوجيهات الملكية السامية الداعية إلى إيلاء نساء وشباب العالم القروي كامل الرعاية والعناية والتوجيه الديني القويم.

5- 11 يوليوز 2002 بباريس.

6- 8 يوليوز 2005 بفاس.

إن المجالس العلمية المحلية التي يشرف معظمها على قطاع عريض من المجال القروي ببلادنا لا تدخر جهدا في إيلاء ساكنتها التوجيه الديني والاجتماعي الشامل، وهي بما تتوفر عليه من إمكانيات وقدرات تسعى من خلال عمل مختلف اللجن التابعة لها إلى تغطية أكبر نسبة من القطاع القروي الذي ينتمي إلى مناطق نفوذها، ولا شك أن جانب التوجيه الديني بما يسهم به من تعزيز للقيم والمبادئ المثل لديننا الحنيف يتميز بدوره الأساس في حماية الشباب ورعايتهم بما يضمن أمنهم الروحي وتمسكهم القوي بالثوابت الدينية والوطنية.

ولا يخفى أن الاستثمار في مجال التوعية الدينية وتمكين شباب العالم القروي من المعرفة بمختلف أنواعها يعد استثمارا من أجل الرفع من مستوى الوعي الديني والثقافي والقضاء على الجهل والأمية الدينية.

وبصفة عامة فإن الاهتمام بالمسألة الشبابية كمحرك للتنمية البشرية والاجتماعية هو اهتمام بكرامة المواطن المغربي في المدينة والبادية على السواء باعتباره عنصرا فاعلا في كل التحولات المرتقبة، وإن شباب العالم القروي باعتبارهم مواطنين في المجتمع لهم حقوق وعليهم واجبات مؤهلون للمشاركة في الاضطلاع بمهام التنمية وفي إحداثها واستثمار نتائجها.

مقالات عامة

جغرافية انتشار العلويين السجلماسيين في المغرب الأقصى في القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر الميلادي

ذ. مولاي هاشم العلوي القاسمي

تقديم

اهتم المؤرخون والباحثون عامة بتاريخ العلويين الحسنيين السجلماسيين خاصة في مرحلة تكوين الدولة العلوية الشريفة في المغرب الأقصى حوالي 40-1050هـ/1640م، ودرج البحث عامة على الاهتمام بالتاريخ السياسي لنشأة حكم هذه الأسرة في تاريخ المغرب الأقصى، غير أن الاهتمام لم ينصب على "الجوانب الأخرى المؤسسة للدولة" ومن بينها مسألة الاتصال والتواصل بين أفراد هذه الأسرة ورجالها بعناصر المجتمع المغربي من قبائل وسلالات على اختلاف مواقعها، حيث إن الارتباط بين شرفاء سجلماسة وباقي عناصر المجتمع تم وتحقيق على امتداد مراحل منذ وصول الحسن الداخل أو القادم إلى المغرب حوالي 664هـ/1265م¹. وقد اهتم مؤرخو الأسرة والدولة العلوية بتطور تاريخها السياسي إلى أن تحققت سلطتها الشاملة في منتصف القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، وهذا الاهتمام يؤدي إلى تعميق التعريف بهذا الجانب وأغفل عناصر أخرى من أهمها الارتباط التواصل بين أشرف سجلماسة وباقي جهات المغرب، وهذا الجانب لا يحققه التأريخ السياسي للدولة العلوية، وإنما يتطلب البحث في الوقائع الاجتماعية على أساس عنصر هام في تاريخ المغرب هو الاعتماد على "كتب الأنساب" التي أرخت لتاريخ أفراد الأسرة وتفرعاتها وإقامتهم في جهات متعددة من المغرب مما تحقق معه التعريف بالأسرة العلوية السجلماسية في المجتمع المغربي وهذا الجانب أن حقق نتيجة أساسية في تاريخ الأسرة جعلها عنصرا بشريا معروفا ومقدما لتولي شأن

1 - نرجح هنا ونعتمد رواية شيخ الأسرة العلوية الحسنية السجلماسية وهو مولاي عبد الله بن علي بن طاهر المتوفى سنة 1142هـ دفين مدغرة على بعد 3 كلم من الرشيدية في اتجاه الريصاني بتايفاللت، وقد عاصر هذا الشيخ بداية نشأة الإمارة العلوية ومولاي الشريف أبا الأملك مولاي محمد ومولاي رشيد ومولاي إسماعيل.

الدولة والسلطة في البيئة المغربية، وقد سهل ذلك عملية الاعتراف الشعبي بسلطة الدولة العلوية السجلماسية الحسنية، فكيف كان هذا الانتشار؟ وكيف تم التواصل بين أفراد الأسرة وعناصر المجتمع المغربي على اختلاف هياتهم؟ وما هي الأسس التي قدموا بها أنفسهم للمغاربة في البوادي والحوضر، وخاصة المدن الكبرى العاملة في المغرب مثل فاس ومراكش؟

المهم هو أن هذا الحضور العلوي السجلماسي في المغرب بدأ قبل قيام الدولة، ويتبين من خلال مصادر الأنساب ومراجعنا المعتمدة فيها أن العملية بدأت تظهر بوادرها منذ عصر زعيم الأسرة العلوية في سجلماسة-تافيلالت وهو مولاي علي الشريف الحسني السجلماسي المتوفى رحمه الله سنة 847هـ/1443م وهذا ما سنحاول دراسته في المقالات والأبحاث اللاحقة².

I - المحددات المرجعية

يفرض علينا هذا العنوان أن نناقش النقط الآتية :

أ - مسألة توسع الأسرة العلوية الحسنية السجلماسية بعد وفاة رئيسها الأكبر والأشهر "مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل"، فهو عمدة هذه الأسرة وقعدودها الأكبر في المغرب الأقصى مع أخيه أبي البركات عبد الرحمن الذي انتشر أبنائه خارج سجلماسة وإقليمها منذ بداية ظهور الأسرة في المنطقة السجلماسية. وقد برزت أماننا بعد وفاة مولاي علي الشريف حوالي سنة 847هـ/1443م إلى ميلاد ونشأة الدولة السعدية في أوائل القرن العاشر الهجري 916هـ/ السادس عشر للميلاد 1510م، وهذه فترة شهدت فيها الأسرة العلوية تطورا وتحولا كبيرا حيث عاشت خلالها في سلم وأمان واحتضان اجتماعي فيلالي مغربي أصيل، ضمها المغاربة بالأحضان على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم وتفرعات أنسابهم وسلالاتهم المختلفة وتقربوا إليها وبها لتحقيق مصالحهم ومنافعهم الدنيوية والأخروية، فاعتقدوا فيهم المدد الأكبر في الحياة وبعد الممات، فهم أهل البيت وفرع الدوحة النبوية الشريفة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ب - معالجة إشكال وحقيقة التواصل الذي يربط هذه الأسرة بالأقاليم التي هاجرت وانتقلت إليها ووجدت فيها من تافيلالت-سجلماسة إلى مناطق الانتشار والاستيطان الجديد كفروع

2 - نعمل على متابعة أبحاثنا في مجلة دعوة الحق بوجه خاص في الأعداد اللاحقة لتوضيح هذا الطرح المتعلق بالدولة العلوية قبل توليها الحكم في منتصف القرن 11هـ/17م.

أسرية شريفة، وهذا لا يتضح إلا مع ضبط هذا الجانب بالاعتماد على ما توصلنا إليه من كتب الأنساب والتي اهتمت بفروع الأسرة وجذورها ومناطق وجودها في كل الجهات التي وصلت إليها انطلاقا من سجلماسة-تافيلالت، وهذا العنصر الهام أعطانا صورة جديدة واستنتاجا لصورة يجب اكتشافها وهي أن "الانتشار الأسري" لسلالة العلويين السجلماسيين لم يكن مسألة اعتبارية ولا خارجة عن الطابع غير المنظم والمقصود، وإنما كان مسألة ذات خصوصية تحقق الهدف الأكبر من استقدام هذه الأسرة من ينبع النخيل وهو دعم حقيقة الشرف في المغرب ووضعها في كيان له اعتبار هام جدا في المجتمع المغربي، وهذا ما يجعلنا نفترض أن مسألة الانتشار الأسري للعلويين خارج تافيلالت كان مبنيا على "خطة غير معلن عنها"، فقد انتقلوا وتوزعوا بقصد إبراز الوجود العلوي السجلماسي في الاعتبارات المجتمعية التي تجعل من واقع و"نظام التصوف" في الحياة الاجتماعية الدينية المغربية شرطا أساسيا لبناء الحياة الدينية والاجتماعية ذات البعد الروحي والسياسي والاقتصادي في نفس الوقت وهذا الواقع والنمط المجتمعي بدأ في مرحلة القرن التاسع للهجرة والعاشر / الخامس عشر والسادس عشر الميلادي في حياة مولاي علي الشريف ومعه وربما بإرشاده وتوجيهه، بدأ يتبلور في ملحمة اجتماعية شروطها مهياة ومنظمة ومرتبة، سبق لشيخو التصوف منذ القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد أن بلوروها في الحياة الاجتماعية المغربية، وقد تبين ذلك مع رجال الفكر في المجتمع المغربي الذين اعتمدتهم شيخو الأسرة العلوية وعلماء سجلماسة السنيون، كما حصل مع أبي الحسن الشاذلي ومحمد بن عباد الرندي³، فقد تلاحم الاتجاه الصوفي الشاذلي السني مع البناء النسبي الأصيل للأسرة الحسنية العلوية السجلماسية وكونا اتجاها نمطيا في الحياة الدينية والعقلية انتصرا بالطبيعة السليمة للروح الدينية الوسطية ذات البعد الإسلامي السمع الذي لا تشوبه تعقيدات الطرق المبنية على الشطحات، وحلقات الحضرة والكلام غير المقبول شرعا، بحيث صار شيخو الأسرة ورجالها من علماء وأفاضل يرتبطون بالسنة الصحيحة السليمة والاتجاه الوسطي الذي استمر تقليده في المجتمع المغربي الديني الذي شرحه شيخو التصوف العلماء والفقهاء المتمكنون من الاعتقاد الصحيح السليم. وهكذا صارت الأسرة الحسنية السجلماسية في كل مناطق

3 - Nwyia P., Un mystique prédicateur à la Qarawiyyin de Fès: IBN ABBAD DE RONDA. (1332 -1390).
+ Une voie soufie dans le monde: La Shadhiliyya. Maisonneuve et Larose, Paris, 2005.

Massignon L., La passion de Husayn ibn Mansûr Hallâj : martyr mystique de l'islam exécuté à Bagdad le 26 mars 922 : étude d'histoire religieuse ,Gallimard, Paris, 2010.

انتشارها خلال هذه الفترة، أي القرن التاسع والعاشر الهجريين، قدوة وملاذا حتى نafسها في هذا الاتجاه نماذج أخرى، ونذكر من بينها من له قدم راسخ في هذا الاتجاه صحيح مثل الشيخ محمد بن سليمان الجزولي الشيخ الروحي الصوفي للدولة السعدية في المغرب بالسوس.

ج - الطابع المحدود لرجالات الأسرة خلال هذه الفترة، فلم يكونوا قوة بشرية كبيرة، فشجرة الأنساب التي رسمتها أوثق كتب الأنساب لمشجر أبناء مولاي علي الشريف وأخيه أبي البركات شجرة محدودة جدا ولم تبدأ في التكاثر وتعداد أفرادها إلا بعد الجيل اللاحق لمولاي علي الشريف وهم أبناء يوسف أبي الجمال بن مولاي علي الشريف ومولاي محمد وكذلك أبناء وحفدة أبي البركات عبد الرحمن أخي مولاي علي الشريف، وقد ضبط ذلك أصحاب كتب الأنساب واهتموا بتفريعات الأسرة العلوية التي امتدت فروعها في مناطق انتشارها بالمغرب الأقصى عموما، وهذا ما حدده ابن دفين طيبة الذي يرجع أصل التفريع والانتشار في بقاع المغرب بناء على ما ذكره من رجالات الأسرة منذ مولاي علي الشريف وابنيه مولاي محمد جد المحمدين والفضيليين الذين سكنوا فاس بعد جدهم الأعلى مولاي علي الشريف، وكذلك أبناء أبي الجمال يوسف، فقد قال في هذا الصدد: "فتبين من هذا أن مولاي علي الشريف رضي الله عنه لم يخلف إلا ولدين أبا الفضل مولانا محمد وأبا الفلاح مولانا يوسف لا غيرهما لمن يتكلم، فخلف أبو الفضل مولانا محمد أربعة أولاد وهم: مولانا الحسن، ومولانا عبد الله وهما شقيقان، ومولانا علي، ومولانا قاسم وهما شقيقان أيضا. وخلف أبو الفلاح مولانا يوسف تسعة أولاد خمسة منهم مع زوجه الخليفة من قصر الخلفي بانبندور من سجلماسة، أشقاء فيما بينهم، وهم مولانا أبو الطيب، ومولانا أحمد، ومولانا عبد الله، ومولانا علي، ومولانا عبد الواحد وهو أبو الغيث، نفع الله ببركاتهم، وأربعة منهم مع زوجه الطاهرتية من تانجيوت من سجلماسة أشقاء فيما بينهم، وهم مولانا الحسن، ومولانا عبد الكبير، ومولانا محمد، ومولانا عبد الرحمان، نفعنا الله ببركاتهم، فمن هؤلاء الثلاثة عشر رجلا تفرعت الأشراف أولاد مولانا علي الشريف، ويميز بينهم، فيقال فيهم أولاد محمد وأولاد يوسف كما

4 - راجع: المسناوي، النسب الوثيق. الفضيلي، الدرر البهية، ابن الحاج، الإشراف على نسب الأشراف، محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، 4 أجزاء. محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر، جزءان، تحقيق مولاي هاشم العلوي القاسمي. الزكي العلوي، مطالع الزهراء. المقرئ، كنز الأسرار. ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف. عبد السلام بن الطيب القادري، الدرر السني فيمن بفاس من أهل النسب الحسنی.

رأيت...⁵، فهذه هي الفروع الكبرى التي تفرعت منها الأسرة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين. وهذا التفرع الأسري السلالي احتفظت به كتب الأنساب التي أرخت للسلالة الحسنية السجلماسية وانتشارها وعلاقاتها الاجتماعية بالمغاربة عموماً⁶.

وإذا حاولنا أن نرصد هذا الانتشار الذي حققته عناصر الأسرة الحسنية السجلماسية من أبناء مولاي علي الشريف وأقاربهم من أبناء أبي البركات عبد الرحمن الشريف، نجد أن حقيقة الوجود الذي أعطته مرحلة القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد بكل تواصلاتها وتفاعلاتها ومشاكلها التاريخية الكبرى خصوصاً بعدما كانت ظروف سقوط سبتة سنة 818هـ/1415م في يد البرتغال وبعد ذلك في يد الإسبان، هذه التفاعلات يمكن تبسيطها في شكل يحدد خريطة الوجود والتواصل الفعليين الممتدين في الجهات التي ساد فيها تأثير الزوايا وطرق الطوائف الصوفية على امتداد الخريطة المغربية في الجهات الغربية، مثل منطقة تامسنا وما والاها من مصب أم الربيع حيث يسود تأثير أبي شعيب السارية صاحب أزموور وما إليها بمنطقة المغاريين أصحاب أبي زيد يعقوب أمغار الذي انتشر صيته وتأثيره في الجهات الغربية بأقاليم دكالة وعبدية والشيظمة حيث نجد تأثير الشيخ أبي محمد صالح صاحب الطائفة المشهورة التي بدأ بها انتشار الزوايا بمعناها الطائفي (انظر تحليلات الأستاذ الدكتور محمد القبلي في دراساته الهامة والجادة عن هذه الظاهرة في المنطقة)⁷.

II - انتشار أبناء عبد الرحمن أبي البركات:

أما أبناء مولاي عبد الرحمن أبي البركات، فإنهم قليلون بالنسبة لأبناء عمهم مولاي علي الشريف الأكبر ومنازلهم من تافيلالت - سجلماسية، البلاغمة وأولاد عميرة بالرتب على بعد ما يقارب أربعين كيلومتراً شمال تافيلالت ويشتهرون بأولاد "أبو حميد"، وأكثرهم ببني زروال من جبل الزيب "جباله" عمالة تاونات على بعد سبعين كيلومتراً من فاس بمركز القليعة وودكا، ولهم هناك

5 - ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف، ص 25.

6 - الفضيلي، الدرر البهية ج 1. الزكي العلوي، مطالع الزهراء. المقري، كنز الأسرار. ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف. القادري، التقاط الدرر + نشر المثنائي. مولاي علي بن المصطفى، فتح القدوس...

7 - نقصد بهذا الشكل ترسيمة تبسط التفرعات السلالية النسبية وتبسط خريطة الانتشار التي نتجت مع الانتقال إلى المدن الكبرى من سجلماسية إلى إقليمها، ثم إلى المدن الكبرى والمواقع المهمة مثل حوض سبو فاس وكذلك مكناسة الزيتون ثم جنوباً في وادي درعة ثم السوس وتوات ووادي الساورة وبلاد تكتة وشنقيط ثم بلاد إفريقية جنوب الصحراء عبر طريق الحجيج من غرب إفريقيا إلى حوض وادي النيل ثم الحجاز.

شهرة وزاوية تعرف بزاوية "أبو بريح"، "ويتنافسون في أفعال البر وطلب العلم، وغير ذلك من الخصال وجميل الفعال، ولأهل تلك الأقطار فيهم كبير اعتقاد يستشفعون بهم في الأزمات، ويقدمونهم في المهمات... وأما انتقاهم من تلك الأصقاع وحلولهم بهذه البقاع، فلأسباب صدرت من صاحب الترجمة [مولاي عبد الرحمن أبي البركات] في جانب أخيه السيد علي أضربنا عنها وطهرنا هذه السطور منها، إذ الإعراض عما شجر بينهم [من خلاف ونزاع داخلي أسري] أليق بجانبهم الكريم وأوفق بنا لما لهم من التعظيم والتكريم"⁸. وجدهم القادم من تافيلالت هو "أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الرحمن أبي البركات، وقد صاهر مولاي أحمد هذا الولي الشهير أبا الشتاء الخمار ومن بنته عقبه، وكان معاصرا للشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى دفين مكناسة الزيتون. وقام بالملك قبل ولاية بني عمهم، الشريف الوجيه مولاي محمد الشريف المدعو بـ "بوعلاقة"، وبعد قيام مولاي الرشيد بن مولاي الشريف العلوي السجلاني بعد أخيه مولاي محمد بن الشريف قبضه وسجنه بفاس، وبعد ذلك سرحه من السجن وولاه على ذلك الجبل ونواحيه..."⁹. ولعل الشريف مولاي محمد بوعلاقة هو الذي هيا للسلطان مولاي الرشيد للقيام بحملة بجبل الزيب وبلاد الريف بما في ذلك الدخول إلى المزمة "الحسيمة" والمصاهرة والحصول على بيعة زعيمها "أعراس" الذي تصاهر مع السلطان مولاي الرشيد في أواسط القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد¹⁰، فكان ذلك عاملا من عوامل تمهيد الريف للدولة العلوية في عهد السلطان مولاي الرشيد.

8 - الفضيلي، الدرر البهية، ج1، ص 114.

9 - الزكي العلوي، مطالع الزهراء، و401. عبد العزيز العلوي، الأنوار السنية. وهذا يعني أن الانتشار خارج تافيلالت كان مقصودا وتحقق أهداف اجتماعية سياسية خاصة بالأسرة العلوية الكبرى.

10 - انظر الاستقصا في موضوع نشأة الدولة العلوية.

مشجر رقم 1: أبناء وحفدة مولاي عبد الرحمن أبي البركات

الحسن الداخل

(توفي سنة 676 أو 706 حسب الروايات)

↓
محمد

(لم يعقب إلا ذكرا واحدا)

↓
الحسن

مولاي علي الشريف أبو المغازي

(توفي سنة 847هـ / 1443م على الأصح)

مولاي عبد الرحمن أبي البركات

(جد شرفاء الرتب وبني زروال)

↓
قاسم
↓
محمد
↓
قاسم
↓
أحمد

(أحمد هو المنتقل إلى جبل الزبيب في بني زروال)

وهو صهر مولاي أبي الشتاء الخمار. تزوج مولاي أحمد بنته ومنها عقبه)

III - أهم جوانب انتشار أبناء مولاي علي الشريف

أما الفرع العلوي السجلماسي من أبناء وحفدة مولاي علي الشريف الأكبر، فنثبت ذلك في المشجر الخاص بمولاي علي الشريف وأبنائه وحفدته كالاتي:

مولاي علي الشريف (أبو المغازي المجاهد بالأندلس تـ 847هـ)									
↓									
أبو المحاسن يوسف (أبو الجمال)									
↓									
أبناء السيدة الطاهرية					أبناء السيدة حليلة				
عبد الرحمن	الحسين	محمد	الحسن (جد المدغرين)	الحسن	عبد الواحد (بلغيث)	الطيب	عبد الله	أحمد	علي (جد الملوك العلويين)

وهكذا يتبين من مشجرات الأسرة العلوية الحسنية السجلماسية نمو هذه الأسرة وتطورها سلاليا ونسبيا في المغرب الجنوبي والشمالي انطلاقا من تافيلالت - سجلماسة. وهذا النمو والانتشار له أبعاد اجتماعية واستراتيجية أعطت ثمارها في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد، فنثبت أن أهل المغرب أخذوا يتعرفون على أصول هذه الأسرة ويستقدمونهم إلى مواطن جديدة داخل المغرب الأقصى، فمنهم من اتجه نحو فاس، ومنهم من اتجه نحو توات ودرعة. ومن مظاهر الانتشار من سجلماسة - تافيلالت إلى خارجها نلاحظ بداية ذلك في أبناء الحسن بن محمد بن علي الشريف في أواسط القرن العاشر الهجري، حيث بعد أن سكن محمد وأحمد وعبد الله أبناء الحسن بن محمد بن علي الشريف قصبة الغابة، بعد خروجهم من القصبة الكبيرة قرب خلوة جدهم مولاي علي الشريف

بتَّغمرت، ومن تلك القصبة انتقلوا إلى مراكش بحومة المواسين بدرب الشرفاء وبجبل آيت أومالو بالقباب وتسكرت وتحمرت، ثم بعد ذلك اتسع انتشارهم في اتجاه فاس¹¹.

وهذا التوسع كان يهدف إلى تركيز بيوتات الأسرة العلوية السجلماسية في المناطق الرئيسية لمناطق التجمعات القبلية، وهذا التمرکز للانتشار الأسري أعطى نوعا من التواصل النسبي بالقبائل التي تصاهروا معها وكونوا فيها الأحلاف الصغيرة أولا، ثم تطورت إلى أحلاف كبرى. وقد تحدث عن هذا الجانب الزكي العلوي صاحب مطالع الزهراء وأبو القاسم الزباني في البستان الطريف باستفاضة، وإن كانا لم يضبطا المراحل الزمنية بدقة، لكن المتتبع لكتب الأنساب والضابط لحركة أبناء الأسرة في الجهات التي انتقل إليها أفرادها يتأكد بأن جميع التحركات كانت تهدف لهدف واحد وهو جمع كلمة أهل المغرب على الأسرة العلوية السجلماسية، وهذا لم يكن مخططا رسميا في الانتشار، وإنما كان محمولا على نقل أفراد الأسرة إلى جهات فيها مجال فسيح للاحتضان وجمع الكلمة التي أظهرت أن أهل المغرب يختلفون في ما بينهم ويبحثون عمن يوحدهم ويضمهم إلى كلمة سواء، وليس هناك أفضل من أسرة الأشراف العلويين صرحاء النسب، ولا أقوى من نفوذهم الروحي الديني، ولا أمثل من حقيقتهم الراسخة عند أهل المعرفة والعلم والفقه وشيوخ الزوايا وأهل التصوف ورجاله المعترف بمكانتهم الدينية من أهل النسب الديني السني الصريح في الوسطية الإسلامية والسلوك القويم في المجتمع المغربي¹²، فلم يكونوا أهل بدعة ولا خروج عن سياق الشريعة الإسلامية وحقيقتها المعترف بها عند علماء وفقهاء المغرب خلال هذا العصر الذي كثرت فيه الفرقة والاختلاف على مستوى الاعتقاد ومستوى حقيقة الشرع السني، وهذا ما خلق نوعا من التواصل بين أبناء هؤلاء الأشراف المتنقلين إلى هذه الجهات والأسر التي كان لها حضور بها قديما، ونعني بذلك خلق علاقة جديدة بين الأسرة العلوية الحسنية السجلماسية والأسرة الزيدانية السعدية، فتحددت بذلك صورة جديدة لتاريخ الأشراف في المغرب في العصر السعدي الأول، وخصوصا قبل معركة وادي المخازن وبداية حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي.

11 - يظهر أن قصبة الغابة هي التي صارت فيما بعد تحمل اسم الدار البيضاء وقد نازع الأشراف في سكنها بعض أقاربهم وربما كان ذلك سببا في خروجهم من البلاد بعد أن بحثوا لأنفسهم عن مواطن جديدة وشجعهم على ذلك ما كان سائدا في تراث الأسرة العلوية الفيلالية بأن أرض الله واسعة في المغرب وأنها بلاد مستقبلهم وحضورهم في المجتمع، بحيث استقبلتهم الجهات التي انتقلوا إليها بالأحضان وخاصة قبائل المناطق الجبلية "آيت أومالو". انظر الزكي العلوي مطالع الزهراء، و217.

12 - وقد قيل مثل هذا الكلام وهذا التنميط في تاريخ الأسرة السعدية أثناء قيامها بتكوين الدولة السعدية الزيدانية مثلما جاء عند ابن القاضي في المنتقى المقصور وما كتبه اليفرنى في نزهة الحادي وعبد العزيز الفشتالي في مناهل الصفا، رغم أنه مروي عنه ولم يصل إلينا نصه، وما نقل عن علماء الأنساب المختصين في العصر السعدي مثل الإمام القصار والمنجور.

وإذا حاولنا أن نبحت ظاهرة الانتشار في هذه المرحلة، فإننا نجد نوعاً من إرضاء الدولة السعدية في عهد المنصور الذهبي بخلق نظام جديد لتركيز القبائل والتجمعات البشرية والأسر ذات الشفوف والاعتبار. هذا النظام هو "نظام إقطاع الأرض وتوطينهم فيها"، وحسب النصوص والكتابات الخاصة بتاريخ الأنساب يمكن أن نذكر الجهات التي نشأت فيها "الزوايا النافذة" في حركة التصوف المغربي المعاصر للسعديين ولنشأة الأسرة العلوية السجلاسية وهو القرن العاشر والحادي عشر¹³، هذه الزوايا التي أصبح لها نفوذ في توجيه "دولة السلطان في المغرب"¹⁴.

وهكذا توسعت الخريطة البشرية لانتشار أسرة العلويين السجلاسيين، بحيث تمكنوا من بسط حقيقة وجودهم في الجهات التي استوطنوها، فكانوا مطلوبين¹⁵ لتركيز وجودهم كما حصل في إقليم "مدغرة" التي تركزت فيها واستوطنتها الفروع الثلاثة التي اشتهرت بأهل تيعرمت وأبو حميد وحمو داود، فقد خرجوا من قصباتهم الثلاث بتافيلالت وانتشروا في حوض وادي زيز الأوسط وانتشروا عبر هذا الوادي على الضفة اليسرى ابتداءً من منطقة الخنق إلى شعبة اللحم جنوب عين مسكي على مشرع الوادي¹⁶، وقد تم ذلك بموافقة الأسرة الحاكمة آنذاك، وهي الأسرة السعدية الشريفة الزيدانية الحسنية.

ويظهر أن السعديين أقطعوا منطقة مدغرة لحفدة مولاي علي الشريف من الذين انتقلوا إليها من قصر تعرمت وأبو حميد وحمو داود في القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد، ولعله

13 - لم يدرس نظام الإقطاع هذا دراسة علمية دقيقة ولم تثبت في الأبحاث وسائل هذا النوع من إقطاع الاستغلال الذي كان سلاطين المغرب وملوكه يطبقونه على من يعترف لهم بالولاء والطاعة، كما أن المؤرخين الذين اهتموا بهذه المرحلة قد أحجموا عن تناول هذا الموضوع على ما له من أهمية وخطورة في التاريخ الاجتماعي المغربي وكذلك في تطور أحداث الدولة المغربية ووقائعها الاقتصادية والديموقراطية عموماً في الأقاليم المغربية وتميزاتها الجهوية.

14 - نقصد بذلك الجهاز الحاكم في توجيه وتسيير السياسة في المغرب منذ العصر المريني والوطاسي والسعدي والعهد العلوي الأول، أي خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر للهجرة / الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، وقد عالج هذا الباحث المتخصص في تاريخ المغرب روزوبرجي في كتابه Le Maroc au seizième siècle au seuil de la modernité

15 - هذه ملاحظة لا بد من تثبيتها وهي أن حركة نشأة الدولة العلوية تردد في الكلام عليها الباحثون القدامى المهتمون بها، فكان مما أثاروه في الموضوع أن ذكر بعضهم أن العلويين بدأوا طالين للملك وباحثين عليه راغبين فيه، في حين أن هذه الحركة تثبت حقيقة واحدة وهي أن أهل المغرب الذين اتصلوا واختلطوا بالعلويين في جميع الأماكن التي استقروا فيها واختلطوا بأهل البلاد القدامى أنهم كانوا مطلوبين للرياسة والسيادة وتثبيت النفوذ الروحي والديني والاجتماعي والسياسي، فهم على ذلك مطلوبون وليسوا طالين للملك، فأهل المغرب بهذا هم الذين اجتمعوا عليهم وطلبوهم بالبيعة والدعوة وبتحقيق جمع كلمة الأمة التي كان أمرها مشتتاً ومنقسماً وأخذوا يحققون للبلاد الوحدة الدينية والسياسية والوطنية. وهذا ما دافع عليه المؤرخ المغربي أكنسوس في مقدمة كتابه الجيش العرمرم.

16 - مولاي هاشم العلوي القاسمي، التقاط الدرر، ترجمة مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني العلوي، انظر التعليقات المثبتة في الكتاب المحقق.

كان لمولاي عبد الله بن علي بن طاهر عالم مدغرة دور في ذلك، وكان انتقال الأشراف إلى مدغرة عملية قسرية في بادئ أمرها، جاءت موافقة لحركة قائمة في تافيلالت وهي حركة انتقال قبائل صنهاجة الجنوب "آيت عطا" بأخماسهم ومن بينها آيت خباش وقبائل عرب معقل من الشبانات وأولاد الحسين وأولاد منصور والعمارة وسواهم، فكانت هذه الحركة متمثلة في مسألة السيطرة على تافيلالت والتحكم في طرق التجارة المؤدية إليها ومنها، وكذلك التحكم في مناطق الرعي والنفوذ التجاري¹⁷، وهذا الخلاف الذي كان قائما على مستوى صراع القبائل جعل الأوضاع تدخل في دوامة جديدة وهي دوامة سيطرة الدولة السعدية في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد، الشيء الذي سيجعل "حركة الانتشار" للأسرة العلوية السجلماسية، تأخذ توجهها آخر يرتبط بالمدن الكبرى في الوطن المغربي والجهات التي لها تحكم في المجتمع قبليا واقتصاديا واجتماعيا، فتحدت الأماكن الهامة التي صار لها استقطاب وتطلع إلى إبراز القوة القبلية ونفوذ في توجيه مسيرة هيمنة المجتمع التي شخّصت القوة الجديدة في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد. وهكذا يمكن أن نحدد الجهات الأماكنية التي برزت كقوات إقليمية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وهذا ما نعينه باستراتيجية الجهات التي انتشرت فيها الأسرة الحسنية السجلماسية وما نعينه بعبقريّة الأماكن المستقطبة لحقيقة التجمع العلوي السجلماسي، وإذن يتبادر إلى الذهن سؤال أساسي وهو هل كان هناك تعارض أو توافق بين الأسرة العلوية الحسنية السجلماسية والأسرة السعدية الزيدانية السوسية¹⁸؟

17 - Larbi Mezzine, Le Tafilalt, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e et XVIII^e siècles, Publications de la FLSH, Rabat, 1987, p223.

18 - نحيل هنا على الدراسة التي كتبها الأستاذ الدكتور عبد الكريم كريم حول تاريخ الدولة السعدية بعنوان قيام الدولة السعدية، المغرب في عهد الدولة السعدية. وما كتبه الفشتالي في كتابه، مناهل الصفا.

البعثات الطلابية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر

د. عبد القادر سعود

مقدمة:

لقد عرف المغرب في القرن التاسع عشر حركة إصلاحية مست مختلفة مستويات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولم تأت هذه الحركة من باب المصادفة، وإنما فرضتها عوامل خارجية تمثلت في شعور المغاربة آنذاك بالضعف أمام القوات الغربية، التي أرادت قلب موازين القوة لصالحها فأصبح معها المغرب في احتكاك عنيف وصدام مباشر.

كما أن رغبة المغاربة في المشاركة في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي شملت العالم في ذلك الوقت، كانت من بين العوامل الداخلية التي أملت هذه الحركة الإصلاحية بالمغرب، فصار الإصلاح شغلا شاعرا وأمرًا مطروحا لدى أولى الأُمَر، وفتيا لتجاذب آراء أهل الحل والعقد من الفقهاء والعلماء، وموضوعا وفتيا لأهل القلم والفكر.

ثم إن الانتكاسات العسكرية التي توالى على المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (معركة إيسلي، وحرب تطوان) كانت من بين الأمور التي فرضت عليه الدخول في سياسة الإصلاح.

وما يجب التنبيه عليه هو أن الدول الأوروبية نفسها كانت تدعو إلى فرض الإصلاح وتطبيقه في شتى الميادين، ولا أدل على ذلك من الاقتراحات الإصلاحية والمشاريع التي تقدم بها (جون هاي)، ممثل إنجلترا في المغرب، لكل من السلطانين محمد بن عبد الرحمان خلال السنوات: 1864هـ / 1868هـ / 1871هـ / والحسن الأول خلال سني 1874هـ / 1881هـ¹.

1 - مصطفى بوشعرا، الاستيطان والحماية بالمغرب (517/2).

وقد كانت المؤسسة العسكرية (الجيش) من بين المؤسسات الأولى التي مسها هذا الإصلاح، وذلك لما كان السلاطين العلويون يولونه من اهتمام لهذه المؤسسة، حيث كان عليها الاعتماد في تركيز دعائم الدولة وتثبيتها، كما كانت أداة قوية لدفع الأطماع التي تهدف إلى النيل من وحدتها الترابية. إلا أن مشكلة التأطير والمؤطرين حالت دون أن يكون إصلاح الجيش إصلاحا محليا، مما جعل السلطانين محمد بن عبد الرحمان والحسن الأول يفكران في إرسال بعثات طلابية من أبناء المغرب إلى دول إسلامية وأخرى أوروبية لدراسة العلوم التي كانت البلاد في حاجة إليها، كالهندسة العسكرية وعلم الإبحار وفن التدريب والمدفعية وصناعة الأسلحة وغيرها من الفنون العلمية التي كانت الدولة تعتمد فيها على الطاقات البشرية المستوردة.

I- فكرة إرسال البعثات: دوافع وأسباب.

قبل الحديث عن هذه البعثات وعن الدول التي بُعثت إليها من أجل الدراسة والتدريب والتعلم، لا بد من الإشارة إلى المحفزات القوية التي جعلت السلاطين العلويين يتنبهون، بل يحرصون على فكرة سد الخصاص الذي كان حاصلا في الجانب التأطيري داخل المؤسسة العسكرية. من هذه العوامل:

- كتابات السفراء المغاربة في البلدان الأوروبية، والكتاب المرافقين لهم²، حيث كانت أوصافهم، لكل ما يثير إعجابهم، تعبر تعبيراً واضحاً عن تأثيرهم بحياة الأوربيين وما يعيشونه من تطور في مختلف الميادين، وخاصة التنظيمات العسكرية التي عاينوها هناك. كما أن هذه الكتابات كانت تعبر في الوقت نفسه عن نقد ذاتي³ خفي لما يعيشه المغرب آنذاك من تخلف وتأخر.

- رغبة المغاربة في الاعتماد الكلي على الخبرة الأوروبية في ما يتعلق بالإصلاح، وذلك لعدم توفر الأطر الوطنية⁴ المؤهلة للاضطلاع بمهمة التدريس في العلوم التي سبق ذكرها، والتي تهم بالدرجة الأولى إصلاح الجيش.

- الاستغناء عن المؤطرين الأوربيين الذين كانوا يقومون بمهمة التدريس في صفوف الجيش المغربي، مما مكنهم من الاطلاع على الأسرار السياسية والعسكرية، وعلى الحالة التي كان عليها المغرب آنذاك، فتحولوا إلى جواسيس لصالح دولهم⁵.

2 - تنظر رحلة الصفار التطواني إلى فرنسا، ورحلة محمد الكردودي إلى إسبانيا.

3 - جمال حيمر، البعثات التعليمية في عهد مولاي الحسن: بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا بفاس، ص: 33.

4 - مبيج، المغرب وأوروبا (119/3).

5 - جمال حيمر، م: 64.

- تأثر السلاطين العلويين، انطلاقاً من المولى عبد الرحمان بن هشام، بالإصلاحات والتنظيمات التي ظهرت في المشرق، وخاصة مصر في عهد "محمد علي". فعلى الرغم من عدم التصريح بهذا التأثير في المصادر التاريخية فإنه يمكن أن نستشف ذلك من استقراء بعض النصوص التي تنطوي دلالتها على هذا التأثير، كما هو عند التهامي الوزاني الذي أشار، في معرض حديثه عن زيارة أبناء السلطان المولى عبد الرحمان لمصر، إلى أن محمد علي سأل الحاج الرزيني التطواني، وهو الذي رافق الأبناء خلال الزيارة، عن المغرب هل أخذ بالنظم الحديثة؟⁶

ويمكن أن نستخلص ذلك أيضاً من رسالة محمد الرزيني إلى السلطان عبد الرحمان بن هشام⁷، حيث تحدث فيها عن الهدايا التي تبادها السلطان عبد الرحمان بن هشام ومحمد علي، وقد كانت هدية هذا الأخير عبارة عن كتب تعالج موضوع الفنون العسكرية. "وإذا كان من الصعب إثبات وصول جميع الكتب المذكورة إلى المغرب، فإن ما يمكن تأكيده هو أن مولاي عبد الرحمان قد تلقى من مصر مؤلفين فعلاً، هما: "القوانين الداخلية المتعلقة بمشاة العسكر الجهادية" و"تعليم النفر والبلق"⁸، ويتعلق الكتاب الأول بالقانون العسكري، بينما الثاني في موضوع تدريب وتعليم الجيش. وبالإضافة إلى التعاون المتعلق بتنظيم الجيش، فإن المغرب ومصر كانت بينهما روابط قديمة، إذ كانت مصر محطة نزول لركب الحجاج المغاربة الذي كثيراً ما كان يرافقه العلماء والأمرء، فيغتنمون الفرصة لنقل مستوى التطور الحضاري المصري وترويج الأفكار الإصلاحية التي كانت تثير إعجابهم. كما يشير عبد الله العروي أيضاً إلى عامل آخر جعل السلطان المولى الحسن يفكر في إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج بقوله: «لم يكن السلطان أن يفكر في قلب نظام التعليم التقليدي، وذلك لأسباب سياسية ودينية، فكتفى ببعث البعثات إلى دول المشرق الإسلامي أولاً ثم أوروبا، وذلك قصد تجديد الإدارة»⁹

II- الدول المستقبلية للبعثات العلمية:

1- مصر: بدأ إرسال البعثات العلمية إلى مصر في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، وقد اختار السلطان هذا الأصل النموذجي للحركة الإصلاحية، اتقاء منه لمعارضة العلماء المغاربة الذين

6 - التهامي الوزاني، تاريخ المغرب (3/15).

7 - أوردها الشيخ عبد الرحمان ابن زيدان في الإنحاف (5/154-155).

8 - بهيجة سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب: 58.

9 - عبد الله العروي، مقال عن الحسن الأول، بمذكرات من التراث المغربي (4/272).

كانت لديهم حساسية النفور من كل ما يأتي من الغرب، وهناك رسائل تتضمن دعوة صريحة إلى هذا النفور¹⁰، ولذلك أرسل أربع بعثات لتعلم فنون مختلفة كالطباعة والرياضيات وتدريب الجيش. ومن بين هؤلاء الطلبة: عبد القادر الشفشاوني ومحمد بنكيران وأحمد شهبون. وبعث السلطان الحسن الأول بعثتين إلى مصر كان من بين طلابها أحمد بن عبد السلام العلمي الذي تخصص في علم الطب¹¹. وفي رسالة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي ما يدل على الرغبة القوية في السير مع ركب الحداثة الذي كانت قد ركبته مصر آنذاك، حيث قال: «وقد بلغ إسماعيل باشا اهتمامنا بالأمر الجهادية، حيث وجهنا له من يتعلم عمل البارود وغيره على الكيفية المعروفة عندهم، فأجاب بأنه اعتنى بأمرهم، وطلب تكليفه بما يتعلق بهذا الأمر ووعد بالوقوف فيه، غير أنه طلب أن يكون المتعلمون صغاراً نجباء لأنهم أقبل للتعليم، وأسرع نجابة من الكبار. فاقضى نظرنا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء وتربيتهم بحضرتنا الشريفة في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجههم بعد ذلك لمصر، وأردنا انتخابهم من أولاد الجيش البخاري من أهل فاس وأهل العدوتين وأهل الصويرة...»

لكن نتائج هذه البعثات، التي وجهت إلى مصر، لم تكن في مستوى تطلعات المخزن المغربي، مما دفع المغرب إلى التوجه نحو أوروبا للاستفادة من نهضتها الحديثة والاستعانة بخبرتها المتطورة، خاصة ما يتعلق بالتدريب والتكوين العسكريين.

2- البعثات الطلابية إلى أوروبا:

عرفت البعثات المغربية إلى أوروبا تزايداً ملحوظاً خلال فترة السلطان الحسن الأول، غير أن ذلك لا يعني أنه أول من أرسل الطلبة إلى أوروبا، بل يشير المشرفي إلى أن والده قد سلك قبله هذا النهج، حيث قال: «وجه لتعلم الهندسة والحرب عدداً من الطلبة أبناء المسلمين لبلاد الروم، فتعلموا ما يكفي من ذلك وما يحتاج إليه علم الهندسة وكيفية حرب النظام...»¹² وذلك أن السلطان محمد بن عبد الرحمان لما وقف على تشخيص المرض الذي أصاب الجيش، وتأكد من ذلك بعد انهزامه أمام الجيوش الإسبانية في حرب تطوان سنة 1860هـ، جمع عشرة من العلماء واستفتاهم في أمر الإصلاح

10 - منها على سبيل المثال: رسالة العبد الضعيف ... لابن عزوز.

11 - جمال حيمر، م س ص: 117 - 120.

12 - محمد المشرفي، الحلل البهية ص: 223.

وجلب الخبرات الغربية التي تفيد في تقدم البلاد وازدهارها، فأفتوه بجواز ذلك ما لم يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وهكذا بدأت البعثات التعليمية تأخذ اتجاهها نحو البلدان الأوربية، على الشكل الآتي:

1- جبل طارق: بالنسبة للبعثات التي وجهت إلى جبل طارق فقد كانت من أجل التدريب العسكري، وقد بلغ عدد الجنود الذين بعثهم السلطان محمد بن عبد الرحمان نحو أربعمائة (400) جندي خلال الفترة الممتدة بين 1870هـ و1873هـ، وذلك قصد التعرف على الطرق الحديثة في مجال التدريب العسكري واستعمال الأسلحة العصرية، بالإضافة إلى تلقي المعارف الأولية في علم الطب العسكري. وكانت هذه البعثات ترسل على شكل أفواج متفاوتة العدد، وتستغرق مدةً تدريبها سنة أو سنتين. وفي سنة 1876هـ أرسل السلطان الحسن الأول ثلاث بعثات إلى جبل طارق للتدرب على الأساليب الحديثة في التنظيم والتدريب العسكريين، ومن طلبة هذه البعثات مَنْ تَخَصَّص في علم الطب العسكري. وهكذا بلغ عدد الجنود، الذين تم تكوينهم بجبل طارق خلال السنوات الأولى من عهد الحسن الأول، حوالي 208¹³. وقد كانت نتائج هذه البعثات جد مرضية، مما جعل السلطان ينتقي من هؤلاء 311 من أجل تشكيل "الحرس السلطاني الخاص". كما بعث السلطان إلى نفس البلد، أي جبل طارق، سنة 1878م 175 طالبا، منهم 130 للتخصص في المشاة و45 في سلاح المدفعية.

2- إنجلترا: لقد كانت الدولة الإنجليزية من أولى الدول الأوربية التي كانت تراود المخزن المغربي على الدخول في البرنامج الإصلاحي قصد تحديث مؤسساته¹⁴، وذلك ما جعل المسؤولين الإنجليز يقبلون طلب السلطان الحسن الأول الرامي إلى إرسال البعثات الطلابية إلى بلادهم¹⁵، حيث عبروا عن استعدادهم لاستقبال الشبان المغاربة في المعاهد الإنجليزية. ولعل ذلك ما كانت ترغب فيه إنجلترا، لأن استقبالتها للبعثات الحسنية يؤكد حضورها في الساحة السياسية داخل بلاد المغرب.

وكانت مدينة طنجة هي المحطة الأولى التي تمر منها البعثات الطلابية المتوجهة نحو أوروبا، وذلك لتعلم اللغة، وقد أشار ابن زيدان في كتابه "الإتحاف" إلى أنه في سنة 1874م تم اختيار خمسة

13 - جمال حيمر، م س، ص: 125-126.

14 - نفسه، ص: 128.

15 - ب. ج. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية... ترجمة يوانان رزق، ص: 243.

عشر (15) طالبا للتوجه نحو طنجة قصد تعلم لغة البلدان التي سيتوجهون إليها، من بينها إنجلترا¹⁶. كما أشار التهامي الوزاني إلى أن من بين طلبة هذه البعثة الذين توجهوا إلى الديار الإنجليزية: السيد محمد الجباص، الذي كان وزير الحربية في أواخر العهد العزيمي، والزبير سكيرج والحاج إدريس بن عبد الواحد الشاوي، وقد تم إرسالهم سنة 1876هـ وقضوا ما يقرب من أربع سنوات كلها في الدراسة بمدرسة المهندسين العسكريين بمدينة (CHATHAM)¹⁷. وفي سنة 1882م كان السلطان الحسن الأول قد عزم على إحياء الأسطول البحري المغربي، وأراد دعمه بالقطع البحرية والبحارة المدربين¹⁸، ولذلك أرسل مجموعة من الشبان إلى إنجلترا¹⁹، منهم أربعة للتخصص في فن الحربية واثنان في فن بناء السفن²⁰. كما تحدثت بعض الدراسات التاريخية عن مجموعات من الطلبة المغاربة الذين أرسلوا سنة 1884م إلى إنجلترا بهدف صناعة الأسلحة²¹. وهناك إشارات أخرى إلى بعض الطلبة الذين درسوا علم الهندسة بإنجلترا، كالمهندس إدريس الشراي ومحمد بن الحبيب الفيلاي المكناسي الذي درس الميكانيك وخلف آثارا تشهد على تكوينه في هذا الميدان²².

3- ألمانيا: على الرغم من دخول ألمانيا في حلبة الصراع الأوربي حول المغرب فإنها استطاعت في وقت متأخر أن تكسب ود السلطان الحسن الأول وجهازه المخزني، وبذلك توطدت العلاقات الألمانية المغربية خاصة ما بين سنتي 1885م و1894م، وذلك ما جعل ألمانيا تدخل ضمن قائمة الدول التي استقبلت البعثات الطلابية المغربية، وخصوصا منها الموجهة للتدريبات العسكرية. ومن الطلبة الذين توجهوا إلى البلاد الألمانية: الميلودي الزيادي الرباطي والحسين لودي ومحمد النجار السلواوي، كما عند التهامي الوزاني²³. وقد تلقوا مبادئ اللغة الألمانية على يد الألماني WENIG الذي قدم إلى طنجة للقيام بهذه المهمة²⁴، ثم توجهوا بعد ذلك إلى مدارس ألمانية في تخصصات مختلفة،

16 - عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس (2/ 465).

17 - التهامي الوزاني، تاريخ المغرب ص: 80.

18 - عبد الرحمن بن زيدان م س (2/ 503 - 508).

19 - من رسالة سلطانية إلى محمد بركاش بتاريخ 10 رجب 1299هـ، أوردها ابن زيدان في الإتحاف (2/ 470 - 471).

20 - ب ج روجرز، م س (4/ 97).

21 - ميسج، م س (4/ 97).

22 - جمال حيمر، م س.

23 - انظر تاريخ المغرب (2/ 80).

24 - جمال حيمر، م س، ص: 134 - 135.

كمدرسة المناجم التي توجه إليها عبد السلام الدسولي، ومدرسة الضباط المهندسين التي ولجها الحسين لودي، والأكاديمية العسكرية ببرلين وهي التي استقبلت الميلودي الرباطي²⁵. ويشير الشيخ عبد الرحمن ابن زيدان²⁶ إلى أن هناك بعثات أخرى وجهت، على شكل أفواج، إلى ألمانيا من طرف السلطان الحسن الأول ما بين سنتي 1884 و1885م. ففي سنة 1884م أرسل خمسة عشر جنديا للتدرب على التمارين العسكرية، وبعد قضائهم مدة 8 أشهر عادوا إلى الوطن ليقوموا بتأطير وتدريب القوات المغربية بمدينة آسفي والصويرة²⁷، وأسندت لبعضهم مهمة ترميم الأبراج وتحصين المراسي. وفي السنة نفسها أرسلت إلى ألمانيا بعثة أخرى، وقد اتخذ السلطان من عناصرها ضباطا ألحقهم بالحرس السلطاني²⁸.

ولما اشترى السلطان الحسن الأول مدافع ألمانية من شركة "كروب" اضطر إلى إرسال بعثة أخرى إلى إيسن (Essen) للتدرب على كيفية استعمال نماذج من هذه المدافع²⁹، وحين عودتهم إلى المغرب كانوا يقومون بإصلاح السلاح الذي عابه التقادم، وذلك بحضرة السلطان³⁰. ويشير التهامي الوزاني إلى أن السلطان بعث إلى ألمانيا سنة 1883م بعثة عسكرية تتكون من أربعة أفراد من طابور الحراية، ووجه معهم خديمه الحاج محمد بركاش³¹. ومن أجل تعميق هذه التجربة، قام السلطان الحسن الأول بإيفاد بعثات أخرى إلى فرنسا من أجل تحصيل العلوم الحديثة في المدارس الفرنسية.

4- فرنسا: كانت فرنسا، على عكس الدول الأوروبية الأخرى، تفضل أن يكون تدريب قوات الجيش المغربي على يد ضباط البعثة العسكرية الفرنسية التي جاءت إلى المغرب بهذا الشأن، دون إرسال البعثات الطلابية إلى المعاهد والمدارس الفرنسية³²، وذلك هو ما يمكن أن نفسر به قلة هذه البعثات إلى فرنسا.

25 - جمال حيمر، م س.

26 - ابن زيدان، العز والصولة (2/ 153).

27 - جمال حيمر، م س، ص: 137.

28 - نفسه، ص: 137.

29 - نفسه.

30 - بهيجة سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، ص: 366.

31 - التهامي الوزاني (3/ 82).

32 - جمال حيمر، م س، ص: 139.

وأول بعثة اتجهت إلى الديار الفرنسية هي تلكم التي بُعثت إلى باريس سنة 1879م، وهي التي أشار ابن زيدان إلى عناصرها، وهم: قاسم لوديي والطاهر بن الحاج لوديي ومحمد بن الكعاب الشرقي³³، ومن بين التخصصات التي ذهبوا لتحصيلها: اللغة الفرنسية والهندسة، وفنون الفلاحة والتاريخ وفن التصوير³⁴. وقد استغرقت مدة تكوينهم أربع سنوات، ثم انتقلوا بعدها، بأمر من المخزن، إلى بلجيكا لتحصيل علم صناعة الأسلحة³⁵. كما تشير المصادر التاريخية³⁶ إلى أنه سنة 1885م توجهت بعثة أخرى إلى مونبولي، وكانت تتكون من خمسة طلبة وسبعة صناع، من بينهم اثنان عادوا إلى المغرب لعدم قدرتهم على مسaire الدراسة³⁷. وكانت هذه البعثة تتلقى في الصباح دروسا نظرية في الهندسة التطبيقية والرياضيات والفزياء والكيمياء وفروع الجغرافيا، إضافة إلى تعليمهم كيفية استعمال مختلف آلات البصر، ودروسا أخرى تطبيقية في المساء، كبناء التحصينات وطرق حفر الألغام وإقامة الخيام... وذلك طيلة أيام الأسبوع³⁸. وقد دامت مدة تكوين هذه البعثة إلى حدود سنة 1888م. إلا أن نتائج مدرسة مونبولي كانت دون المستوى المطلوب، وذلك بسبب مجموعة من العوامل، منها ما يرتبط بالغربة وعدم الانسجام مع المحيط الغربي، ثم عدم قدرة الطلبة المغاربة على استيعاب الدروس المكثفة...

ولم يكتف المخزن المغربي بخبرة هذه البعثات العسكرية، بل وجه بعثات أخرى إلى إيطاليا.

5- إيطاليا: ارتبطت فكرة إرسال البعثات العلمية إلى إيطاليا برغبة السلطان الحسن الأول في الاستغناء عن شراء الأسلحة من البلدان الأوربية³⁹، وهو ما يكلف خزينة الدولة مصاريف باهضة، حيث فكر في إنشاء مصنع لصناعة الأسلحة بالمغرب، مما دفعه إلى إرسال مجموعة من الطلبة المغاربة لتحصيل ما يفيد في تحقيق هذا الهدف. ولعل ذلك ما جعل تكوين البعثات التي توجهت إلى إيطاليا يشمل مختلف التخصصات من فنون عسكرية ورياضيات وعلوم بحرية وتجارة ولغات أجنبية، ويذهب مبيج إلى أن هذه البعثات تخصصت حتى في دراسة علم الاقتصاد السياسي⁴⁰. ومن بين

33 - ابن زيدان، الإتحاف (2/ 166)، التهامي الوزاني، م س ص: 80.

34 - التهامي الوزاني، م س ص: 80.

35 - جمال حيمر، م س، ص: 140.

36 - ابن زيدان، العز والصولة (2/ 154-155)...

37 - Jaques CALLIE ; Les Marocains à l'Ecole de Génie de Montpellier. pp : 130 ; 140.

38 - Jaques CALLIE ; Les Marocains à l'Ecole de Génie de Montpellier. pp : 136.

39 - مبيج، م س (3/ 226).

40 - نفسه، (4/ 125).

الطلبة الذين توجهوا إلى إيطاليا سنة 1874م: المختار الرغاي، محمد بناني الفاسي، وعبد السلام عيونس الودي⁴¹، وحسب ابن زيدان فإن مدة تكوين هؤلاء الطلبة دامت حوالي تسع سنوات⁴².

وفي سنة 1888م أرسل السلطان الحسن الأول إلى إيطاليا بعثة أخرى تتكون من أربعة وعشرين طالبا⁴³، حيث تلقت تكوينا أوليا بالمعهد الدولي بتوران إلى جانب بعثات دولية أخرى من مصر واليابان وأرمينيا وبلغاريا، وبعد مضي ثلاث سنوات من الدراسة في هذا المعهد، نُقل بعضهم إلى الأكاديمية العسكرية بتوران، والبعض الآخر إلى أكاديمية مودين وليفورن، حيث خصصت فئة من هؤلاء الطلبة في دراسة فنون الملاحة، وأخرى في فنون التدريب العسكري، وثالثة في صناعة الأسلحة⁴⁴. ويشير محمد المنوني إلى أن السلطان الحسن الأول أرسل سنة 1891م بعثة أخرى إلى إيطاليا من بين طلابها: محمد بن عمر الرباطي الذي التحق فيما بعد بالأكاديمية الإيطالية للخيالة العصرية⁴⁵.

6- إسبانيا: أول بعثة توجهت إلى الديار الإسبانية كانت سنة 1877م، وكانت تكون من ثلاثة طلبة من الذين تكونوا بمدينة طنجة، وهم: الحاج أحمد بن شقرون الفاسي، وعبد السلام الفاسي الرباطي، ومحمد الرباطي⁴⁶.

7- بلجيكا: استقبلت بلجيكا بدورها بعثات طلابية مغربية تتألف كلها من الصناع، وذلك بهدف تدريبهم على استعمال مختلف أنواع الأسلحة كتركيب الآلات والمكينات وبطاريات المدافع وصناعة الخراطيش...⁴⁷ وقد بلغ عدد الطلبة المغاربة الذين تدربوا ببلجيكا إلى نحو خمسين فردا، أرسلوا في بعثتين الأولى سنة 1884م، والثانية سنة 1885م، وتم اختيارهم من مدينتي فاس ومكناس⁴⁸.

41 - التهامي الوزاني، م س (80/3).

42 - ابن زيدان، العز والصولة (150/2).

43 - جمال حيمر، م س، ص: 146.

44 - نفسه، ص: 147.

45 - نفسه، ص: 149.

46 - التهامي الوزاني م س (80/3).

47 - جمال حيمر، م س، ص: 150.

48 - نفسه، ص: 151.

8- الولايات المتحدة: في سنة 1885م استقبلت الولايات المتحدة بعثة من الطلبة المغاربة بعثت بأمر السلطان الحسن الأول، من أجل التدريب على استعمال الأسلحة بمصنع السلاح وينشستر (wenchester)⁴⁹.

III - استنتاج:

ما يمكن استنتاجه من هذه المبادرة التي ركبها المخزن المغربي خلال القرن التاسع عشر، بإرساله هذه البعثات الطلابية إلى بلدان مختلفة من بلاد الشرق والغرب، هو الرغبة الملحة في تكوين الأطر التي يمكن أن تنهض البلاد على أكتافها، خاصة وأن المغرب في تلك الأثناء كان يعيش تحديات أمام قوى متنافسة حول الأسبقية في الحصول على وطأة قدم في ترابه. ثم إن الرغبة في تنوع مصادر التكوين بتنوع الدول التي كانت تستقبل هذه البعثات، كل ذلك يدل على السعي الحثيث اتجاه إغناء التجربة العلمية وإضفاء طابع التكامل على النهضة الحضارية التي كان مغرب القرن التاسع عشر يسعى في السير على دربها. إلا أن نتائج هذه البعثات لم تكن في مستوى التطلعات النهضوية التي كان المخزن يصبو إلى تحقيقها، وذلك لعدة عوامل، منها ما هو داخلي، ويتمثل في كون هذه البعثات الطلابية لم ترسل وفق تخطيط محكم يخضع لمقاييس محددة وبرمجة مسبقة لتحقيق الأهداف، ثم إن هؤلاء الطلبة لم تحدد لهم المعايير التي تفيد في تحصيل العلوم التجريبية والتقنيات الدقيقة، ومن ذلك طريقة الاختيار التي كانت تتم على أساس السن والانتماء العائلي دون مراعاة إمكانية القدرة على التحصيل. كذلك، عدم توفير المخزن المغربي لهذه التجربة قاعدة فكرية شمولية تقوم على مشروع مجتمعي تحديتي كامل يكون مهياً لاستيعاب مهارات هؤلاء الطلبة عند عودتهم من أوروبا، حتى لا يتصادموا مع التيار المحافظ من العلماء والطبقة التقليدية من العامة، خاصة وأن هؤلاء الطلبة كان من الضروري أن يعودوا محملين بمستجدات كثيرة، وسلوكيات أوروبية غريبة عن المجتمع التقليدي، سواء على مستوى اللباس أم على مستوى التقاليد والعادات، إضافة إلى العلوم والمعارف الجديدة التي درسوها وحصلوها طيلة مدة التكوين، مما أثار حفيظة كثير من العلماء، حيث اعتبروا ذلك خروجاً عن المؤلف وخرقاً للتقاليد المغربية العريقة، وربما يمس مبادئ الشريعة الإسلامية.

49 - نفسه، ص: 152.

وخير ما نستدل به في هذا الشأن هو نصُّ كتبه الناصري بأسلوب تقليدي، يعبر فيه عن الحالة التي كان الطلبة المغاربة يعودون عليها من البلدان الأوروبية، حيث قال: « من أهم ما يعتنى به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسلكوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك، فقد عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم، فلا تمضي على أولاد المسلمين ستتان أو ثلاث حتى يصيروا عجمًا متخلقين بأخلاقهم متأدين بأدابهم»⁵⁰.

السبب الثاني خارجي، ويتجلى في كون الدول الأجنبية التي تكفلت بتدريب وتكوين هؤلاء الطلبة لم يكن قصدها من ذلك أن يصبح المغرب دولة قوية مضاهية للقوات الغربية، وفي مستوى الدفاع عن وحدتها الترابية، وإنما كان غرضها عكس ذلك، إذ كانت تسعى إلى إرهاب ميزانية المخزن المغربي وإضعاف قدراته المالية ليبقى متعلقًا بما هو مستورد، وخاضعًا للامتيازات الأجنبية، حتى يضطر إلى اعتناق الديون الدولية التي من شأنها أن تثقل كاهله فيتجه نحو المنحدر الرامي إلى السفح، وذلك ما وقع بالفعل، حيث انهارت مؤسسات الدولة، بما فيها العسكرية، وبالتالي فرضت عليه الحماية الأجنبية.

50 - الناصري، الاستقصا (3/ 106).

الهجرات المغاربية البينية عبر التاريخ : الهجرات الجزائرية نحو المغرب بين القرنين 16 و19 نموذجا

ذ. محمد أمطاط

كان المغرب منذ بداية العصر الحديث، أي منذ الفترة المقترنة بحلول العثمانيين بشمال أفريقيا في بداية القرن 16، إلى أواسط القرن 19 قبلة للمهاجرين واللاجئين من سكان المغرب الأوسط أي الجزائر، كلما اشتدت بهم الملمات والأزمات. كانوا يجدون الدعم المادي والمعنوي من المغاربة قمة وقاعدة، مما سهل على غالبيتهم الاندماج في المجتمع المغربي، حاملين لقب «واسطيين».

معطيات تاريخية تبعث على طرح تساؤلات موضوعية حول مفهوم ومضمون الهجرات الجزائرية إلى المغرب عبر فترات زمنية مختلفة، ومختلف أشكال الدعم التي قدمها المغاربة للمهاجرين، وطبيعة التحولات المجتمعية الناتجة عن هذا النموذج من الهجرات المغاربية البينية ضمن منظومة سوسيو/اقتصادية متجانسة ومتكاملة في آن واحد، تنتمي إلى الضفة الجنوبية للمحور المتوسطي.

تلك هي القضايا التي تسعى الدراسة إلى مناقشتها من خلال محورين :

- الهجرات الجزائرية نحو المغرب بين القرن 16 وبداية القرن 19: (هجرات بين أطراف دار الإسلام).

- هجرة الجزائريين نحو المغرب في القرن 19 بعد احتلال الجزائر (هجرة من دار الحرب أو الكفر إلى دار الإسلام).

1- الهجرات الجزائرية نحو المغرب بين القرن 16 وبداية القرن 19: (هجرات بين أطراف دار الإسلام)

لقد تميزت هذه المرحلة بثلاث موجات من الهجرات الكبيرة من المغرب الأوسط نحو الديار المغربية:

1-1- الهجرة الكبرى الأولى في أعقاب التدخل الإسباني-العثماني بالمغرب الكبير أواخر القرن 15 وبداية القرن 16

خلال الفترة التي تميزت بالصراع الإسباني/ العثماني على شمال إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، دخل عروج قائد الأسطول العثماني بشمال إفريقيا لأول مرة إلى تلمسان سنة 1517، وأحدث جيشه خرابا بها. فاتجه سكانها إلى العلامة أحمد بن ملوكة التلمساني الذي كانت له علاقات وطيدة مع أهل فاس وعلمائها، والتمسوا منه أن ينقل ولاءهم إلى سلطان فاس، لكنه كان على علم بضعف الوطاسيين فاكتفى بالدعاء على الأتراك¹. وهذا ما أرغم بعض سكان الغرب الجزائري على شد الرحال إلى المغرب وخاصة نحو مدينة فاس، من بينهم أقسام من القبائل العربية التي كانت مستقرة بجنوب وهران وتلمسان، والتي لقبت بقبائل شراغة لدخولها من الشرق، ولعبت أدوارا مهمة - فيما بعد - في حظيرة الجيش السعودي وعند إقامة الدولة العلوية². إلى جانب هجرة عدد من علماء تلمسان ووهران وقسنطينة وعنابة، استقر أغلبهم بحاضرة فاس. وحظي هؤلاء العلماء بترحيب كبير من نظرائهم المغاربة واهتمام فائق من الملوك الشرفاء. ومن أشهرهم أحمد بن محمد العبادي التلمساني، وأحمد بن جيدة الوهراني (ت. 1548)، وعلي بن عيسى الراشدي الوهراني (ت. 1554)، الذين كان لهم تقدم كبير في علوم الكلام والمنطق والبلاغة مقارنة مع نظرائهم المغاربة³.

2-1- الهجرة الكبرى الثانية في عهد السعديين منذ أواسط القرن 16 :

بعد دخول محمد الشيخ السعدي إلى مدينة فاس لأول مرة سنة 1549، استقبل وفدا من سكان تلمسان المستنكفين عن الحكم العثماني « فتاقت نفسه إلى المغرب الأوسط وكان يعز عليه استيلاء الترك مع أنهم أجنب عن هذا الإقليم ودخلاء فيه فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم »⁴. فالسلطان كان على علم بالاضطرابات التي تقع في المغرب الأوسط، وكانت جالية

1 - أحمد العامري، "المؤثرات الحقيقية وراء موقف المؤرخين الأجانب من التدخل المغربي في تلمسان إثر احتلال فرنسا للجزائر في 1830"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد 3/2، 1979-1980، ص. 96.

2 - محمد حجي، "من مظاهر وحدة المغرب العربي في العهد السعدي (هجرة العلماء التونسيين والجزائريين إلى المغرب)" في ندوة الجامعة الشتوية : مجهودات وإسهامات الأجيال السالفة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي، الكتاب الثاني، المحور الأدبي والفكري، نشر وزارة التربية الوطنية، مكناس، 1988، ص. 157.

3 - محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الجزء 1، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (2)، مطبعة فضالة، 1977، ص. 68-69.

4 - أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، الجزء 7، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ص. 25.

تلمسانية مهمة بفاس منذ العهد المريني مثل عائلات مقارة والونشريسي والعبادي والعقباني والمرزوقي⁵، تذكر بأوضاع هذه المدينة والمغرب الأوسط ككل في أوساط فاس والمغرب. في وقت كان الأتراك على علم بالروابط البشرية والاقتصادية بين تلمسان وفاس، لذا كانوا يحرصون على الدفاع عنها، لأنهم يرون أن تنازلهم عنها يمهد لنهاية وجودهم بالمغرب الكبير.

وجه السلطان السعدي جيوشه نحو تلمسان في سنة 1550، واستقبلهم سكانها بمختلف مظاهر الفرح والترحاب، رغبة في التحرر من السلطة العثمانية. لكن الجيش التركي تمكن من احتلال مستغانم وهزم الجيش السعدي وإخراجه من تلمسان، وضمها إلى ولاية الجزائر العثمانية. تم شرع الأتراك في الانتقام من السكان بمصادرة ممتلكاتهم، والتضييق على علماء المدينة الذين حرضوا على الثورة ضد آل عثمان. فالتجأت عدة عناصر من قبائل وأسر تلمسانية إلى المغرب في عهد محمد الشيخ السعدي مثل: قبائل بني راشد، وقبائل مديونة، وقبائل بني عامر وعدد من الأسر التلمسانية، ومجموعة من العلماء على رأسهم أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن جيلال (ت. 1574) الذي أصبح قاضيا بفاس ومفتيها الكبير بجامعة القرويين⁶.

واستنجد مرة أخرى في سنة 1557 بعض علماء تلمسان بالملك السعدي عبد الله الغالب (1557-1576). فتدخل الجيش السعدي من جديد ونقل مجموعة منهم إلى المغرب وخاصة إلى فاس، من بينهم أحمد العبادي (ت. 1577) ابن أحمد محمد العبادي المذكور سابقا، فضلا عن محمد بن شقرون بن هبة الوجديجي الذي كلفه عبد الله الغالب بالفتوى والرأسة العلمية بمراكش، ومحمد بن أحمد الوقاد الذي اشتهر بالفقه في حاضرة سوس تارودانت⁷.

واستمر السعديون وخاصة على عهد السلطان أحمد المنصور (1578-1603) في استقبال وتكريم العلماء الوافدين من الجزائر، واشتهر من بينهم أحمد المقرئ التلمساني الذي حل بمراكش أول مرة في 1601 واستقر بفاس، وصارت له بها ذرية معروفة، وضع عدة مؤلفات أشهرها نفح الطيب⁸.

رغم وفاة المنصور ودخول المغرب السعدي طور التدهور، ظلت البلاد المغربية ملاذا لكل المهاجرين واللاجئين، حيث حل به الموريسكيون الذين طردهم الملك الإسباني فيليب الثالث

5 - Auguste Cour, *L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la Régence d'Alger 1509-1830*, Ernest Leroux, Paris, 1904, p. 85.

6 - محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962، مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2008، ص. 32.

7 - محمد حجي، "من مظاهر وحدة المغرب العربي في العهد السعدي... م.س.، ص. 258.

8 - م.ن.

(Philippe III) من الأندلس منذ 1609، سواء من المسلمين أو اليهود. فأسهموا جميعهم في نقل علوم كثيرة كانت نادرة كعلم القراءات والطب والموسيقى والترجمة، أو خبرات تجارية وصناعية. بل أسهم بعضهم في تكوين "جمهورية" الرباط وسلا عند مصب نهر أبي رقراق، والتي كان لها دور كبير إبان تجزئة المغرب السعدي قبل قيام الدولة العلوية.

1-3- الهجرات الجزائرية منذ بداية عهد العلويين إلى سنة 1830:

عند قيام الدولة العلوية جد أمر في علاقات المغرب مع الأتراك، وهو الاعتراف بمسألة الحدود مع باشوية الجزائر، والتي ظل السعديون يرفضونها منذ وصول مبعوث السلطان العثماني الشيخ أبي عبد الله الخروبي الطرابلسي إلى السلطان محمد الشيخ السعدي بين سنتي 1554 و1555 واقتراحه وضع حدود جيوسياسية بين المغربين. ذلك أنه بحلول محمد بن الشريف العلوي بتلمسان في سنة 1656 عبر المناطق الشرقية للمغرب، ثارت قبائلها على سلطة الأتراك وقدمت له البيعة. وعندما عاد إلى سجلماسة لحقت بالمغرب عدة قبائل جزائرية. فتعرض الاقتصاد التركي إلى أزمة كبيرة، دفعت الأتراك إلى مناشدة المولى محمد بقبول الصلح وإقناعه بضرورة التخلي عن هذه الثورة كي ترجع القبائل التي لجأت إلى المغرب⁹. وبالفعل تخلى عنها، نظرا لأن حركته مازالت في بدايتها، كما تعهد بجعل وادي تافنا حدا فاصلا بين المغرب والجزائر بقوله: «وأعطيكُم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا الى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ورسوله»¹⁰.

وقد استمرت رغم ذلك هجرة عدة عناصر من بعض القبائل التلمسانية نحو المغرب طيلة عهد مولاي رشيد (1664-1672) مثل قبائل الشجع وبني عامر من العرب، ومديونة وبني سنوس من البربر. وطنهم السلطان بالقصبة الجديدة وعروسة ابن صالح بفاس، ثم نقلهم إلى منطقة فشتالة بين نهري ورغة وسبو شمال مدينة فاس، واختلطت هذه القبائل فيما بينها¹¹.

وبعد فشل المولى إسماعيل (1672-1727) في فتح تلمسان خمس مرات اضطر إلى قبول التحديد الذي وضعه أخوه المولى محمد مع أتراك الجزائر. وظل هذا الحد قائما إلى أن تجاوزته القوات الفرنسية

9 - محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962، ...، م.س.، ص. 33.

10 - أحمد الناصري، الاستقصا...، م.س.، ج. 7، ص. 27.

11 - محمد أمطاط، م.س.، ص. 33.

إلى وادي عجرود على أبواب وجدة في سنة 1844. لكن رغم ذلك، استمر انتقال الجزائريين نحو المغرب قائما، وخاصة بعض العلماء من أمثال أبي عبد الله بن الكماد القسنطيني وأبي العباس البوني العناني. وبعض شعراء الملحون من أمثال أبي عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني وتلميذه أحمد التريكي اللذين قدما إلى العاصمة الإسماعيلية، وأسهما بإضافات مهمة إلى الملحون في مضامينه وأوزانه. كما أنه في عهد سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) استمرت هجرة القبائل الجزائرية نحو المغرب وأسهمت إلى جانب الجيش المغربي في حصار مدينة مليلية¹².

استمر الترابط الاجتماعي والثقافي بين المغرب والجزائر في عهد السلطان المولى سليمان (1792-1822) عندما ظهر مرة أخرى اقتناع الجزائريين وخاصة في غرب البلاد، بالاستمرار في تقديم ولائهم التقليدي للمغرب. وشكلت الرحلات التي كان يقوم بها درقاويو الجزائر نحو المغرب مثالا في تكسير "الحدود" الجديدة كلما تعرضوا لأزمة خلال الحكم التركي. إلى جانب ما أكده الزياني¹³ عند إقامته في وهران في بداية العهد السليمان، من اهتمام باي وهران محمد الكبير (1792-1799) بشؤون المغرب وتتبعه لما يجري فيه، والسؤال كثيرا عن سلطانه، نظرا لإحساسه بتطلعات أغلب سكان الغرب الجزائري في الالتحاق بنفوذ السلطة العلوية. وهذا ما دفعه إلى فرض سلطته كاملة على مجموع بيلك الغرب وتفريقه للقبائل الجزائرية المتاخمة للحدود مع الغرب. إلى جانب محاربته لقبائل الحشم في مسكرة التي أعلنت رغبتها في الاستقلال، وإخضاع قبائل فليقة بالقوة وفرض تأدية الضرائب عليها¹⁴. فخدمت الانتفاضات إلى حين.

لكن في عهد خلفه عثمان بن محمد الكبير (1799-1803) عادت مجددا الانتفاضات ضد الأتراك، بقيادة الزوايا في كل أنحاء الغرب الجزائري. من بينها الزاوية التيجانية التي أعلنت الانفصال عن الحكم العثماني. ورغم إخفاده لحركة الشيخ أحمد التيجاني، استمرت الاضطرابات بمدن مليانة وتينيس ومازونة، فتدخل داي الجزائر، وعزل الباي عثمان وعين بدله الباي مصطفى¹⁵.

12 - م. ن.، ص. ص. 33-34.

13 - هو أبو القاسم الزياني، رحالة وأديب ومغربي ولد بفاس سنة 1734 وتوفي في 1833، وضع عدة مؤلفات أهمها: الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، م. خ. ع. الرباط، د 658، والبستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، م. خ. ع. الرباط، د 1577.

14 - Mahfoude .Kaddache, *L'Algérie durant la période ottomane*, O.P.U., Alger, 1991, p. 139.

15 - *Ibid.*, p. 143

لم تكد الأمور تستتب في الغرب الجزائري للباي الجديد حتى قامت الثورة الدرقاوية في 1806 بقيادة عبد القادر بن الشريف، الذي كان يعارض الحكم التركي، ويعمل على استغلال نفور التلمسانيين من حكم البايات لتمهيد انضمامهم إلى المغرب. فنظم قوة عسكرية واتجه بها إلى مسكرة، التي جعلها مركز قيادته ومنها إلى وهران حيث حاصرها. وأمام الضغط العسكري الذي مارسه الدرقاويون على الغرب الجزائري طلب الأتراك من المولى سليمان التدخل لدى عبد القادر بن الشريف لوضع حد لحركته. فتدخل السلطان بإرساله للشيخ الروحي لدرقاوة الجزائر الحاج العربي الدرقاوي، فامثل الدرقاويون في الجزائر لأمر شيخهم، وطالب عبد القادر من شيخه الإذن له بالهجرة إلى المغرب والإقامة به. وأكد له رغبة أتباعه في الدخول في طاعة المولى سليمان ومبايعتهم له كسلطان شرعي عليهم. لكن المولى سليمان تخلى، لأسباب تتعلق بظروف المغرب، عن الدرقاويين في الجزائر. فقام الباي الجديد محمد بوكابوس بتفريقهم والهجوم على القبائل التي دعمتهم كقبائل عريب في منطقة مليانة والمدية بين سنتي 1808-1809¹⁶. وفي هذه الظروف انتقلت عدة أسر جزائرية إلى المغرب أشهرها أسرة سي الأكحل المقرري التي شغل بعض أبنائها فيما بعد وظائف مخزنية سامية¹⁷.

على الرغم من فشل الثورة الأولى جاءت للمولى سليمان من سكان الغرب الجزائري بيعة جديدة سنة 1813، نظرا لتدمير سكانها من الحكم العثماني، قدم بها وفد يمثل أهل تلمسان ومستغانم والبليلة ووهران. وأعلنت عدة مدن مغربية ابتهاجها بنيا وصول الوفد الجزائري. لكن السلطان اضطر مرة أخرى إلى التراجع عن الدفاع عن حقوق بيعته، مثلما تخلى في السابق عن الثورة الدرقاوية، بحكم التزامه بالحياد في علاقاته مع أتراك الجزائر، خصوصا وأنهم لم يدعموا أخويه ومنافسيه على العرش مسلمة واليزيد عند لجوئهما إليهم¹⁸. مما أسهم في فسخ المجال مرة أخرى للبايات في الاستمرار في التضييق على السكان والزوايا. فالباي حسن (1817-1830) وضع تحت الرقابة كلا من الحاج محي الدين - والد الأمير عبد القادر الجزائري - لمدة سنة بوهران والشيخ محمد التيجاني في مسكرة. وبموازاة ذلك شن هجومات كبيرة على قبائل الحشم لإجبارها على الخضوع

16 - Ibid., p.144.

17 - محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962، ...، م.س.، ص.35.

18 - م.ن.، ص.36.

والاعتراف بالسلطة التركية. ورغم محاولاته في استقطاب زوايا أخرى إلى صفه، أو على الأقل ضمان حيادها عبر مساعدات مادية أو بناء المساجد أو الإعفاء من الضرائب، فقد نمت اتحاديات قبلية على أساس ديني مثل أولاد سيدي الشيخ في منطقة وهران¹⁹، والتي استمرت في مناهضة الوجود التركي وكانت لها جولات كبيرة في مقاومة التدخل الفرنسي فيما بعد.

لقد كانت الهجرات الجزائرية نحو المغرب مثالا للتضامن بين الجارتين المغرب والجزائر، مثلما كان لها دور هام في تحقيق غنى حضاري مشترك بينهما. علما أن هذه الهجرات كانت تتم في إطار مفهوم دار الإسلام، ويقوم بها بالخصوص المستكفون عن الحكم العثماني، بسبب عنف ومضايقات بعض الدايات أو البايات للسكان والعلماء وشيوخ الزوايا على السواء، بالرغم من الحدود المصطنعة التي حاول الأتراك ترسيخها بين البلدين: المغرب وباشوية الجزائر. وهذا عكس ما حصل عند سقوط الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي.

2- هجرة الجزائريين نحو المغرب خلال القرن التاسع عشر بعد احتلال الجزائر: (الهجرات من دار الحرب أو الكفر إلى دار الإسلام)

1-1- سياق الهجرة الجزائرية الكبرى لسنة 1830

عندما دخلت منطقة شمال إفريقيا دائرة الاستعمار - بعد بداية احتلال الجزائر في 1830 - حلت بالمغرب أفواج جديدة من الجزائريين أغلبهم من مدن تلمسان ومعسكر ومستغانم ومسكرة مكونة من علماء وأدباء وحرفيين وأطر إدارية وعسكرية. أطلقت على نفسها اسم (المهاجرين) ارتباطا بالخلفية الدينية التي تشكلها الهجرة عند المسلمين والمرتبطة بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة. وكرس مشروعية مغادرتها للجزائر صدور عدة فتاوى²⁰ تبيح الهجرة للقادرين

19 - M. Kaddache, *op. cit.*, p. 144.

20 - من بينها: فتوى الفقيه محمد بن المدني كُنون بالتحذير من الإقامة تحت ذمة الكافر للقادرين على الانتقال بقوله: « تحرم الإقامة والسكنى بين قوم لا يتناهون عن المنكر ولا زاجر لهم يزجرهم عنها وإن لم يباشروا معهم ما هو عليه تجب عليه هجرتهم [...] والهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام كانت فرضا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة [...] وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل [...] لا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولوا على بلادهم أهل العدو ». وعبر عن ذلك بوضوح أحد علماء الجزائر المهاجرين هو محمد بن العربي المشرفي والمستقر بفاس عن سبب اختيار المهاجرين للمغرب دون تونس بقوله: « فولاية أهل النبوة أمان لهذه الأمة من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وهذا هو أحد الأسباب التي جاءت بنا للمغرب محشر المهاجرين واخترنا الهجرة إليه دون الهجرة لأرض تونس وما وراءها من الأمصار التي يحكم سواهم وقال عليه الصلاة والسلام ولاية أهل بيتي أمان لأمتي ».

انظر تفاصيل ذلك في: محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962، ص. 43.

باعتبار المغرب (دار إسلام) تطبق فيه الأحكام الإسلامية، ويخضع لسلطة سياسية يمثلها السلطان تسهر على ضمان أمن وسلامة المسلمين وتأديتهم لمختلف شعائهم. مقابل تحول الجزائر إلى (دار حرب) بعدما تغلب عليها "العدو الكافر" وقام بتدمير أراضيها والتضييق على سكانها، الذين استحال عليهم مدافعتهم.

امتزج وقتئذ التواصل الروحي والثقافي الذي كان سائدا بين الجزائريين والمغاربة بروح التضامن السياسي، لما كان لحدث سقوط الجزائر من امتدادات دينية واجتماعية وعسكرية برزت في أجل صورها على عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام عند قبوله بيعة التلمسانيين، واحتضانه للمهاجرين ودعمه للأمير عبد القادر²¹.

وتسجل الحوليات المغربية في هذه المرحلة أسماء عدة أسر جزائرية مهاجرة تنتمي لبيوتات علمية في تلمسان ومعسكر ومستغانم، عددها صاحب اللسان المغرب في أكثر من 20 أسرة، كانت لها مكانة مرموقة بفاس. وكانوا يحملون لقب واسطيين.

أشهر بيوتات المهاجرين الجزائريين بفاس بعد 1844²²

أهل تلمسان	أهل معسكر
- بيت العالم أبي محمد عبد الله بن منصور بن عثمان الحوتي	- بيت الشرفاء المهاجرين الأيوبيين (محمد بن الخضير)
- بيت بني الحاج البيدر (السيد محمد بن سعد وابن عمه الحاج الداودي)	- بيت المشرفين العرجيين
- بيت المرازقة العجسيين	- بيت آل سيدي أحمد بن علي بن عيسى الصقليين الحسينيين
- بيت البوسعديين الأشراف	- بيت الشرفاء الدحاويين الحموديين الإدريسيين
- بيت الجليليين (أبو عبد الله محمد المجاوي)	- بيت السادات المراحين (أبو العباس أحمد بن الهاشمي)
- بيت القيسيين التلمسانيين	- بيت المغراويين السليمانيين (محمد النجادي بن محمد الأعرج السليمان)
- بيت الغبريطيين المتيجيين	- الشرفاء المختارين الحسينيين (علي أبو طالب عم الأمير عبد القادر)
- بيت الهطالين	- بيت الشبانين الغريسيين (أحمد بن يخلف)
- بيت الزغاريين التلمسانيين	- بيت الخالدين الحسينيين (محمد بن الأخضر وميلود الخالدي)
- بيت الشرفاء النجارين	- بيت النميشيين (العلامة سيدي محمد وأخوه سيدي مرزو)
- بين آل بن عبد الله الشريف الحوتي	- آل سيدي عبد الله ابن خراج
	- بيت الورغيين الجوطيين (سيدي عبد القادر بن روكش)

22 - أبو عبد الله السليمان، اللسان المغرب عن تهافت الأجنبي على المغرب، السليمان، مطبعة الأمانة، الرباط، 1971 ص.ص. 29-36.

2-2- أشكال الدعم المغربي للمهاجرين الجزائريين

كان الدعم المغربي الرسمي والشعبي للمهاجرين بفاس والمغرب في محنتهم واضحاً منذ عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام (1822-1859) منذ وصول أول باخرتين إلى ميناء مدينة تطوان بعد شهر واحد من بداية الحملة الفرنسية. كما أولى عناية خاصة بالعلماء والفقهاء في تطوان أو في فاس. حيث رشح بعضهم لمنصب القضاء من أمثال محمد بن عبد القادر المجاوي التلمساني (ت. 1851) الذي ولي قضاء طنجة، وعبد القادر بن محمد بن عبد القادر الحشمي الحسني (ت. 1856) الذي ولي قضاء مراكش، والمختار بن روكش الذي ولي قضاء وجدة²³. وخصص للشرفاء من الجزائريين صلات قدرها 500 مد فاسي من القمح و500 مثقال، زيادة على صلاته لهم في الأعياد والمناسبات²⁴.

أمام ما وجده المهاجرون الجزائريون منذ السنوات الأولى لهجرتهم بالمغرب وخاصة بفاس من دعم رسمي وشعبي وتزايد أعدادهم سنة بعد أخرى، قبل المخزن المغربي اقتراحهم بتأسيس نقابة يرأسها نقيب من بينهم، يعرف بنقيب الشرفاء التلمسانيين.

ويوضح ظهير حسني صادر في 13 يوليوز 1875 طرق اختيار النقيب وتحديد مهامه: «إننا جعلنا ماسكه الشريف السيد أحمد بن عبد الله بن منصور الحوقي التلمساني نقيباً على السادة الشرفاء أهل الوساطة القاطنين بحضرة فاس المحروسة بالله، وأسندنا إليه أمورهم الخاصة والعامة حيث تراضوا على ولايته وتوافقوا على نقابته حسبما بالرسم الذي رفعوه لحضرتنا بالله [...] يسير فيهم السيرة المرضية ويراعي فيهم نسبتهم العالية وينزههم عما يدنس عرضهم الطاهر ويخلص النية في خدمتهم في الباطن والظاهر ونأمرهم أن يكونوا عند إشارته فيما يندبهم إليه ويدلهم عليه مما يزيد في رفعة أقدارهم»²⁵.

أما مهامه، فيوضحها مثلاً ظهير تسمية النقيب أحمد بن منصور-المشار إليه سابقاً- أنها تتمثل في: «يسير فيهم السيرة المرضية ويراعي فيهم نسبتهم العالية وينزههم عما يدنس عرضهم الطاهر

23 - محمد المنوني، "صلات مغربية ثقافية وروحية مع الأمير عبد القادر ونخبة من المهاجرين" ندوة الحركة السلفية في المغرب العربي، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، 1989، ص. 107-108.

24 - أنظر مزيداً من التفاصيل في: محمد أمطاط، "فاس ضمن منظومة الهجرات المغاربية: هجرة الجزائريين في القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين"، الندوة الدولية حول مدينة فاس في التاريخ العالمي، ندوة متعددة التخصصات بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور 1200 سنة على تأسيس مدينة فاس بين يومي 9-11 أكتوبر 2008، نشر كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة الأخوين بإفران بالتعاون مع مؤسسة روح فاس، 2011، ص. 25-26.

25 - ظهير السلطان مولاي الحسن، بتعيين الشريف مولاي أحمد بن منصور نقيباً، 9 جمادى الثانية 1292 / 13 يوليوز 1875، مديرية الوثائق الملكية (م.و.م.)، ملف المهاجرون التلمسانيون.

ويخلص النية في خدمتهم في الباطن». ويتمثل دوره كذلك في توزيع الصلات المخزنية على مهاجري فاس، إلى جانب الهدايا التي يقدمها السلطان إلى الشرفاء منهم بمناسبة الأعياد الدينية. كما تكون له عليهم سلطات شبيهة بسلطات القائد، حيث يفصل في النزاعات التي تقع بين المهاجرين. أما في النزاعات التي تقع بين المهاجرين والمغاربة، فإذا كان مهاجر مدعي يرافقه أحد مساعدي النقيب إلى القائد لتقديم شكايته وإحضار المدعى عليه. وإذا كان العكس يتوجه المشتكي مع موظف مخزني بأمر من القائد إلى النقيب الذي يستمع إلى الشخصين، ويرسل إلى القائد الحكم المقترح، الذي يبحث فيه القائد وينفذه. ولم تسجل أية اصطدامات بين النقيب والقائد في أمور النزاعات المحتملة بين المهاجرين والمغاربة بحكم أن القاعدة الشرعية هي التي تكون الأساس في إصدار الأحكام²⁶.

لم يكن المهاجرون يشعرون بأي تمييز بينهم وبين سائر المغاربة، حيث كانوا يسكنون في مختلف الأحياء بالمدن المغربية، ويملكون المنازل التي يقطنونها، ويمارسون أنشطة اقتصادية ووظائف تعليمية وإدارية إسوة بإخوانهم المغاربة.

أخذ هؤلاء المهاجرون الذين استوطنوا عدة مدن كانت في مقدمتها فاس وتطوان ووجدة يندمجون تدريجيا في المجتمع المغربي حاملين لقب "واسطيين". وتميزوا بإثرائهم لرصيد البلاد الحضاري وخاصة الفكري. ووقع التنويه بعلمائهم في كتب الإخباريين المغاربة.

2-3- محاولات الاستقطاب الفرنسي للجزائريين بالمغرب

في سياق هذا التطور، كان المغرب يتعرض لضغط أوروبي كبير، تميز باستمراريته وتعدد أنماطه وتغلغله في شتى الميادين. كان من بعض مظاهره إدخال مفاهيم جديدة لمنطقة المغرب الكبير مستقاة من الفكر الأوروبي الحديث كالحقوق والجنسية. أسهمت في زعزعة مفهوم الانتفاء للأمة الإسلامية الذي كان نمطا مألوفا فيما سبق. ذلك أن فرنسا ورغم بقائها طويلا بالجزائر متأرجحة في سياستها بين حلم إقامة محمية أو "مملكة عربية" عميلة، أو الاستعمار الاستيطاني، فإنها قررت توجيه اهتماماتها نحو الجزائريين - تمهيدا لنزع عربيتهم وإسلامهم - بجعلهم "رعايا فرنسيين"، بعد صدور قانون مجلس الشيوخ - Senatus - Consulte عام 1856²⁷. ورغم أنها فشلت في مسعاها مؤقتا، لأن أغلب

26 - محمد أمطاط، "فاس ضمن منظومة الهجرات المغاربية: هجرة الجزائريين م.س.، ص.ص 26-27.

27 - هذا القرار هو الذي حدد لأول مرة بالجزائر وضعية السكان الجزائريين المسلمين بالنسبة للجنسية الفرنسية. وحسب المادة الأولى منه فإن المسلم الجزائري -رعية فرنسي- لكنه يستمر خاضعا لأحكام القانون الإسلامي، ويمكنه -إذا طلب ذلك- أن يكون مواطنا فرنسيا حقيقيا يتمتع بالحقوق الفرنسية إذا رضى بالتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية التي لا تتلاءم نصوصها وأحكامها في نظر المشرعين آنذاك، مع القوانين الفرنسية خاصة فيما يتعلق بالزواج والطلاق والميراث والحالة المدنية للأطفال. لمزيد من التفاصيل أنظر: محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962، م.س.، صص 95-97.

المهاجرين أعلنوا انتماءهم للمغرب معتبرين أنفسهم رعايا السلطان شأنهم شأن باقي المغاربة، عندما قدموا بيعتهم للمولى عبد العزيز في 1895²⁸، فقد كان لمخططاتها أن تسجل مكسبا ملموسا عندما اعتمدت على فئة المحميين والمتجنسين الجزائريين (مسلمين ويهود) لتنفيذ سياسة "التسرب السلمي" من جهة²⁹، والتمهيد لاقتطاع أجزاء من التراب المغربي وإلحاقها بمستعمرتها. وهي كلها مبادرات كان لها الأثر الفعال إلى جانب ضغوط استعمارية أخرى في زعزعة أركان الدولة المغربية، والمس بحرمة ووحدة أراضيها، وتهيئ شروط فرض الحماية الفرنسية عليها في 1912م.

لقد استأثر المغرب باحتضان أبناء المغرب الأوسط بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، وجدوا الدعم المادي والمعنوي من المغاربة قمة وقاعدة، فأخذوا تدريجيا يندمجون في المجتمع المغربي حاملين لقب "واسطيين"، وأصبحوا أحد مكونات الأمة المغربية المتعددة الأصول. وانضافوا بذلك إلى المغاربة المسلمين (أمازيغ، أندلسيين، بلديين، علوج، حراطين وزنوج). وقد تجدد مسار هذا التقارب والتضامن مرة أخرى خلال القرن العشرين في السنوات الأولى لاستقلال المغرب بين سنتي 1956-1962، عندما تحولت أراضيها إلى قواعد خلفية لحرب التحرير الجزائرية -سياسيا وعسكريا- وملاذا آمنا لآلاف من اللاجئين إلى حين استقلال الجزائر، مما يوحى بوجود واستمرار قيم الوحدة والإخاء بين شعوب المغرب الكبير سواء في التاريخ الحديث أو المعاصر. هذا المعطى يطرح أكثر من تساؤل حول ضرورات تجاوز المخلفات الاستعمارية وتحقيق سياسة جديدة تركز على منطق التعاون البناء بمنطقة المغرب الكبير في سبيل تحقيق تنمية دائمة وشاملة تواكب المنظور الجديد لطبيعة العلاقات الدولية المبنية على فتح الحدود وتأسيس تكتلات اقتصادية مندمجة لمواجهة نظام العولمة.

28 - قدم في سنة 1895 العديد من مهاجري فاس بيعتهم للسلطان المولى عبد العزيز باعتبارهم من رعاياه، ومتبرئين ممن انساق من بينهم لاغراءات الحماية. وقد حررت وثيقة البيعة للسلطان المولى عبد العزيز تحت إشراف الأمين عبد السلام بن محمد المقرري، مذيعة بشكلي عدلين من المهاجرين الجزائريين وهما محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، ومحمد ابن محمد النسب. تضمنت توقيعات 546 من المهاجرين وضعت أسماؤهم كلهم على يمين هذه الوثيقة. انظر نص البيعة عند: محمد المنوني، "وثيقة عن المهاجرين التلمسانيين بفاس" مجلة دعوة الحق، السنة 10، عدد 2، دجنبر 1966، ص. 104-106.

29 - انظر تفاصيل الأدوار التي قامت بها فئة المحميين والمتجنسين الجزائريين (مسلمين ويهود) لتنفيذ سياسة "التسرب السلمي" بالمغرب: في محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب، م.س.، صص 117-133.

حركة التأليف في المولد النبوي الشريف ونصيب المغاربة منها

ذ. أحمد إيشرخان

تمهيد:

يجمع كثير من الباحثين على أن حركة التأليف في رسولنا الأعظم، صلى الله عليه وسلم، هي أعظم حركة تأليف في العالم، فلم ينل أحد ما ناله الرسول الكريم من اهتمام كبير من قبل الكتاب والمؤلفين، فقد دونوا كل صغيرة وكبيرة في حياته من المبشرات بمولده إلى حين وفاته.

ولقد شملت مدوناتهم كل المناحي في ذاته وشمائله وخصوصياته بل ونعاله الشريف ولباسه وسلاحه ودوابه، وما أجمل ما قاله في هذا المعنى العلامة المؤرخ الإمام الحافظ السخاوي، وهو من رجال القرن التاسع الهجري، في كتابه الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: بعد أن ذكر سلسلة من عناوين المصنفات في شمائل المصطفى والصلاة عليه، وغيرها: «مما لو حصل التصدي لجمعه كله في كتاب لكان في عشرين مجلدا فأكثر»¹. ولا بد أن نشير هنا إلى ملاحظة مهمة هي أن التأليف عن الرسول صلى الله عليه وسلم تمت بمختلف اللغات وفي مختلف بقاع العالم، وما زالت تصدر مؤلفات برسمه إلى اليوم. وفي ما يلي بعض مجالات التصانيف ونماذج منها:

أولاً: هناك تصانيف في سيرته وهي كثيرة ومتنوعة مثل: سيرة ابن هشام رواية عن ابن إسحاق، وشرحها الشهير للعلامة المغربي دفين مراكش وأحد رجالاته السبع، الإمام أبو القاسم السهيلي، بكتابه البديع الروض الأنف.

ثانياً: مصنفات في فتوحاته وغزواته، ومن أشهرها كتاب المغازي النبوية، للواقدي².

1 - شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي (ت: 902): الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الجليل بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ/1992م، ص. 92.

2 - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد المدني، الواقدي، (130هـ- 207هـ) (747 - 823م). وله كتب أخرى في السياق نفسه منها: كتاب التاريخ والمغازي، كتاب فتح إفريقية - مطبوع في جزأين.

ثالثا: مصنفات في شمائله مثل: شمائل الترمذي³، وبالمناسبة نذكر أيضا كتاب الإمام القاضي عياض، وهو أيضا من سبعة رجال بمراكش، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، يُعدّ من أحسن الكتب في شمائل النبي الكريم.

رابعا: كتب في محبته والحث على اتباعه.

خامسا: كتب في الصلاة عليه، وأشهرها كتاب: دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار لمحمد بن سليمان الجزولي، وكتاب تنبيه الأنام لابن عظم المرادي⁴.

سادسا: كتب في زوجاته وكتب في آله وذريته.

سابعا: مصنفات في صحابته.

ثامنا: كتب في مولده وفضائله، وسنتطرق هنا بإيجاز إلى ما عرف بين الدارسين بالمولديات.

تاسعا: كتب في الدفاع عن مدحه، نذكر منها على سبيل المثال كتاب:

«إعلام الحاضر والباد بقطع أوداج من زعم الأدب في ترك مدح خير العباد»، للمؤرخ النقيب عبد الرحمان ابن زيدان العلوي⁵.

- مفهوم المولديات: ما معنى المولديات؟

بداية يجب أن نشير إلى أن هناك عدة تعريفات لـ «المولديات» نذكر منها ما يلي:

- المولديات هي المقطعات الشعرية الفنية التي تتخذ مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وحكاية قصة مولده الشريف، موضوعا لها، ويشترط فيها ارتباطها بالاحتفالات المقامة بمناسبة المولد النبوي الشريف.

- المولد نص، نثري وشعري، يصوغ السيرة النبوية من وجهة نظر تاريخية عن طريق أسلوب أدبي يمتاز بالروعة في الكتابة والأناقة في التعبير والجمالية في السبك، وينصرف اهتمامه في حدث المولد النبوي مع ذكر معجزات الولادة وتبشير الأنبياء به ورضاعته وخوولته وحادثة شق صدره

3 - محمد عيسى الترمذي أبو عيسى: شمائل النبي صلى الله عليه وسلم: المحقق السيد بن أحمد حمودة مكتبة العلوم والحكم، مصر، سنة النشر: 1429 - 2008.

4 - عبد الجليل بن عظم المرادي، كان حيا سنة 889هـ عنوانه الكامل: "تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام"، توجد منه عدة نسخ بالخرانات العامة والخاصة.

5 - نسخة مخطوطة بالخرانة الحسينية بالرباط، تحت رقم. 11773.

والمكانة التي يتبوؤها عند الله، وتفاعل الكون مع مولده صلى الله عليه وسلم، والفرح بمولده، والتركيز على التأسي بشمائله.

لكن هناك تعريف استقيته من خلال كتاب المولد للباقر الكتاني، الآتي الذكر، عرف فيه المولد بكونه: سرد «قصة المولد النبوي المحمدي، تيمنا واهتداء بالرسول الكريم الهادي، بأسلوب يهيج القلوب، إلى حضرة علام الغيوب، ويشوق الظمآن، للارتواء من بحور العرفان»⁶.

وتقرأ هذه الموالد، المنشور منها والمنظوم، عن طريق الإنشاد وفق ألحان وطبوع متنوعة مستلهمة من فن السماع، الذي تطور بفعل المولديات في ذكرى مولده صلى الله عليه وسلم، ويحدث أن تتلى في مناسبات دينية أخرى كالزواج والولادة والقدوم من الحج. ولا أعرف لحد الآن هل سردها المغاربة في أيام الجفاف تقربا إلى الله وتيمنا بمولده صلى الله عليه وسلم. وقد نمت إلى علمي أنهم سردها أيام المحن في فترة الحماية بالمغرب.

ويحتوي كل مولد على لازمات متنوعة حسب المقاطع تتلى بشكل جماعي إثر الانتقال من فقرة إلى أخرى، كلازمة: «اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم»، ولازمة: «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» ولازمة: «طيب اللهم مجالسنا بالصلاة والسلام على سيدنا محمد».

ومما تحتويه الموالد هو دعوة الحاضرين إلى الوقوف على الأقدام، ويذكر أن الكتاني الشهيد هو أول من دعا إلى الوقوف على الأقدام وألف في ذلك تأليفا. وقد ألف العلامة النبيه محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي المتوفى عام 1376هـ/1956م، كتاباً عبارة عن فتوى في نازلة القيام عند سماع المولد النبوي بعنوان: «صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد»⁷.

على أن التأليف في المولد يلتقي فيه التاريخ والأدب والتصوف وفن السماع، المزينة بأجمل الألحان، المشنفة للأسماع المقرطة للأذان، من أجل ترسيخ محبة النبي صلى الله عليه وسلم، وهنا أستحضر قصة رواها أحد العلماء الأجلاء من بلاد السودان الغربي، ولعله الفقيه العلامة الشيخ إبراهيم محمود جوب، الأمين العام لرابطة علماء المغرب والسنغال، ذكر فيها أن تأثير المولديات في

6 - محمد الباقر الكتاني، روضات الجنات، نص المولد، ص. 3.

7 - مطبوع على الحروف دون تاريخ في 56 صفحة.

نفوس قبائل السودان أكثر من تأثير أي شيء آخر، بل هناك كثير من الناس في إفريقيا أسلموا بسبب حضورهم في حفلات المولد النبوي الشريف.

حركة التأليف المشرقية:

مبدأها وأصولها ونماذج من كتب المولديات المشرقية:

بغض النظر عن الاختلاف في شرعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والتركيز على كون الفاطميين هم من ساهموا في ترسيخ الاحتفال به في مصر وتونس، فإن الرحالة الأندلسي ابن جبير يذكر في "رحلته" عام (579هـ/1183م) أن مشهد مولد الرسول، صلى الله عليه وسلم، بمكة المكرمة يفتح في شهر ربيع الأول، يوم الاثنين تحديداً فيدخله الناس كافة، ويضيف أبو العباس العزفي في كتابه "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" أن يوم المولد يتخذ عطلة عامة بمكة المكرمة وتفتح فيه الكعبة المشرفة ليؤمها الزوار.

وسنكتفي هنا بذكر بعض المؤلفات في المولديات لعلماء اشتهروا بعلمهم، ومنها:

- مولد البرعي: وهو من تأليف العلامة المدرس المفتي الأديب الشاعر عبد الرحيم بن أحمد ابن علي البرعي اليمني المتوفى عام 803هـ/1400م، وهو مولد رائع في بنائه، اطلعت عليه فوجدته متين البنيان في سبكه وحبكه، ومزجه بين نثره وشعره، برقائق بديعة من التصوف في ذوقه.

- مولد البرزنجي، من تأليف الفقيه الأديب مفتي الشافعية بالمدينة المنورة زين الدين جعفر بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي، المتوفى بالمدينة المنورة عام 1177هـ/1764م، وهو مولد لطيف بمصطلحات أدبية تنم على سعة اطلاع صاحبه على قصة المولد وعلم غزير في النسب الشريف. وللبرزنجي مؤلفات متعددة مرتبطة بالنبي وفضائله ومكارمه.

- مولد العروس الشهير بالجوزي: من جمع وتأليف العلامة المحدث المؤرخ المؤلف المكثّر عبد الرحمان ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي المتوفى عام 597هـ/1201م، ويكفي في فضل هذا العالم أن نذكر منقبة جمع براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ففعل ذلك، فكفت وفضل منها، وقد جمع مجموع ما ألف من كتب وقسمت على أيام عمره فوجد تسعة كرايس لكل يوم. وقيل أن عدد كتبه ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم. وقد تميز كتاب مولد العروس بسلاسة الأسلوب في النظم والنثر.

- النعمة الكبرى على العالم في مولد سيد ولد آدم، في مولد النبي الأعظم: من تأليف شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى عام 852هـ/1449م، له أكثر من مائة وخمسين تصنيفا في مختلف العلوم، وهو علامة حجة ثقة من كبار حفاظ الحديث، وقد استهل كتابه هذا بذكر فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وفضائل الاحتفال بمولده، ومنها ما نقله عن الشافعي، قال ابن حجر: «قال الإمام الشافعي، رحمه الله: من جمع لمولد النبي صلى الله عليه وسلم إخوانا، وهياً طعاما، وأخلى مكانا، وعمل إحسانا، وصار سببا لقراءته، بعثه الله يوم القيامة مع الصديقين والشهداء والصالحين، ويكون في جنات النعيم».

- حركة التأليف المغربية:

أصولها: أول من ألف في المولديات بالمغرب كان في العصر المرابطي، علما أنه يجب تعميق البحث في العصر الإدريسي الذي قامت فيه الدولة المغربية على محبة آل البيت ببيعة إدريس الأول، ويذكر هنا قصيدة الشقراطيسية لأبي عبد الله الشراقطيسي المتوفى سنة 466هـ التي جاء فيها:

أضاءت لمولده الآفاق واتصلت بُشرى الهواتف في الإشراق والطفّل

خير البرية من بدو ومن حضر وأكرم الخلق من حافٍ ومُتَعَلِّ

و في العصر المرابطي نجد الشاعر ابن أبي الخصال المتوفى سنة 540هـ، وقد كان كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، الذي أنشد قصيدة عنوانها: «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب»، جاء في مطلعها:

إليك فهمي والفؤاد يشرب وإن عاقني عن مطلع الوحي مغربي

- العصر المريني:

يكاد يجمع الباحثون على أن العصر المريني هو عصر الولاية والصلاح ومحبة الرسول وآل بيته، وهو العصر الذي ازدهرت فيه الأشعار في مدح النبي وإظهار محبته والاحتفال بمولده، فقد ذكر الحسن بن محمد الوزان في كتابه وصف إفريقيا: «أن شعراء فاس كانوا يجتمعون في العصر المريني سنويا بمناسبة المولد النبوي لنظم الشعر كل صباح في ساحة «رئيس القناصلة»، حيث يصعدون منصة لتلاوة قصائدهم أمام الجمهور فيختار أحسنهم شعرا أميرا للشعراء في تلك السنة، وكان ملوك بني مرين يقيمون مأدبة للشعراء في مدح الرسول عليه السلام بحضرة السلطان وتقام منصة

ويحكم الحاضرون حيث تمنح خلعة لأحسن شاعر وهي مائة دينار وفرس مع خمسين دينار للباقيين»⁸.

- العصر السعدي:

ترسخت في العصر السعدي مظاهر الاحتفالات بالمولد النبوي خصوصا في جانب الاحتفالات الشعبية بعد معركة وادي المخازن، وقد كان لأحمد المنصور الذهبي دور كبير في تطوير مظاهر الحفلات المولدية، ومنها مواكب الشموع التي تقام إلى اليوم بسلا بإشراف حفدة الولي الصالح سيدي عبد الله بن حسون، ويمكن أن نقف على مظاهر هذه الاحتفالات عند الكاتب الكبير في العصر السعدي أحمد المقرئ في كتابه «المنتقى المقصور» وعند الأديب المفوه مؤرخ الدولة السعدية عبد العزيز الفشتالي في «مناهل الصفا»⁹.

- العصر العلوي:

كان العصر العلوي استمرارا لتطوير لاحتفالات الدينية وتعميمها في مختلف المساجد والزوايا، فقد كان السلطان مولاي إسماعيل شديد الحرص على حضور الحفلات الدينية وتنظيم ليلة المولد النبوي بقصره بمكناس، وكان يستدعي العلماء لحضور هذه الحفلات التي تزين بطقوس الاحتفال بالشموع والمباخر مع تزيين فضاء الاحتفالات بأجمل الحلل. أما السلطان مولاي الحسن فقد كان لا يترك الاحتفال بالمولد النبوي سفرا وحضرا، ويكفي هنا أن نرجع إلى تأليف المؤرخ أحمد ابن الحاج المعنون ب: "عادة العلويين في المولد النبوي"، ويتجلى مضمون هذا الكتاب في ذكر تفاصيل جد مهمة عن احتفال السلطان مولاي الحسن بعيد المولد النبوي، وأهميته وأفضليته، مع ذكر عناية السلطان بزيارة الأضرحة وبناء قبابها. وكان السلطان مولاي الحسن يصدق العطايا في هذه الليلة المباركة، خصوصا على الشعراء الذين تنشُد قصائدهم بين يده في طقوس دينية تحفها الأنوار، وتتفتق فيها الأسرار، وتنزل فيها الرحمات، لنستمع إلى السلطان يصف المشاهد الاحتفالية في مولد نبوي من عام 1299هـ، يقول جوابا على رسالة شيخه العلامة أحمد ابن الحاج:

8 - انظر باقي التفاصيل وجملة من النصوص المتعلقة بموضوع المولد النبوي الشريف في المغرب المربني عند محمد المنوني، وركات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1416هـ/1996م ص. 517. محمد المنوني: «مؤلفات مغربية في الصلاة والتسليم على خير البرية»، مجلة دعوة الحق، العدد 4، السنة 18، جمادى الأولى 1397 - ماي 1977، صص. 20، 31.

9 - الفشتالي، مناهل الصفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، ص. 236 - 238. للتوسع في موضوع الاحتفال بعيد المولد النبوي في مختلف الفترات يمكن مراجعة معلمة التصوف، للعلامة المرحوم برحمة الله الدكتور عبد العزيز بن عبد الله، ج. 1، 193.

«وقد وصلت القصيدة المولدية في الليلة الغراء النبوية ... وسردت أمامنا بنغمات وألحان، وشنفت الأسماع وقرطت الآذان، ببيت الله العظيم، بمشهد حفيل بالجسم الغفير الفخيم، من الشرفاء والعلماء وأهل الدين المتين والمنهاج القويم، المستحقين للاجتماع والتكريم، وأخذت منا وأطربت، وعن معاني المديح وشمائل سيد المرسلين أعربت»¹⁰.

- ذكر بعض ما اشتهر من الموالد وانتشر في النصف الأول من القرن العشرين:

من الموالد التي اشتهر ذكرها وانتشر واتخذت كنماذج للإنشاد على أوسع نطاق نذكر ما يلي:

- مولد العلامة الفقيه الطيب بن خضرا السلوي، وكانت لهذا العالم الجليل المحب في الجناح النبوي، صولات وجولات في مساجد سلا في النصف الأول من القرن العشرين، مبديا مزيد عناية بليلة المولد النبوي الشريف، وقد نظم مولديات كثيرة، ووضع لها إيقاعات موسيقية، وتعتبر قصيدته الهمزية التي عارض بها همزية البوصيري أهم ما تفتقت عنه قريحته الشعرية، حيث استدرك فيها عددا من أبواب السيرة النبوية لم يذكرها البوصيري، مثل: غزواته صلى الله عليه وسلم. وقد ظلت همزية الطيب بن خضرا من محفوظات مريدي الزاوية التيجانية ينشدونها عقب همزية البوصيري على نفس المقامات والألحان بالزاوية التيجانية بسلا وبضريح سيدي العربي بن السايح بالرباط، توفي العلامة الفقيه ابن خضرا في مدينته سلا 1337هـ/ 1951¹¹.

- مولد للعلامة الفقيه الشريف النقيب محمد العربي بن عبد الله بن محمد الوزاني التهامي الرباطي المتوفى بها عام 1339هـ/ 1921م.

بعنوان: ربيع القلوب في مولد النبي المحبوب، طبع بعناية أحفاده. ويسرد هذا المولد عادة في الزوايا ومنها على الخصوص الزاوية الوزانية بالرباط.

- المولد النبوي الباقر، لمؤلفه الشيخ سيدي محمد بن الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، وعنوانه الكامل: «روضة الجنات، في مولد خاتم الرسالات»، وهو مولد نفيس اعتمد في سرده على أصح الأحاديث والروايات، واتبع في ترتيبه أقساما سمى كل قسم منها روضة، وعددها ثلاث وعشرين روضة، على عدد سنة صلى الله عليه وسلم من حين بعثته إلى حين وفاته، وقد لقي هذا

10 - أحمد ابن الحاج، الدرر الجوهري في مدح الخلافة الحسنية، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 512، ج.1، ص.388.

11 - أحمد إيشرخان «ملاحم من التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العهد اليوسفي من خلال كناشة الطيب ابن خضراء»، ضمن أعمال الدورة 14 لجامعة مولاي علي الشريف، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، 2007، صص. 287، 297.

المولد القبول والانتشار خصوصا في الزوايا الكتانية، واشتهر بلازمته الفاصلة بين روضاته التي يقول فيها: «طيب الله مجالسنا بالصلاة والسلام على سيدنا محمد، وثبت اللهم قلوبنا على محبة سيدنا محمد، واجمع اللهم شمل أتباع سيدنا محمد، وأظهر اللهم دينه على جميع البرايا، وباعد بيننا وبين جميع البلايا، وعلى آله الطاهرين وصحابته الأكرمين، ملء ما علمت، وعدد ما علمت وزنة ما علمت». طبع هذا المولد بعناية أولاد المؤلف، ونشر بمطبعة الأمنية بالرباط عام 1395هـ/ 1975م.

- مولد العمراني، وعنوانه الكامل: «بلوغ السعد والتهاني، في مولد صاحب السبع الثاني»، وهو من تأليف العالم العلامة الشريف مولاي أحمد بن محمد العمراني، افتتحه بلازمته الشهيرة: «عطر اللهم قبره الكريم، بأزكى صلاة وأطيب تسليم، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله، واجعلنا بفضلك من التابعين لأقواله وأفعاله» انتهى من تأليفه في 10 ربيع النبوي 1336هـ/ الموافق 24 ديسمبر 1917م، وقام بطبعه ونشره تلميذه الأستاذ محمد مكوار عام 1350هـ/ 1931م بالمطبعة الجديدة بفاس.

- مولد السناني، بعنوان: «الإتحاف والوداد ببعض متعلقات الولاد»، للعالم الأديب شاعر المعراب والملحون، إدريس بن علي السناني الغرباوي الفاسي المتوفى بفاس عام 1322هـ.

- مولد الكتاني، بعنوان: «السانحات الأحمدية، في مولد خير البرية»، من تأليف العلامة الشيخ محمد بن جعفر الكتاني وهو لسان أهل الله، مطبوع بالمطبعة الحجرية بفاس.

- مولد كنون، بعنوان: "هداية المحبين إلى ذكر سيد المرسلين"، صلواته وسلامه عليه في كل وقت وحين، لمؤلفه الشيخ محمد التهامي كنون، وهو من أبرز شيوخ القرويين، توفي بفاس عام 1331هـ.

- مولد فتح الله بناني، المعنون ب: "فتح الله، في خير خلق الله"، وهو من تأليف الشيخ فتح الله بن أبي بكر بناني الرباطي المتوفى عام 1354هـ، وهو مطبوع في القاهرة عام 1323هـ.

- ومولد ابن المؤقت، بعنوان: "الرحمة العامة، في مولد خير الأمة"، للعلامة المؤقت الفلكي الحيسوبي محمد بن المؤقت المراكشي المتوفى بمراكش عام: 1329هـ، طبع بمصر عام 1321هـ في أربعين صفحة.

- مولد مزور، بعنوان: "شفاء السقيم، بمولد النبي الكريم"، للعلامة رئيس المجلس العلمي للقرويين الحسن بن عمر مزور الفاسي، المتوفى عام 1376هـ/ 1957م. المطبعة الجديدة بفاس 1350هـ ص 80.

وأختم هنا بذكر بعض المولديات التي ما تزال مخطوطة:

- بلوغ القصد والمرام، بقراءة مولد خير الأنام، لأبي عبد الله محمد بن محمد الحجوجي الدمناتي الفاسي، المتوفى بدمنات عام 1370هـ، وهو مخطوط في نحو 14 صفحة.

- ویتيمة العقد المتضد، في مولد سيدنا محمد، للشيخ الجليل والكاتب الكبير محمد بن عبد الصمد گنون الفاسي الطنجي، والكتاب ما يزال مخطوطا.

- الإسعاد الفائق بمولد خير الخلائق، للعلامة الفقيه أبي العلاء إدريس بن محمد العراقي، ما يزال مخطوطا.

- السر الباهر، في مولد النبي الطاهر، للشيخ عبد الحفيظ بن عبد الصمد گنون الطنجي، مخطوط أيضا.

إلى جانب هذه المولديات هناك أيضا كثير من القصائد في مدح شمائل النبوة التي تنشأ في حفلة ليلة المولد المبارك، نقف على نماذج كثيرة منها في عصر السلطان مولاي الحسن الأول، وغالبا ما تحتوي هذه القصائد على أغراض ثلاثة: مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح السلطان، والدعاء بأمن الدولة ورفاهية الأمة، يمكن أن نراجع هنا كتاب "الدرر الجوهريّة في مدح الخلافة الحسينية" لأحمد ابن الحاج وهو مخطوط، وكتاب: "اليمن الوافر الوافي في مدح الجناح اليوسفي" لابن زيدان وكناشة الطيب بن خضرا. وهنا يجب أن نذكر بمخطوط مهم ما زال في حكم المفقود ألفه مؤرخ الدولة العلوية الشهير أحمد ابن الحاج السلمي في العهد الحسني حول عادة العلويين في المولد النبوي، وهو المعروف أيضا بعنوان: "ذكر ليلة المولد النبوي وعادة أسلاف أمير المؤمنين مولاي الحسن فيها وأول من فعلها"¹². ونظرا للأهمية الخاصة التي يحتلها هذا التقيد في نفسية المؤلف، ومكانة التصوف والاحتفال بعيد المولد النبوي في حياته، فقد أدرج ملخصا لمحتوياته في تأليفه اللاحق وهو كتاب: "الدرر الإبريزية في الخلافة العزيزية".

ولا ننسى هنا الكتاب الضخم الذي ألفه الفقيه الولي الصالح سيدي محمد المعطى بنصالح المعنون ب: «ذخيرة المحتاج في مدح صاحب اللواء والتاج»، وهو مخطوط نفيس في عدة مجلدات يعمل صديقنا الدكتور عبد المجيد بوكاري على إخراج أجزاء منها وضمونها «سفر المولديات».

12 - عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج.2، ص. 456.

خاتمة :

وفي الختام يجب أن نذكر بأن المؤلفين للموالد النبوية عمدوا بكل محبة وإخلاص إلى تحرير مؤلفاتهم المولدية باستفراغ كل أقنوم، واستدعاء مبادئ العلوم، في علوم القرآن والحديث والسير والفقه والتاريخ، مع علم المأثور والمتداول والإجماع والمفرد والآحاد لذكر مسار مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وأثر هذا المولد في الوجود، لذلك يجب الدعوة إلى الاهتمام بأدب المولديات من خلال :

- فهرسة المخطوط منها بالبحث عنها في الخزانات الخاصة والعامة.

- دراستها وتحقيقها وطبعها ونشرها.

- تدريسها كنصوص أدبية وفنية للتلاميذ في سلك الإعدادي والثانوي.

- إحداث وحدة خاصة بها للتدريس في الجامعة المغربية.

- تحفيز الأدباء والشعراء على الاحتذاء بها في النظم والسبك.

- إحداث جائزة لأحسن مولدية، ولعل الفكرة موجودة بمصر.

وبذلك يكون بعث الأدب النبوي بمختلف أشكاله، وما أحوجنا إلى المولديات في زمن تتعرض فيه شخصية الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الهجوم الغاشم من طرف الأقلام المستأجرة والحاقدة والجاهلة.

وفي الأخير أختتم بهذا البيت الذي سمعته ينشد من طرف أحد علماء مراکش وهو على منبر بمسجد الكتبيين في ذكرى المولد النبوي الشريف :

محمد بشر لا كالبشر بل هو كالياقوت بين الحجر



الصفحة الأولى من مخطوط "تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام"،
توجد منه عدة نسخ بالخرانات العامة والخاصة
للعلامة الشيخ عبد الجليل بن عظم المرادي

قراءة في أمهات المصالح والمفاسد

تقديم كتاب : القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر لعيسى بن موسى بن أحمد بن الإمام التطيلي المتوفى سنة 386هـ

د. محمد النمينج

بين يدي الكتاب :

لا يخفى ما للتراث الإسلامي المخطوط من قيمة علمية وحضارية، جديرة بأن يعرف بها تحقيقا وشرحا ودراسة، ووعيا منبأ أن حاضر الأمة ومستقبلها لا يبلغان شأوهما إذا لم ينهضوا على ماضيها، وأن هذا الماضي بكنوزه العلمية والثقافية، كان وما زال بحاجة ماسة إلى قراءات علمية جديدة تفتح أبوابه المجهولة، وتكشف مضامينها الثرية، وتقدمه للأجيال مادة علمية نافعة ومفيدة ومصاغة صياغة ملائمة. انطلاقا من هذا الوعي بالمسؤولية الحضارية يأتي اختيار مخطوط من المخطوطات النادرة وهو : "القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر" للمؤلفه عيسى بن موسى بن أحمد ابن الإمام التطيلي (ت : 386هـ) أحد علماء الأندلس.

ويركز هذا المؤلف الهام على معالجة القضايا المتعلقة بالمباني وحقوق الجيرة في السكن وقواعد المعاملات، وهو لا يكتفي بتقديم الرأي الفقهي النظري فحسب، بل يتطرق إلى ما يطرح في ساحة القضاء من مشاكل وقضايا عملية في هذا الصدد¹.

أولا : التعريف بالمؤلف:

1- اسمه وكنيته :

هو عيسى بن موسى بن أحمد بن يوسف بن فهر بن خصيب الأموي مولى لهم، مع اتفاق بين ابن الفرضي والقاضي عياض على أنه يعرف بابن الإمام، ويكنى : أبا الأصبع². وهو ينتسب إلى منطقة تطيلة³ التي تسمى الآن Tudela ضمن ولاية أراجون ARAGON الإسبانية.

1 - بتصرف من تقديم الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) والدكتور جلول الجريبي رئيس جامعة الزيتونة التونسية للطبعة التي نشرتها منظمة الإيسيسكو للكتاب، سنة 1999.

2 - تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ج 1 ص 379 وترتيب المدارك، ج 7، ص : 22.

3 - تقع مدينة تطيلة شمال غربي سرقسطة على نهر إيبرو، انظر الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1 ص : 184، ومعجم البلدان، ج 2، ص : 75.

2 - مولده ونشأته :

من خلال ما بين أيدينا من معلومات المترجمين والمؤرخين فإن عيسى بن موسى ولد في منطقة تطيلة، وبالنظر إلى السن الذي مات عليه وسنة الوفاة نتبين أنه ولد سنة تسع وعشرين وثلاثمائة للهجرة 329هـ.

أما فيما يخص نشأته فقد ضنت هذه المصادر علينا بذكر مراحل حياته، وكيف قضى طفولته. والذي نخلص إليه أنه ترعرع في هذه المنطقة التي لها باع كبير وشهرة في مجال الفكر والحضارة الأندلسية.

ثم إن وسطه الذي شب فيه يتسم بالعلم " وبيتهم بالثغر معروف في العلم والجلالة"⁴. ولم تفدنا المصادر بما إذا كان ابن الإمام عاش في كنف والديه، أم تربى يتيما، لكن الذي أطلعنا عليه هو أنه عاش ثمان سنوات في رعاية جده عمر بن يوسف الذي سيكون له أثر كبير في حياته .

3- دراسته ورحلاته :

من المؤكد أن عيسى بن موسى تلقى المبادئ الأولية للعلم في مسقط رأسه وأن الوسط العائلي الذي كان يزخر بشخصيات حظيت بنصيب وافر من الثقافة السائدة آنئذ أسهم كثيرا في تهييء المناخ المناسب لغرس حب المعرفة في نفسه والدفع به إلى طلب المزيد.

وبعد تلقي الخطوات الأولى في سلم العلم وعلى عادة العلماء المسلمين الذين يشعرون بالنقص ما لم يقوموا برحلات تربطهم بالمواطن المشهورة في نشر الثقافة واستقطاب العلماء، نجد ابن الإمام قد قام برحلتين أشار إليهما كل من ابن الفرضي والقاضي عياض، لم يتوافر لدينا ما نستند إليه في تعيين زمانهما.

أ - رحلته إلى قرطبة : لقد كانت قرطبة مركزا للحضارة الأندلسية باعتبارها أم المدن ومقر الفنون والآداب، وقد استقطبت الكثير من الأعلام إلى أن أصبحت تضاهي المدن المشرقية المشهورة كدمشق وبغداد والقاهرة والإسكندرية وغيرها مما جعلها وجهة تشد إليها الرحال داخل الجغرافية الأندلسية للنهل من معين العلم مباشرة.

4 - تاريخ العلماء والرواة، ج 1، ص : 379.

انسجما مع هذا الوضع لم يشذ ابن الإمام عن هذه القاعدة، فنجدته قام بأول رحلة لهذه المدينة حيث التقى بالأعلام المشهورين في زمانه أمثال أبي عسى ونظرائه الذين وسعوا لديه الثقافة الفقهية والأصولية، وكان لهم كبير الأثر في حياته.

ب - رحلته إلى المشرق : لعل هذه الرحلة كانت الأكثر تأثيرا في شخصية ابن الإمام من سابقتها خصوصا إذا علمنا ما للشرق في نفوس المشاركة والمغاربة والأندلسيين، لكن ابن الفرضي والقاضي عياض لم يذكر سوى توجهه إلى القيروان، والظاهر أنه لم يتجاوزها، وكيفما كان الأمر فالقيروان تأثر بها ابن الإمام كثيرا في ثقافته وعلومه ويزداد الأمر أهمية حينما نعلم أن هذه الرحلة جاءت في فترة متزامنة مع وجود ابن أبي زيد القيرواني⁵، الذي يسمى مالكا الأصغر حيث كان جامعا مستوعبا للفقه المالكي ومؤلفا مصدرا من أهم الأمهات المعتمدة لدى المالكيين، ويتضح تأثير ابن أبي زيد في شخصية ابن الإمام العلمية كثيرا من خلال النقول العديدة الواردة في كتابه رغم أنه لم يصلنا سماع مباشر له . واتصل في هذه الرحلة إلى القيروان بأبي القاسم الصقلي المتخصص في الفقه والأصول، وخلاصة القول : إن ابن الإمام عمق في رحلته هذه معرفته بالعلوم الشرعية خاصة ما كان منها له علاقة بالجانبين الفقهي والأصولي.

4 - شخصياته وأخلاقه :

إن خير شاهد على ما كان يتصف به ابن الإمام التطيلي من سمو أخلاقي ما أورده ابن الفرضي في حقه قائلا: "وولي الصلاة موضعه، وكان خيرا فاضلا حدث ...". وهذه الشهادة نفسها صادرة من القاضي عياض⁶.

وبالنظر إلى هذه المواصفات التي لا نملك غيرها، فإنها قد أهلت إلى تولي الإمامة بمدينة تطيلة، ومعروف لدى الفقهاء المسلمين أنه لا يستحق الإمامة إلا من توافرت فيه شروط علمية وأخلاقية معينة تؤهله إلى أن يكون موضع قبول واستحسان من طرف الآخرين . ومن الإشارات القيمة أن ابن الإمام مارس التعليم، وذلك من خلال تدريسه لمادة الحديث النبوي ومعلوم لدى علماء الحديث أن المشتغل بهذا المجال العلمي لابد وأن يكون مؤهلا أخلاقيا ومعرفيا لذلك.

5 - يقول ابن خلدون في حق ابن أبي زيد : وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذاهب، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب . مقدمة ابن خلدون، ص : 450.

6 - تاريخ العلماء والرواة، ج 1، ص : 379 وترتيب المدارك، ج 7، ص : 22.

انطلاقاً من هذه المعطيات نخلص إلى تصور شامل لأخلاقيات هذا العالم، ولعل أفضل شهادة في هذا الباب ما أورده ابن الفرضي والقاضي عياض من أنه: "... كان خيراً فاضلاً ..."، ونحن نعلم أن أمثال هؤلاء المؤرخين لا يتلاعبون في إطلاق الأوصاف التقويمية والتقييمية تعديلاً وتجريحاً للأشخاص خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالأخلاق والحديث النبوي .

5- وفاته :

ليس هناك خلاف بين المؤرخين في سنة وفاة عيسى بن موسى، فالمصدران المعتمدان ينصان على أنه انتقل إلى جوار ربه يوم الخميس صدر شعبان سنة ست وثمانين وثلثمائة (386هـ) ودفن يوم الجمعة بعد أن صليت عليه صلاة الجنازة بعد أداء فريضة الجمعة.

وسنة الوفاة هاته يشترك فيها مع أحد أقطاب الفقه المالكي الذي كان له تأثير بليغ في حياته الفكرية وهو ابن أبي زيد القيرواني الذي توفي أيضاً سنة 386هـ.

6- شيوخه وتلامذته :

أ- شيوخه : سبق لنا وأن أشرنا إلى أن الوسط الأسري الذي عاش فيه ابن الإمام كان غنيا بالعناصر المشجعة على العلم والتعلم، وطبيعي أنه استفاد منه وتلقى تكوينه الأولي فيه.

ومن أولئك الأعلام الذين أثروا في حياته تأثيراً واضحاً بالدلائل المادية الملموسة في كتابه "القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر" في منطقة تطيلة نجد الشخصيات التالية:

1 - جده أحمد بن يوسف بن موسى بن فهر بن خصيب الأموي.

وكما يتضح من حضور الجد في ثنايا مباحث الكتاب فإن المؤلف ينقل عن جده في سياق يفيد الرواية كقوله : حدثني وأخبرني، ولنسق أمثلة لذلك :

- قال عيسى بن موسى : وأخبرني جدي عمر بن يوسف قال : سألت محمد بن تليد⁷.

قال عيسى بن موسى : وحدثني جدي عمر بن يوسف قال : قال لي إسماعيل بن موصل⁸.

7 - انظر ص : 84 من الكتاب بتحقيقنا .

8 - ص : 120 من الكتاب بتحقيقنا .

2 - عمر بن يوسف⁹ بن موسى بن فهر بن خصيب الأموي، من أهل تطيلة يكنى أبا حفص، ويعرف بابن الإمام، يقول في حقه ابن الفرزي، وامتنحن بالأسر هو وابنه وأخوه فافتدوا بخمسة عشر ألف دينار.

ورواية عيسى بن موسى عن عمر بن يوسف تكون إما عن طريق أخيه أحمد بن يوسف أو بطريقة مباشرة كما في المثال التالي:

قال عمر بن يوسف وسألت محمد بن تليد عن الرجل يصرف ماء سقف داره على دار جار له¹⁰. وبخصوص ثقافة عمر بن يوسف ومؤهلاته العلمية يمكن أن نسجل الجوانب الآتية:

- كان حافظا للمسائل الفقهية.

- تولى القضاء بتطيلة بعد بلال بن عيسى، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة 325 هـ وبقي قاضيا إلى أن توفي سنة 337 هـ وهو ابن ثلاث وتسعين سنة، وكان مولده سنة 244 هـ، وهذا يعني أن عمر بن يوسف قد عمر طويلا، وأن عيسى بن موسى عاش في كنفه ثمان سنوات.

3 - أحمد بن موسى¹¹ بن أحمد بن يوسف بن فهر بن خصيب الأموي يعرف أيضا بابن الإمام ويكنى أبا بكر، وأحمد بن موسى هذا هو أخو عيسى بن موسى ومن مؤهلاته العلمية ما يلي:

- يؤكد ابن الفرزي أنه كان فقيها عالما بالمسائل والفروع وهذا عنصر مشترك بينه وبين عمر ابن يوسف.

- توليه القضاء بتطيلة، وتجدر الإشارة إلى أنه كان من العلماء الذين حظوا بمكانة كبيرة لدى الخلفاء، فنجد أنه قد حضر بيعة هشام المؤيد سنة 366 هـ.

وأمام هذه العناصر الثلاثة: الأخ والجد والعم لا يسعنا إلا أن نخلص إلى أن بيت ابن الإمام هو بيت علم وثقافة مما سينعكس إيجابا على حياة المؤلف الفكرية.

ومن شيوخه بتطيلة غير أفراد بيته نجد:

9 - تاريخ العلماء والرواة ج 1 ص 367 وترتيب المدارك، ج 5، ص 254 وبغية الملتبس ص: 409.

10 - ص: 102 من الكتاب بتحقيقنا.

11 - تاريخ العلماء والرواة، ج 1، ص: 70 وترتيب المدارك، ج 7 ص: 22.

- محمد بن شبل¹² الذي كان يرحل إليه من المدن المجاورة للسمع، ولعل هذه الشخصية التي تتلمذت لأعلام مشهورة في الأندلس كان لها كبير أثر في حياة المؤلف العلمية، وهذا واضح في كتاب ابن الإمام حيث يعترضنا كثيرا ورود مثل هذه العبارة : حدثني جدي عمر بن يوسف عن محمد بن شبل .. وقد توفي سنة 353هـ مما يعني أن ابن الإمام قد عاش في كنف هذا العالم ما يقرب من أربع وعشرين سنة .

أما شيوخ عيسى بن موسى خارج مسقط رأسه تطيلة فنجد الأعلام التالية :

- ففي قرطبة نجد أبا عيسى يحيى بن عبد الله، سمع من عبد الله ومحمد بن لبابة، ورحل إليه الناس من جميع الأندلس لرواية الموطأ وحديث الليث وسمع ابن القاسم، وعشرة يحيى بن يحيى الليثي، وتفسير عبد الرحمان بن زيد بن أسلم، ومشاهد بن هشام، واتف من حديث الشيوخ وقد تفرد بالقضاء، والنظر في الأحباس وتفريقها وعمر إلى أن توفي سنة 367هـ¹³.

- أما في المشرق فقد أخذ عن أبي القاسم عبد الرحمن البكري الصقلي الشيخ العارف المحقق شيخ الطريقة وإمام الحقيقة الذي جمع الحديث والفقه والأصول المتوفى قبل ابن أبي زيد القيرواني¹⁴. وليس من المستبعد أن يكون ابن الإمام قد تتلمذ على يد ابن أبي زيد القيرواني - مالك الصغير - ولعل ما يؤكد هذا هو كثرة النقول عنه، فتعترضنا بعض المباحث التي نجد فيها هذه العبارة : ومن كتاب المباني لأبي زيد القيرواني ... وكل من العالمين عاشا في زمن واحد وتوفيا معا سنة 386 هـ، والواضح أن كتاب "النوادر والزيادات" كان له حضور قوي في كتاب ابن الإمام.

ب- تلاميذه :

لقد ضنت علينا المصادر التاريخية في هذا الجانب بالمعلومات الكافية ولم تسعفنا إلا بذكر علم واحد من الأعلام الذين تتلمذوا على عيسى بن موسى وهو محمد بن علي بن محمد بن شبل شيخ ابن الإمام سابقا، ويقال له الشبل بن بكير القيسي وهو أيضا من علماء تطيلة، وفقهائها وبيوتها المشهورة في العلم والجلالة إلى درجة أنه ولي أحكام بلده¹⁵، ولا نشك في وجود أعلام آخرين تتلمذوا له

12 - ترتيب المدارك، ج 7، ص : 216.

13 - ترتيب المدارك، ج 6، ص : 108 وتاريخ العلماء والرواة ج 2، ص : 191. وبغية الملتبس، ص : 488.

14 - الشجرة الزكية، ص : 98.

15 - ترتيب المدارك، ج 7، ص : 216.

وسمعوا منه خصوصا إذا علمنا أن من أهم مؤهلاته العلمية الفقه والأصول والقضاء وتأكد لنا أنه قام برحلات علمية خارج مسقط رأسه .

7- مؤلفات ابن الإمام التطيلي :

لقد ضنت علينا المصادر التاريخية ومعاجم المؤلفين بخصوص هذا الجانب ولم تسعفنا بالإشارة إلى مؤلفات عيسى بن موسى . وما استطعنا بسط يدنا عليه هو كتابه هذا " القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر " وهو الوحيد، ولم تشر إليه المصادر التي عايناها، ولا ندري ما إذا كانت هناك مؤلفات أخرى ما زالت في عداد المخطوطات أو اقتصر عمله على هذا الكتاب الفريد من نوعه، وإن كنا نميل إلى أن ابن الإمام له إسهامات علمية أخرى لكونه عاش في فترة زخرت بنشاط علمي مادي ومعنوي شجع على اقتناء الكتب ونسخها وتأليفها.

8- مكانة ابن الإمام التطيلي العلمية :

يجب أن نلفت النظر قبل مناقشة علم ابن الإمام ومذهبه الفقهي إلى أن مسقط رأسه - تطيلة - كان له إشعاعات في الفكر والتراث الحضاري الأندلسيين، ومن الأعلام المضيئة في سماء الأندلس التي نشأت واستمدت جذورها من تربة تطيلة ما يلي :

- الشاعر الأعمى التطيلي¹⁶.
- محمد بن فتح المعروف بابن شبطون¹⁷.
- سعيد بن مروان بن مالك بن عبد الله الحضرمي¹⁸.
- عبد الله بن يوسف¹⁹.
- محمد بن محمد²⁰.
- محمد بن شبل²¹.
- محمد بن علي بن شبل²².

16 - ديوان الأعمى التطيلي، ص : 21.

17 - تاريخ العلماء والرواة، ج 2، ص : 726.

18 - المصدر السابق، ج 2، ص : 301.

19 - المصدر السابق، ج 1 ص 333.

20 - المصدر السابق، ج 1، ص : 650.

21 - ترتيب المدارك، ج 7، ص : 216.

22 - نفس المصدر، ج 7، ص : 216.

- بلال بن عيسى القاضي بتطيلة²³.
- أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصاري الخزرجي.
- علي أبو الحسين التطيلي²⁴.
- يحيى بن عبد الله بن عبد السلام الهذلي التطيلي²⁵.
- عمر بن يوسف جد ابن الإمام.

فلا عجب أن يكون عيسى بن موسى باكورة من هذا الجنان وثمره طيبة من هذه التربة، ولن يقل في ضيائه عن باقي النجوم.

ولاستجلاء مؤهلاته العلمية ومستواه الفكري نرى أن نثير الجوانب التالية :

أ - مذهبه الفقهي.

لم يجد عيسى بن موسى عن المذهب الفقهي السائد آنئذ، فقد عاشت الأندلس منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري في ظل المذهب المالكي، وذلك بفضل الجهود الكبيرة لكل من أبي محمد يحيى بن يحيى الليثي²⁶ وعيسى بن دينار²⁷ اللذين بفضلهما انتشر الفقه المالكي في الأندلس وازداد رسوخاً على يد عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي الألبيري²⁸.

وبالنظر إلى العلماء الذين تتلمذ ابن الإمام على أيديهم وإلى الحقبة الزمنية التي عاش فيها وإلى كتابه من ألفه إلى يائه نتأكد أنه كان يتمذهب بالمذهب المالكي، بل نميل إلى أكثر من ذلك فنعتقد أنه كان متشدداً في تقيده بفتاوى وآراء ومصادر وعلماء المذهب المالكي فقط، فلا يجيد عن هذا الاتجاه أبداً.

ب - علمه :

باستحضار ثقافة وتخصصات شيوخ عيسى بن موسى، والمذهب الفقهي السائد آنئذ في الأندلس، فقد كانت الحصيلة المعرفية لعالمنا مزيجاً من الفقه وأصوله وحضوراً قوياً للقضاء في طبع الكتاب بطابع قضائي في العنوان وتسمية الباحث الرئيسية.

23 - تاريخ العلماء والرواة، ج 1، ص : 367.

24 - ترتيب المدارك، ج 5، ص : 254.

25 - الإحاطة، ج 1، ص : 184.

26 - الشجرة، ص : 63.

27 - الشجرة، ص : 64.

28 - الشجرة، ص : 74.

ثم إن ابن الإمام عني بالحديث النبوي، فقد أكد كل من ابن الفرضي والقاضي عياض تعاطيه حلقات الحديث رواية وتدريسا في مساجد تطيلة.

ج- آراء العلماء فيه :

لم تسعفنا المصادر التاريخية بشهادات كثيرة بخصوص هذا الجانب إلا أنه يكفينا شهادة عالين جليلين في حق ابن الإمام للدلالة على مكانته العلمية فكل من ابن الفرضي والقاضي عياض قال في حقه : "... وقد كان خيرا، فاضلا حدث ..."²⁹، ورغم ذلك فإننا نشعر بالتقصير في حقه وفضله، وهذا راجع إلى عدم شهرته واطلاع الناس على مؤلفه، ونحن نستغرب كيف لم يهتم به، وبكتابه الذي يعتبر تصنيفا فريدا من نوعه في بابيه وموضوعه.

ثانيا : التعريف بالكتاب

1- توثيقه :

لم تفدنا المصادر التاريخية ولا معاجم التراجم والمؤلفين بما نستند إليه في التحقق من نسبة كتاب "القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر" إلى مؤلفه عيسى بن موسى، لكن بعد اطلاعنا على النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق، وكذا بعض كتب الفقه المتأخرة التي تعاملت مع كتابه وشهادات بعض النساخ استطعنا أن نطمئن إلى أن هذا الكتاب هو من تأليفه جازمين بصحة النسبة، والمعطيات التي اجتمعت لدينا نستطيع تصنيفها كالآتي :

أ- النسخ الخطية الثلاثة المعتمدة في التحقيق: فرغم تفاوتها الزمني في النسخ وتباعدها جغرافيا فهي كلها تبتدئ بهذه العبارة : بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر.

قال عيسى بن موسى بن أحمد بن الإمام التطيلي، روى مالك عن ابن شهاب، وقد تكرر ذكر اسم المؤلف ثمانا وثلاثين مرة.

ب- شهادات النساخ : لا نملك في هذا الجانب إلا شهادة الناسخ للمخطوطة المراكشية حيث نجد في الصفحة الأولى اعترافا منه بنسبة الكتاب إلى صاحبه هذا نصه : بسم الله الرحمن الرحيم

29 - تاريخ العلماء والرواة 379/1 وترتيب المدارك : 22/7.

وصلى الله على سيدنا محمد كتاب القضاء ونفي الضرر عن الأقفية والطرق والجدر والمباني والساحات والشجر والجامع مما عني بتأليفه عيسى بن موسى بن أحمد ابن الإمام التطيلي .

ج - نقول المتأخرين من كتاب ابن الإمام

ذلك واضح من خلال كتاب الإعلان بأحكام البنيان لمحمد بن إبراهيم اللخمي المشهور بابن الرامي التونسي البناء، فقد تضمن الكتاب نقولا هي بمثابة اعتراف بنسبة الكتاب إلى صاحبه، فمثلا في الصفحة 14 قال ابن الرامي : ومن كتاب الجدار لعيسى بن موسى قال ... والأمر نفسه يتكرر في الصفحات 103 و 109 و 110 و 163 و 165 و 171 و 190 و 193، فهذه النقول المتعددة التي تثبت جوانب من مباحث كتاب ابن الإمام مع ذكر اسمه في كل نص لأكبر دليل على صحة نسبة هذا الكتاب إلى صاحبه.

2 - موضوعه :

إن ما يصطلح عليه الآن في القانون العقاري بالخبرة والخير أو البصارة والبصير قديما يعتبر الأساس الذي انطلق منه الكتاب في كل مباحثه، وهذه الخبرة تأخذ أحكامها وحلول قضايها انطلاقا من الشريعة الإسلامية في ضوء إنتاج علمائها وفقهاها الذين اجتمع لهم العلم والتجربة الواقعية في مجال البناء ومشاكل الارتفاق . فاتجه ابن الإمام يستقطب حول كل مادة جميع ما بلغ إلى سمعه، أو وقع عليه بصره أو وصله بالخبر، وما وضع عليه اليد من نصوص المالكية وفتاويهم التي تعالج مشاكل البنيان مع استشارات للفقهاء المعاصرين وأهل الفتوى النظريين والتطبيقيين.

وهكذا فالكتاب جاء متضمنا مباحث في شؤون البنيان اشتراكا وجوارا وارتفاقا، وتبعات ذلك من أحكام شركة الملك وأحكام الجوار والارتفاق، ومباحث في أنواع الضرر الناتج عن البنيان واستعمال العقار واستغلاله بالكراء ونحوه، وفي الاختلاف على مرافقه، وفي عيوبه، وقد توسع ابن الإمام في معنى البناء ليشمل كل إنشاء وتعمير. فبحث الجوار في الأرضين والتداعي في تخومها وفيما يكون فيها من عيون وآبار، وقسمة العقار بنيانا وأرضا، وما ينشأ على الأرض من أندر وطرق عامة وخاصة وأضرارها، واتخاذ الأرحية والأفران والضرر الناتج عنها، وعلو الدار وسفلها، ومشاكل إفساد المواشي للزروع وأحكام الضمان فيها، واتخاذ الحمام والنحل وغيرها من الطيور وضررها بالغير.

ولنمكن القارئ من ملامسة جوهر موضوع الكتاب نعرض أمامه العناوين الكبرى للمؤلف وهي كالآتي:

- مقدمة المؤلف.
- القضاء في الدار تكون بين الرجلين أو البير فتتهدم ويأبى أحدهما من بنيانها.
- القضاء في رفوف الدور والارتفاق بساحتها.
- القضاء في الرفوف تخرج على أزقة المسلمين وبنيان السقف عليها.
- القضاء في من كان له علو على رجل فأراد أن يبني عليه علواً آخر ويزيد فيه.
- القضاء في بنيان سلام الدور.
- القضاء في مهارق السقوف ومخارج الدور.
- في الرجل يهرق ماء سقفه في دار جاره فيريد أن يعلي بنيانه.
- القضاء في كنس الدور المشتركة وغلق أبوابها.
- القضاء في مراحيض الدور وكنسها.
- القضاء في الخربة تكون بين أظهر قوم فيكثر فيها الزبل على من كنسها.
- القضاء في فتح الأبواب والكوى في الدور والرجل يعلي بنيانه فيمنع جاره الرياح والشمس.
- القضاء في فتح الأبواب والخوانيت في الأزقة النافذة وغير النافذة.
- القضاء في مباني المساجد وصوامعها وقطع ما اطلع منها أو بني ضرارا.
- القضاء في الأفران وخوانيت الحدادين والدباغين والحمامات المحدثثة وقطع ما أضر منها.
- القضاء في الأنادر وقطع ما أضر بها أو أضر منها.
- القضاء فيمن أحدث عليه شيء يضر به ولم يقم في ذلك إلا بعد طول زمان.
- القضاء في الجدران وقسمتها والارتفاق بها.
- الدعوى في الجدار.

- القضاء في الجدار المائل المخوف سقوطه.
- القضاء في الرجل يبني جداره فيميله إلى (هواء) جاره.
- القضاء في من أذن لجاره في بنیان جداره على أن يحمل عليه خشبه.
- القضاء في الرجل يريد أن يطري جداره على دار جاره.
- القضاء في من بنى في مال رجل بإذنه أو بغير إذنه أو بنى في مال زوجته.
- ما جاء في من غير تخوم الأرضين.
- القضاء في الأفنية والطرق والتوسع فيها وما يجوز من ذلك وما لا يجوز.
- القضاء في قدر سعة الطريق.
- القضاء في الكنف والباليع تتخذ في الطريق.
- القضاء في الرجل يهدم داره ويجعل نقضه في سكة المسلمين.
- الدعوى والإنكار في الطريق.
- القضاء في من كان له ممر على رجل إلى نخلة فيريد منعه من ذلك إلا عند جني ثمرها.
- في الرجل تكون له الأرض بين أملاك قوم فيغلق القوم أملاكهم ويقطعون بذلك طريقه.
- القضاء في الرجل يكون له طريق بين أملاك قوم فيريد تحويلها إلى موضع آخر من أرضه.
- في الرجل يكون له البيت في الدار المشتركة فيريد أن يفتح في ذلك البيت بابا إلى دار له أخرى.
- القضاء في طريق العامة والخاصة يقطعه نهر.
- القضاء في من قطع شجر رجل أو أفسد شيئا منها.
- القضاء في من اغتصب غرسا من جنان رجل فغرسه في جنانه.
- القضاء في من اغتصب زرعاً أو بصلاً فغرسها في أرضه.
- القضاء في الشجر تكون للرجل تتفقع عروقها في أرض جاره.

- القضاء في شجر الرجل تميل إلى هواء جاره.
 - القضاء في الشجر تكون للرجل في أرض غيره فتسقط، هل يجعل في موضعها أخرى.
 - القضاء في ثمرة الرجل تسقط في جنان جاره وتضر به.
 - القضاء في الشجر تكون بين الدور يطلع منها على الجيران عند جناها.
 - القضاء في الشجر تجاور طريق قوم فتضر بالمارة فيها.
 - القضاء في إحداث أبرجة الحمام والعصافير واتخاذ النحل والإوز وضمان ما أفسدت المواشي والكلب العقور.
 - القضاء في بيع المواشي العادية على الناس في أموالهم.
 - القضاء في الدابة تفسد زرع رجل بأكثر من قيمتها.
 - القضاء في الزرع الأخضر يفسد كيف يقوم.
 - القضاء في النحل يدخل جيب رجل، وفي حمامه يدخل برج جاره.
- 3- مصادره ودواعي تأليفه :

اعتمد ابن الإمام أمهات المصادر في الفقه المالكي ابتداء بموطأ الإمام مالك وصولاً إلى معاصريه من الفقهاء الأندلسيين أبناء القرن الرابع الهجري، وهذا جرد لكل المؤلفات الواردة في الكتاب:

- 1- موطأ الإمام مالك بن أنس المتوفى 179 هـ.
- 2- المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن الإمام عبد الرحمن بن القاسم.
- 3- موطأ ابن وهب عبد الله بن مسلم القرشي، ت 197.
- 4- ديوان أبي مروان عبد الملك بن عزيز بن الماجشون ت 216 هـ.
- 5- سماعات أبي عمر أشهب بن عبد العزيز المصري ت 204 هـ.
- 6- المختصر الكبير لأبي محمد بن عبد الحكم بن أعين ت 214 هـ.

- 7- الواضحة في السنن لعبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي الألبيري ت 238هـ.
- 8- ديوان أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الإسكندري المعروف بابن المواز ت 269هـ المشهور بالموازية.
- 9- العتبية أو مستخرجة أبي عبد الله محمد العتبي بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة القرطبي ت 254هـ.
- 10- مجموعة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبدوس ت 260هـ.
- 11- كتاب النوادر والزيادات لأبي محمد بن عبد الله بن أبي زيد القيرواني ت 386هـ.
- 12- سماعات أبي عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المصري، ت 225هـ.
- 13- منتخب الأحكام لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري القرطبي، ت 399هـ.
- 14- كتاب لأبي محمد عيسى بن دينار بن وهب القرطبي ت 212هـ.
- 15- كتاب محمد بن عبد السلام الخشني القرطبي في الحديث.

أما بخصوص دواعي التأليف فإن الكتاب لم يكن نزولا عند رغبة جهة من الجهات الرسمية، وإنما هو استجابة لضرورة موضوعية وتغطية لمشاكل الوضع الحضاري الجديد في الأندلس خصوصا ما يتعلق بموضوع المباني والمرافق الاجتماعية، فقد عرف قطاع العمران توسعا كبيرا في عهد ابن الإمام ترتب عنه مشاكل تنتج في الغالب عن تضارب استغلال العقار وتجاذب المصالح مما يؤدي إلى نزاعات تستدعي تدخل جهاز القضاء والمؤسسة العلمية لفضها ووضع حلول لها .

ومن الأمثلة على التوسع العمراني ما عرفته مدينة قرطبة التي كانت مركز الحضارة بالأندلس ومقر الفنون والآداب، فيذكر المقرئ نقلا عن بعض المؤرخين أن دور قرطبة بلغت في عهد ابن أبي عامر 213077 دارا للعامة و 6300 دارا للأكابر والوزراء والكتاب والأجناد بالإضافة إلى مصاري الكراء والحمامات والخانات وبلغ عدد حوانيت قرطبة 80555 حانوت وبلغ عدد حماماتها 911 حمام وقيل 700 حمام وعدد مساجدها 3877 وقيل 183 مسجد³⁰.

4- منهجه :

منهجية ابن الإمام اعتمدت مستويين اثنين : نظري وعملي :

30 - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص : 296.

أ - فالنظري تمثل في الانطلاق مما هو خاص ليصل إلى ما هو عام فبدأ كتابه بقضايا الملكية الخاصة ثم تدرج معها إلى الملكية العامة ومشاكلها وما تستدعيه من حلول.

ب - أما العملي فيتجلى في:

* تقسيمه الكتاب إلى أبواب تمثل القضايا الرئيسية .

* جمع الفتاوى والآراء ووجهات النظر المختلفة انطلاقا من أقوال الصحابة وصولا إلى الفقهاء المعاصرين له.

* استشارة الخبراء في العقار القادرين على تنزيل الفقه على الواقع.

* الترجيح بين الآراء الفقهية في بعض مباحث الكتاب.

* إضفاؤه الصبغة القضائية على الأحكام التي تم تبنيها حلا للمشاكل المطروحة.

5- المخطوطات المعتمدة في تحقيق الكتاب :

اعتمدت في تحقيق الكتاب على ثلاث نسخ هي كالآتي :

أ - النسخة الأولى بالخرزانة الوطنية بالجزائر العاصمة ضمن مجموع رقم 1292 رمزنا إليها بحرف (أ) عدد صفحاتها 103 مسطرتها 21 مقياس 188 مم على 132 مم.

ب - النسخة الثانية بخرزانة جامع ابن يوسف بمراكش وهي ضمن مجموع تحت رقم 139 رمزنا إليها بحرف (ب) تضم 176 صفحة مسطرتها 17 ومقياس 200 مم × 140 مم.

ج - النسخة الثالثة : أيضا بالمكتبة الوطنية الجزائرية ضمن مجموع رقم 1298 رمزنا إليها بحرف (ج) مسطرتها 29 ومقياسها 272 مم × 206 مم.

وقد حقق الكتاب لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بفاس سنة 1993م، وطبع ونشرته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بشراكة مع جامعة الزيتونة التونسية سنة 1420هـ / 1999م.

6- قيمة الكتاب العلمية:

لن نبالغ إذا قلنا: إن قيمة الكتاب صنيع بديع وطرّاز فريد من نوعه لم يسبق إلى مثله أحد حسب ما وصل إليه علمنا المتواضع، فهو نموذج اختلقه ابن الإمام على غير المعهود من تخصيص

بعض المباحث أو الأبواب بالتأليف، إذ لا يجد الباحث مهما أفرغ جهده مؤلفا يتمتع بهذا النوع من الاستقلالية وبالذات في هذا الموضوع، فهذه الرسالة عبارة عن تحقيق كتيب صغير، ولكنه كتاب كبير، أنتجته الحضارة الإسلامية في منتصف القرن الرابع الهجري. والظرف التاريخي إذ ذاك هو ظرف توسع عمراني بمعنى كلمة عمران عند ابن خلدون، ضغط في الجانب الثقافي، وفي الجانب الصناعي، وفي الجانب السكني، وفي مختلف الجوانب، هذا الظرف فعلا ضغط على أمثال هؤلاء من القضاة العلماء المزودين بالرصيد الفقهي اللازم، الذين واجههم تحدي الواقع: مشاكل كثيرة تظهر في الطرق، وفي المباني بصفة عامة، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض، وفي التهوية، وفي تربية المواشي والدواجن، وفي الحمامات، وفي الأفران والأزقة والشوارع، وفي أمور كثيرة من شؤون الحياة الخاصة والعامة. فهذا القاضي الذي يعاني ربما يوميا من وطأة مثل هذه المشاكل الجديدة أراد أن يخفف على نفسه، ويخفف على غيره كذلك، ويؤسس لقضاة الغد كتابا يرجعون إليه، وينطلقون منه، ويزيدون على ذلك إن استطاعوا.

في زماننا هذا على سبيل المثال ما أحوج البلديات اليوم والجماعات الحضرية والقروية، وما أحوج مجلس النواب، وما أحوج وزارة السكنى والتعمير، وما أحوج وزارة السياحة، ووزارات كثيرة وتخصصات كثيرة من أجهزة الدولة لتعرف حكم الله في هذه الأمور التي تأتيها، لأن هذه الأمور بما هي معنية بها، هاهنا اجتهادات شرعية فيها، وهي بداية الطريق تحتاج إلى فقهاء معاصرين ليواصلوا المسار بما يناسب الوقت.

أقول، هذا نص فعلا فريد في الحقيقة لقدمه، ولنقله العالية عن أئمة المالكية، ولكونه استجابة صحيحة سليمة لتحديات عصره، ولطريقة جمعه وتصنيفه، وباعتبار موضوعه الطريف النادر يحتاج إليه الناس اليوم، يحتاج إليه مدبرو الأمور اليوم بصفة عامة للأمة حاجة شديدة جدا إن كانوا يريدون الفوز بالسعادة في دنياهم والفوز بأخراهم.

قراءة في مخطوط الخصال لابن زرب القرطبي ت 381هـ قدمه واعتنى بنصه وعلق حواشيه

ذ. عبد الحميد العلمي

نعتمد في هذه القراءة على إفادتين هما :

أولا : إفادة تتعلق بالتعريف بمؤلف الخصال

1- نبذة عن حياته وبعض أخباره

هو أبو بكر محمد بن يبقى بن زرب القرطبي، شيخ المالكية في وقته ولد في شهر رمضان المعظم عام 319هـ وهو أحد صدور الفقهاء بالأندلس، إذ كان يلقب في علمه وورعه بابن القاسم. وكان القاضي ابن السليم يقول له لو رآك ابن القاسم لعجب منك يا أبا بكر، سمع من قاسم ابن أصبغ ومحمد بن عبد الله بن دليم وطبقتهما، وعني بالرأي، وأخذ الفقه عن اللؤلؤي وابن إبراهيم وغيرهما. قال الحسن بن محمد : وكان أحفظ أهل زمانه للفقه على مذهب مالك وأصحابه، حليما محتملا، صبورا نفاعا لمن علق بحبله، جميل المنظر سهل الخلق حسن الصورة طيب الرائحة نظيف الملبس والمركب... لم يحفظ عنه أنه قرع أحدا بسوط مدة قضائه. لا تأخذه مع ذلك في الله لومة لائم تولى خطة القضاء سنة 367هـ وبقي بها إلى أن توفاه الله في شهر رمضان الأبرك عام 381هـ وحمل علمه ثلة من العلماء العاملين أمثال :

- القاضي أبو الوليد محمد بن المغيث القرطبي راوي الخصال.

- ومحمد أبو عبد الله بن محمد الحذاء التميمي المتوفي عام 410هـ.

- وأحمد الجذامي المتوفي عام 461هـ¹.

1 - تنظر ترجمته في :

- الديباج المذهب 268/1.

- المرقبة العليا ص 177 وما بعدها.

- سير أعلام النبلاء 411/16.

وترك إرثا علميا انتشر في مسائله وأجوبته وفتاواه ونسب إليه كتاب في الرد على ابن مسرة وآخر في الوثائق².

أما الخصال فلم يختلف اثنان في نسبه إليه وبه حدث جماعة من العلماء كابن عبد البر وغيره³.

2- ابن زرب القاضي :

انخرط ابن زرب قبل توليه خطة القضاء في سلك الفقهاء المشاورين، فقد ثبت أن القاضي ابن السليم كتب إليه : "في رجل من أهل الثغر بيده فرس موسوم في فخذه - حبس لله تعالى - رفع إلى القاضي فسأل عن وجه تملكه للفرس فقال : شريته ببلاد البربر فلما جئت سجلها سئمت أن أغرم عليه أو ينزع مني فوسمته هذا الوسم، فكتب إليه القاضي ابن زرب : إن لم يعرف ملكه للفرس من قبل هذه الوسمة، فإن قامت بينة بما ادعاه فخل بينه وبينه، وإن لم تقم بينة بما ادعاه فامضه في سبيل الله على ما ظهر من وسمه ولا يصدق المتعدي في هذا إلا بينة"⁴.

وفي شرح السجلماسي على عمل فاس :

"وفي بعض التعاليق : أن القاضي ابن زرب . بعث إليه القاضي ابن السليم بعصبة ميت . وزوجة ادعت أنها حامل وأكذبها العصبة، قال ابن زرب فقلت لها : اتقي الله ولا تدعي الحمل، وليس بك حمل، وربما كانت علة في الجوف تسميها الأطباء الرحي، تظن المرأة أنها حامل ولا حمل بها. فقالت : أنا حامل. وما أرسلنا إليك ابن السليم إلا على أنك فقيه، لا على أنك طبيب، فتبسمت ضحكا وعجبت : وتمادت على ادعاء الحمل إلى أن توفي القاضي ابن السليم، ووليت القضاء فأمرت أن تنظر إليها القوابل فنظرنها، فقلن : لا حمل بها فقضيت بقسم الميراث"⁵.

وكانت له رحمه الله أقوال معلومة في أبواب القضاء، ففي أحكام الوكالة : قال ابن زرب إذا وقع التوكيل عند حاكم صرح الموكل في التوكيل باسم الحاكم إن لم يكن التكلم عند حاكم غيره. وإن كان التوكيل مجملا فله أن يخاصمه حيث شاء"⁶.

2 - ينظر المذهب في حفظ مسائل المذهب 577/2.

3 - جذوة المقتبس، ص 93.

4 - تنظر التبصرة 108/2.

5 - ينظر شرح السجلماسي على عمل فاس 58/1 بتصرف.

6 - ينظر التبصرة، 134/1.

كما كانت له اجتهادات مخصوصة في علم الشروط والتوثيق جاء في كتاب المقنع حول وثيقة التوليج⁷. وصورتها : إذا شهد الشهود العدول على أن الوالد باع داره لأحد أبنائه على سبيل التوليج، فقد حكم شيوخ قرطبة أن ترجع الدار ميراثا بعد حيازتها.

"وإذا شهدت البيئة أن البيع بينهما إنما هو على وجه التوليج شهادة مجملة، فعند محمد بن حارث لا تجوز لأنها غير تامة حتى يفسر معنى التوليج، وقال القاضي محمد ابن زرب : الشهادة بذلك تامة لأن الشاهد العدل يحمل في شهادته على العلم"⁸.

هذا وقد شهد له كل من ترجم له بطول باعه، وقوة عارضته في مجال القضاء مما أهله أن يكون قاضيا مبرزا للحضرة القرطبية.

3- ابن زرب الفقيه :

ذكر أصحاب التراجم والطبقات أن ابن زرب كان يلقب بابن القاسم.

ويحضرني في الباب لقب "مالك الصغير" الذي أطلق على الشيخ ابن أبي زيد القيرواني ت. 386هـ معاصر ابن زرب ولاشك أن بين اللقبين مغايرة مشعرة بالخصوصية. وقولي بالإشعار : مبني على ما نقل عن أهل العلم من أن الأندلسيين كانوا يرجعون في الفقه والفتوى إلى موطأ مالك وفي القضاء والشهادات إلى أقوال ابن القاسم.

قال أبو بكر الطرطوشي : "أخبرني القاضي أبو الوليد الباجي أن الولاة كانوا بقرطبة إذا ولوا رجلا القضاء شرطوا عليه في سجله ألا يخرج عن قول ابن القاسم ما وجد"⁹.

وبإحالة النظر بين رسالة الشيخ وخصال القاضي ، تتبين صحة ذلك النقل.

ولما كان من شروط القاضي أن يكون متضلعا من علم الفقه، فقد تحقق هذا في الإمام ابن زرب كما هو ظاهر من سيرته وعلمه الذي نال به درجة الاجتهاد، فنسبت إليه مسائل تفرد بها في المنقول عن المالكية، منها:

- شمول بعض ألفاظ الوقف من حيث عمومها أو خصوصها لأولاد البنات. جاء في كتاب

الذخيرة :

7 - التوليج : المحابة من الولوج لأنه يدخل في ملك الغير ما ليس له.

8 - المقنع في علم الشروط لابن مغيت الطليطلي، ص 315.

9 - تبصرة الحكام ، 52/2.

- "اللفظ الخامس: على أولادي، ويسميههم بأسمائهم ذكورهم وإناثهم، ثم يقول: وعلى أولادهم. قال صاحب المقدمات: يدخل ولد البنات عند مالك وجميع أصحابه، لنصه على كل واحد وولده، ومع النص لا كلام، وعن ابن زرب عدم الدخول"¹⁰.

وجاء في المحلى، في مسألة الجمعة:

"وقال مالك: لا تصلى فيه جماعة أخرى إلا أن يكون له إمام راتب... وقد أخبرني يونس بن عبد الله القاضي قال: كان محمد بن يبقى بن زرب القاضي إذا دخل مسجداً قد جمع فيه إمامه الراتب، وهو لم يكن صلى تلك الصلاة بعد، جمع بمن معه في ناحية المسجد"¹¹.

هذا عن ابن زرب وتجلياته في الفقه والقضاء، فماذا عن كتاب الخصال ومنهجه فيه؟

ثانياً: إفادة تتعلق بكتاب الخصال

1- وصف المخطوط

أصل كتاب الخصال: نسخة خطية محفوظة بالخزانة الوطنية بمديرية تحت رقم MSS4914 من 169 لوحة. مقاس كل منها 11/16 سنتم، عدد أسطرها تسعة عشر سطراً يحتوي كل منها على إحدى عشرة كلمة تقريباً.

وهي النسخة الوحيدة المعتمدة في هذا العمل، إذ لم يسعفني البحث في الفهارس وسؤال أهل الخبرة للعثور على نسخة ثانية.

حدث بها راويها عن القاضي أبي الوليد عن ابن زرب رحمه الله بجامع قرطبة.

استهل رواية ما حدث به بكتاب الطهارة، وختمه بكتاب الديات.

أما ناسخ الكتاب فلم يعثر على اسمه أو تاريخ رسمه، ولعله من ممتني النساخة. إلا أنه لم يكن من حاذقها لشيوع أخطائه وتعدد خلطه وسهوه، والظاهر أنه نقلها عن نسخة أخرى، وعارض ذلك المنقول بها، يشهد لهذا كثرة التصحيحات، وتوارد الاستدراكات عليها.

2- صعوبة نقله وإخراجه:

بالرغم من أن الناسخ حاول أن يقابل المنسوخ ويصححه كما هو ظاهر في متنه وطرره، إلا أن ضعف بضاعته، وقلة زاده جعله يثقل المخطوط بجملته أمور منها:

10 - الذخيرة، 355/6.

11 - المحلى، 237/4.

أ- كثرة الأخطاء النحوية والإملائية.

ب- تكرار نسخ بعض الجمل.

ج- اضطراب التنبيه على نهاية الكتب الفقهية، وصورته: أنه لما أتم الكلام عن كتاب المواريث، استهل كتاب العتق بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم قال أبو بكر محمد بن يقي بن زرب القاضي رحمه الله.

فانصرف الذهن إلى أن ذلك المستهل مشعر ببداية الجزء الثاني من الخصال، إلا أن الناسخ صدرت عنه تنبيهات تدل على نهاية كتب أخرى مما ضعف مؤدى ذلك الانصراف.

والظاهر أن ما وقع التنبيه عليه لم يخدم الذي سيق من أجله، فجاءت العبارات الدالة عليه غير معبرة عما نحن فيه. فقد خص كتاب الاستحقاق بثلاث خصال، ووضع الناسخ بذيله: "تم الكتاب الثالث يتلوه في الرابع" والمقصود به القسمة. وقوله بالثالث والرابع لا وجه له، لأن مجموع الكتب التي تقدمت الاستحقاق أكثر من ذلك.

كما أنهى باب: دية المرأة وعقلها" بقوله: "تم كتاب..." وهذا لا متعلق له أيضا.

د- اضطراب ترتيب أوراق المخطوط.

وصورته أن الناسخ لما وصل في عمله إلى اللوحة 149 قدم ما حقه أن يكون في اللوحة 158 مما أدى إلى فساد المعنى.

ولعل هذا ناتج عما حصل له من خلط في ترتيب الأوراق. وبعد قراءات متعددة للنص تبين بحمد الله موطن ذلك الخلط فعملت على إقامتها والتنبيه عليها في هوامشها.

3- مواضيع كتاب الخصال

تعتبر الفترة التي ألف فيها الخصال مرحلة فاصلة بين عصر الأمهات المطولات والشروح والتعليقات، لذا جاز أن ننتع طبقة ابن زرب بخاتمة المتقدمين لأنهم كانوا ينقلون عن مالك بالواسطتين والثلاثة.

ولما كانت موضوعات الكتاب من مرويات أحد تلاميذ ابن زرب فإن الحديث عنها رهين بعهدة من أخذ عن أبي الوليد يونس بن عبد الله فيما حدث به عن شيخه، حيث استهل الكتاب بقوله: باب النية في الوضوء، فبقي الموضوع مفتقرا إلى خطبة المصنف وترجمة الكتاب المستهل به.

لذا سأعرض موضوعات الخصال كما وردت في تراجمها الكلية المنتظمة في كتبها الفقهية ولا أقف عند الأبواب الفرعية لأنها في المخطوط من قبيل المسائل الجزئية. وقد بلغ مجموع الكتب التي ضمنها ابن زرب مؤلفه الخصال نحو ستين كتابا فقهيا اشتملت على أبواب الطهارة والصلاة والزكاة وغيرها وانتهى بها إلى الحدود والديات.

وإذا كانت طبيعة التراجم الفقهية تقتضي إدراج المسائل تحتها فقد ظهر في الخصال ما يبين ذلك الاقتضاء. إلا أنه لم يطرد فيه كما هو الحال في كتب: الصيد والأشربة والإجارة والجعل وغيرها كما اكتفى في بعض الكتب بباب واحد مثل ما جاء في: التمليك وإرخاء الستور والصلح والمديان والجوائح...

وضمن بعض الكتب أبوابا ليست منها كما في كتاب السلم الذي أدخل فيه أبواب البيوع الفاسدة والصرف والكفالة والحوالة والمرابحة والمساواة وغيرها...

ولعل هذا راجع إلى طبيعة التحديث والرواية، وظروف النقل بالإضافة إلى ما اعترى ذلك من تداول النص وتوارد النسخ كما تقدم.

4- منهج ابن زرب في الخصال

الواضح أن غياب خطبة الكتاب عن الخصال، فوتت علينا فرصة الاطلاع على ما جرى به العمل عند المتقدمين، كالإعراب عن سبب التأليف ومنهج العمل فيه.

ومن ثم فإن الحديث عن هذا المنهج يستدعي البحث عما يتقوم به مفهومه، وذلك من خلال الآتي:

أ- طريقة العرض:

عرض القاضي مادته الفقهية عرضا جاريا به ما هو مقرر في أمهات كتب المذهب، وكانت المدونة أحسن ما تجسدت فيه تلك المجازاة، فهو وإن كان لا يعرب عن نقوله عنها، فإن ما قدمه في مؤلفه له تعلق قوي بما رود فيها.

ولما كانت طبيعة الخصال تقتضي التيسير والاختصار في التحرير، فإن القاضي أسس عرضه على تدقيقات إجرائية قائمة على أصول حسابية، فكانت العلاقة بين الأعداد ومعدوداتها مؤذنة

بجمع المفترق وتجنيس المؤتلف، مما سهل على القارئ الوقوف على الفروع الفقهية بردها إلى تراجمها العددية كقوله :

- "الخصال التي لا تقطع الصلاة تسع"

- "صلاة الجمعة خصاها ثلاثة"

- "كتاب الزكاة ثلاث خصال"

- "باب الكفالة أربع خصال" وهكذا...

وإذا جاز لنا أن نعتبر الخصال من المؤلفات الجامعة لفروع المذهب والخادمة لحفظه وتيسيره، فإن ذلك انعكس على طريقة عرضه، إذ لم يظهر فيه ما يصور المنهاج في ترتيب قضايا الحجاج، لأنه مجموع قدم بالأصالة للموالف، فجاء عاريا عن اعتراضات المخالف.

ومع ذلك فإن القاضي لم يخل الموضوع عن صور الاستدلال وهو موضوع :

ب- طريقة الاستدلال

إن الحديث عن منهج الاستدلال عند القاضي له تعلق واضح بطريقة عرضه، فقد ألهاه ما توجه إليه قصده عن الإمعان في رد الفروع إلى أصولها والوقوف على أوجه الاستدلال عليها.

ومع ذلك فقد ظهر في ثنايا العرض ما يمكن اعتياده مادة تخدم ما نحن فيه، يمكن تقديمها وفق الترتيب الآتي :

* استدلاله على بعض القضايا الفقهية بما ثبت من الأدلة النقلية، وهذا مما لم يطرد في مؤلفه حتى أن القارئ يجد صعوبة في الوقوف عليه، ومنه ما ورد في مسألة الوضوء التي قال عنها "وفرض الوضوء أربع خصال" قال الله تبارك وتعالى "يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق. وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين"¹². وقال في منع الضرر: "والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا ضرر ولا ضرار"¹³.

* اعتماده على التعليل في تقرير بعض الأحكام من ذلك قوله: "ورأى ابن القاسم: عليه الحد لأنه حمل أباه على غير أمه فصار قاذفا لأبيه".

12 - سورة المائدة، الآية 6.

13 - أخرجه ابن ماجه رقم 2332.

* إعماله لقاعدة مراعاة الخلاف :

منها قول القاضي : "يفسخ قبل الدخول ويثبت بعد الدخول" والحديث هنا عن نكاح الشغار كما هو معلوم من بعض صوره.

* إعماله لدليل الاستحسان :

قال ابن زرب "واستحسن مالك أن يكون في الجنين الكفارة إذا ضربها خطأ".

وصورة المسألة أن مقتضى إعمال الأصل أن تكون الكفارة في الضرب العمد. إلا أن مالكا عدل عن مقتضى ذلك الإجراء، وصار إلى حيث تتحقق المصلحة مقابل دليل كلي. والأصوليون لا يريدون بالاستحسان إلا هذا.

يتبين مما سبق أن فقه متقدمي المالكية لم يقم على مجرد النقل والرواية، وإنما تعداه إلى التأصيل والدراية.

وبحكم طبيعة التأليف عند المحققين، فإنهم كانوا يعرضون فروعهم الفقهية مؤسسة على أدلتها الشرعية. ولم تعوزهم الحاجة العلمية إلى بيان أوجه ذلك التأسيس لظهور الدليل عليه عند أخذه. ومما يستدل به على ذلك الظهور أقوال ابن زرب الآتية :

• "لا تنكح امرأة على عمتها ولا على خالتها ولا الأخت على أختها ولا تجمع بينهن في الوطء في ملك اليمين".

• "باب ست خصال يكره للقاضي أن يقضي مع واحدة منها : إذا دخله هم أو نعاس أو ضجر، ولا يقضي وهو جائع ولا يقضي وهو شبهان جدا، ولا يقضي في القضاء كثيرا جدا".

• وإن كان الزاني غير محصن جلد بالسوط مائة جلدة".

فهذه تراجم فقهية تدل بالبداية على أصولها الشرعية مما يزكي دعوى رجوع ما دون من الأحكام التكليفية إلى أدلتها الإجمالية والتفصيلية.

تم الكلام بإيجاز عن التعريف بمخطوط الخصال للقاضي ابن زرب والحمد لله رب العالمين.

ديوان الحمد

سادس الأسياذ...

محمد أبو الخيرة

قد أمد العرش عزا ومجدا
في ركاب سار نصرا وسعدا
خاتم للرسول وحيا وزهدا
وارث للأبجداد عرشا وأسدا
من قديم فاق سهلا وطودا
سدد الأسياذ يوما وبعدا
صادق قولاً، وفعلاً، وبعدا
لا يوارى فيه رمزا وجلدا
إنه الآمال نوعا وعدا
عد ميثاقا وثيقا وعهدا
ينشئ الأركان علما وقصدا
تلو صنو كان حلما ووعدا
كي يرانا الكون خصبا وزندا
كان للأخلاق حصنا وسدا
ذكر رب شاء حفظا وووردا
بالكراسي زاد فهما ورشدا
يكرم الأفاضل علما وجندا
يمنح الأبرار قلبا ووودا
كل من جاره صولا وحدا
أثمرت خيرا عميما وجهدا
فضل عرش فاق فهما ورصدا
أو دخيلا دس سما وحقدا
يخلق الأوراق قربا وبعدا
يكمل الأيتام جدبا ومدا

في العلاضياء نور بـيـمن
من جـدود قد تتالت سـعود
والهـمام المرتضى سـبط عـبد
سادس الأسياذ شـهم شـريف
عن أب فـذ وجـد عـظيم
عباً الأحرار روحا وقلبا
والمتنبي مـصلح دون ريب
والورى قد أكبرت فيه إرثا
إنه المحبوب فينا جميعا
قد علا عرشا شريفا بحق
قام كالآباء يبنى صروحا
في ركاب الشهم يعلو بناء
بأدر المحفوظ فينا بعزم
مد للشرع الحكيم الذي قد
إذ بنى صرحا، وصرحاً ليتلى
في صباح في مساء وجمعا
جاء ميثاقا لعود جهيل
يبعث الأبجداد طولا وعرضا
ينشر الطهر الذي فاق قدرا
للعلوم النافعات التي قد
صان أرضا، شد أزرا، وأثرى
كل ما يغري سفيها مشيرا
يبسط العدل المرجى رحما
في سهول، في جبال، وبحر

بالمبرات التي قد تجلّت
 لا تراه العين إلا كـريماً
 عن صحارى، عن فيافي بحزم
 الرعايا ما أرادوه نورا
 مصحف أعلاه رسماً وضبطاً
 للحديث الثبت أعلى مقاماً
 في الحبيب المصطفى فاق خلقاً
 أنت مولاي الذي حاز إرثاً
 دمهم ما جـدا في قلوب
 في جديد من تليد ودوما

مرحمات والرضا هب رفدا
 بحر جود، والعلا فك قيـدا
 عن جبال، عن سهول وأهدى
 مسلـكا، ماء، وفصـلاً، وضمدا
 ثم توزيعاً جميلاً وحمدا
 شاع درساً في صيام، ووجدا
 دونما نديضاهيه مجدا
 لم يكن في الناس صنوا ونـدا
 قد أتت تهديك حبا وعهدا
 ومن وليد في حفيد وخلدا

ببحر من الطويل شعري منشد لبدر من السمو قصدي محمد

فوزي زيزي إبراهيم

إمام المسلمين مجد مُرَدَد
على عرش أسلاف بحق مُقَلَّد
سلوك رفيع نبع لفد مُفَدَّد
حليم وسيفكم لفقر مُهَنَّد
صلاح بظلكم صحيحا مُوطَّد
عصيا أعدتموه سهلا مُرَوَّد
طريقا عبرتموا نجاحا مُعَبَّد
نماء زرعتموا بدا لا مُهَدَّد
طغاة ردعتموا بحزم مُجَهَّد
سوادا أزحتموا بأبيض مُولد
أقلتم مغالبا فأضحى مُقَعَّد
بعدل جماعي لفرد مُنْقَد
وعيا شملتكم بعطف مُجَسَّد
وصال بفضلكم سلك مُوجَّد
لفكر وتعبير شعاع مُعَرَّد
فلاح لإصلاح سوي مُلَهَّد
وسمع ومسموع جلي مُنْضَد
شباب بتشجيع لشغل مُمَهَّد
وبحر حميتهم من غريب مُلَحَّد
لديمقراطية تناوب مُقَلَّد
صمان بدستور بشرع مُسَنَّد
نواب ومجلس لشورى مُنْجَد
وأحمى بكم قوماً وفيما مجاهد

أمير المؤمنين نجم مُمَجَّد
همام بسوعي عبقرى متلد
طموح لكم فك لقيد مُقَيَّد
حكيم وحكمكم قرار مُقَصَّد
آمال بعهدكم يقينا مُجَدَّد
ظلام أنزتموه نورا مُوقَّد
قلوبنا كسبتموا بقلب مُورَّد
شباب جبلتموا برأي مُحَدَّد
حقوقا أعدتموا بناء مُشَيَّد
خذلتهم بعزم حقد عقد مُكَيَّد
أدرتكم إدارة بحبل مُشَدَّد
أعدتم ضوابطاً بشكل مُصَنَّد
حيتم كرامة بحق مرفَّد
جهاز لسلطة عن الرأي مُحَيَّد
مذيع صحافي وتلفز مُقَدَّد
نظام على شفافية مُصَمَّد
لرأي ومزأي تبصر مُمَرَّد
نزيف لعاطل بجزم مُمَهَّد
نموفم ششمر رقي مُصَعَّد
ديون تقلصت وسعر مُجَمَّد
حقوق قوانين وحقوق مُجَرَّد
قضاء حكومة أمان مُحْشَد
حماكم رحيم رحمان قادر أحد

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 15 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاوَر الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1. الخطاب القرآني بين التصورات الشرعية والتصديقات الحقوقية
2. إمارة المؤمنين والبعد الإفريقي
3. أصول الفتوى في المغرب الأقصى
4. السيرة النبوية في الكتابات المعاصرة
5. العقيدة الأشعرية ومنظومة القيم الحضارية المغربية
6. جهود المغرب في تكوين القيميين الدينيين
7. العمران المغربي: فقه وفن وتنمية
8. الرحلة والرحالة المغاربة
9. الأدب المغربي: تاريخ وأعلام

فهرس العدد

افتتاحية العدد 7

ملف العدد

الولاء والبيعة في الصحراء المغربية والسودان الغربي من خلال مجموعة من النصوص التاريخية

ذ. أحمد الأزمي 11

خصوصية الملكية المغربية

ذ. لحسن سكتفل 33

إمارة المؤمنين والمذهب المالكي

ذ. الحسين إد سعيد 39

إمارة المؤمنين وفكرة الجهورية الموسعة

ذ. عبد المجيد بوكير 53

عناية أمير المؤمنين بالتصوف السني

ذ. عبد الوهاب الفيلاي 69

رعاية شباب العالم القروي في الخطب الملكية السامية

ذ. حسن عزوزي 79

مقالات داعمة

جغرافية انتشار العلويين السجلماسيين في المغرب الأقصى في القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر
الميلادي

ذ. مولاي هاشم العلوي 89

البعثات الطلابية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر

101.....ذ. عبد القادر سعود

الهجرات المغربية البينية عبر التاريخ: الهجرات الجزائرية نحو المغرب بين القرنين 16 و19 نموذجا

113.....ذ. محمد أمطاط

حركة التأليف في المولد النبوي الشريف ونصيب المغاربة منها

125.....ذ. أحمد إيشر خان

قراءات في أمهات المصادر والمظان

تقديم كتاب : القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر لعيسى بن موسى بن أحمد بن الإمام التطيلي المتوفى سنة 386هـ

139.....ذ. محمد النميج

قراءة في نوادر المخطوطات

قراءة في مخطوط الخصال لابن زرب القرطبي ت 381هـ

157.....ذ. عبد الحميد العلمي

ديوان العدد

قصيدة سادس الأسياذ

167.....ذ. محمد أبو الخبرة

قصيدة لبدر من السمو قصدي محمد

169.....ذ. فوزي زيزي إبراهيم

173.....فهرس العدد

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والبعث
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية